





## خمسة آلاف سنة من

# تاريخ الصين

المجلد الثاني

**خمسة آلاف سنة من**

# تاريخ الصين

**المجلد الثاني**

خمسة آلاف سنة من

# تاريخ الصين

المجلد الثاني

تحرير

نبيل السردوك

ترجمة

شركة المأمون للترجمة

荣寰






يتضمن هذا الكتاب ترجمة الاصل الصيني

Five Thousand Years of Chinese Nation (Volume 2)

Written by Han Xing'e, Guo Chunfeng

Translated by شركة المأمون للترجمة

Original Title: 中华上下五千年（全3册）/ ISBN: 978-7-210-08139-5



**الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2019 م – 1441 هـ**

**ردمك 978-614-02-3836-7**








التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

## المحتويات

# 65

## ما يوان اكتسب قوة مع التقدم في العمر

نحن نعلم أنه لا غنى عن مساعدة الآخرين من أجل إنجاز مهمة كبيرة.

في عملية استيلاء ليو شيو الإمبراطور قوانغ وو على البلاد، قدّم بعض الناس اقتراحات له، وهاجم بعض الناس أعداء له، ووفّر بعض الناس إمدادات له، وكانت إنجازاته مبنية على مساعدة وإقبال الجنرالات والمستشارين الممتازين، الذين ساهموا قدر الإمكان في مساعدته على الصعود إلى العرش، وإنهاء حالة الفوضى في البلاد.

بعد وفاة ليو شيو، تسلم العرش ابنه ليو تشوانغ أي الإمبراطور مينغ، واختار 28 شخصاً من صفوف الجنرالات والمستشارين لوالده، وأمر برسم صورهم على جدار يونتاي في القصر الجنوبي، وعُرف هؤلاء باسم الثمانية والعشرين بطلاً بارزاً في يونتاي.

هناك جدل كبير فيما يتعلق باختيار وترتيب هؤلاء الأبطال، ولنترك هذه المسألة جانباً، حيث يوجد جنرال جدير بالتقدير وهو ليس أقلّ شأناً من أولئك الأبطال، لكنه ليس أحدهم، ولماذا ذلك؟

كان اسم هذا الجنرال الشهير ما يوان.

عندما كان ما يوان شاباً، كانت عائلته فقيرة، فودّع أخاه ما كوانغ واستعدّ لاستصلاح الأراضي وتربية المواشي في المناطق الحدودية. وقال ما كوانغ، إنك متميز بقدرتك وكفاءتك، لكنك ستنجح في وقت متأخر، حيث إن الحرفيين الممتازين لن يكشفوا عن اليشم غير المصقولة أمام الناس في العالم، فقم بما تشاء. ثم ذهب ما يوان إلى المناطق الحدودية.

بعد العمل الشاق، ازداد عدد الأبقار والأغنام لما يوان أكثر من آلاف رأس وعشرات الآلاف من الحبوب، وهو أصبح غنياً في المنطقة، غير أنه لم يحب أسلوب حياته، حيث قال دائماً للضيوف،

إن الرجل يجب أن يكون لديه خطط طموحة، ويتمسك بتحقيقها حتى ولو كان فقيراً ومسنًّا.

قرّر ما يوان تغيير أسلوب حياته، وتنهّد في يوم من الأيام وقال إن أهمية جمع الثروات تكمن في العطاء، وإلا سيكون الرجل عبداً لها، فقام بتوزيعها على أصدقائه وأقربائه وغادر بحزم، عازماً على تحقيق بعض الإنجازات الكبيرة.

مع هذا الطموح، ذهب ما يوان لخدمة الإمبراطور قوانغ وو، وحقق إنجازات عسكرية ملحوظة لأسرة هان الشرقية.

أمضى ما يوان سنوات عديدة على ظهر الخيل ونادراً ما عاد إلى منزله، وفي يوم من الأيام في الخريف، عاد ما يوان من ساحة المعركة إلى منزله، واستقبله مستشاره منغجي الذي رأى أن ما يوان تعبان فقال له إن جنرالكم تعبان للغاية، فاسترح في البيت لبعض الوقت.

كان ما يوان خارج المنزل ونادراً ما يعود إلى المنزل. خريف ذلك العام، وقال إنه عاد من أرض المعركة، لتحية منغ جي، لرؤيته المتربة، والتعب، لا يمكن أن تساعد الراحة التي كنت متعباً جداً، عام، أو في المنزل يتعافى لبعض الوقت الآن.

عارضه ما يوان بلهجة مهيبة وقوية قائلاً، ما زالت القبائل البدوية تهاجم الحدود الشمالية لبلادنا، وأنا كرجل عظيم يجب أن أموت في ساحة المعركة، وكيف يمكنني أن أموت على السرير وفي البيت صوت بكاء المرأة؟

بعد فترة وجيزة، طلب ما يوان من الإمبراطور قوانغ وو الدفاع عن الحدود الشمالية ومقاومة القبائل البدوية، ووافق الإمبراطور وبعثه إلى منطقة شيانغ التي هي الآن مدينة شينغتاي بمقاطعة خبي، ونجح ما يوان في المعركة وأعاد الاستقرار إلى شمال البلاد، حينما وقعت جنوب البلاد حالة من الفوضى.

كان هناك قبيلة على الحدود بين هونان وهوبي في الجنود، وأمر الإمبراطور جيشه لشنّ الهجوم عليها مرتين ولم ينجح جيشه، مما جعل الإمبراطور قلقاً جدًّا. وما إن سمع ما يوان عن الخبر حتى طلب من الإمبراطور إرساله لمهاجمة القبيلة، حيث كان في الثانية والستين من العمر

وهو أشيب الشعر، ونظر الإمبراطور إلى هذا الرجل المسن ولم يتحمل إرساله للقتال فقال له: إن جنرالكم كبير السن، فليذهب جنرال آخر.

قال ما يوان: على الرغم من أنني كبير في السن، لا يزال بإمكاني ارتداء الدرع وركوب الخيل. ولم يثق به الإمبراطور قوانغ وو، حيث ركب ما يوان الخيل ودار أمام القصر، واندهش الإمبراطور من الروح المعنوية العالية لهذا الرجل المسن.

بعد ذلك، أمر الإمبراطور قوانغ وو ما يوان والجنرال ما وو والجنرال قنغ شو بقيادة عدد ضخم من الجنود للتقدم نحو الجنوب لمهاجمة قبيلة وشي. ولكن لم يتوقع أحد أن كل الجنرالات الثلاثة فارقوا الحياة في تلك المهمة، حيث توفي العديد من الجنود من الضربة الشمسية بسبب درجة الحرارة المرتفعة، ومرض ما يوان نفسه، ولم ينجز مهمة مهاجمة قبائل وشي. واستغل بعض الوزراء هذه الفرصة لتأطيره، واتهموه بعدم توجيه القوات بشكل جيد.

تأثر الإمبراطور قوانغ بالشائعة وأرسل المسؤول ليانغ سونغ على الفور للتحقق.

عندما وصل ليانغ سونغ إلى الجبهة الأمامية، قد مات ما يوان من المرض. وكان ليانغ سونغ متهماً من قبل ما يوان منذ زمن طويل، فهو يكرهه كثيراً، ورأى أن فرصة الانتقام قد جاءته أخيراً، فرفع تقريراً إلى الإمبراطور واتهم ما يوان فيه بأنه عاجز عن نيل النجاح في المعركة، وحتى نهب اللآلئ في الجنوب ونقلها إلى بيته.

أصبح الإمبراطور غاضباً جدًّا بعد قراءة التقرير، وبدلاً من تقديم تعازيه لوفاة ما يوان، قام بإلغاء منصبه ولقبه، وطلب التحقق في الجريمة التي ارتكبها ما يوان.

لكن تلك الجريمة جاءت من الفراغ، ولم ينهب ما يوان أي اللآلئ، بل اشترى حبوب يي المماثلة للآلئ بين حين وآخر من أجل تقوية الجسم ومقاومة الحرارة والرطوبة في الجنوب، وذات مرة اشترى كمية هائلة من هذه الحبوب ونقلها إلى البيت بعربة، مما أثار سوء الفهم. وكانت زوجته تعلم أنه تعرّض للظلم والمؤامرة، فرفعت تقارير عديدة إلى الإمبراطور للتعبير عن حزنها ويأسها.

في وقت لاحق، كان هناك مسؤول يدعى تشو بو، وهو تعرّف على الحقيقة وتقدّم إلى الأمام ورفع تقريراً إلى الإمبراطور لتوضيح الحقيقة. وأخيراً وثق الإمبراطور به وتخلى عن ملاحقة ما

يوان، ولكن لم يُعد لقبه طوال الوقت.

ومن المؤسف للغاية، كان لهذا الجنرال الشهير مصير مأساوي جدًّا.

ألّف المثقفان وو تشاكاي ووو تشياو من أسرة تشينغ كتاباً مشهوراً يجمع المقالات القديمة، بما فيها رسالة من ما يوان إلى ابني شقيقه، من بين الرسائل غير العديدة لأسرة هان الشرقية، حيث أمل فيها من ابني شقيقه عدم تعليق نقاط القوة والضعف للآخرين وعدم الخلط بين الحق والخطأ.

وكانت هذه الرسالة بالذات أضرّت بليانغ سونغ، وقام الأخير بتأطير ما يوان. ولن نعرف ما إن كان ما يوان سوف يضحك أو يبكي بعد معرفته الحقيقة.

في النهاية، دعونا نتحدث عن سبب عدم دخول ما يوان إلى قائمة الجنرالات الـ 28.

في الواقع، كان هناك أشخاص تساءلوا عن سبب عدم دخول ما يوان إلى القائمة عند وضعها من قبل الإمبراطور مينغ نجل الإمبراطور قوانغ وو، حيث سأله الوزير ليو تسانغ، لماذا لم أجد الجنرال ما يوان في القائمة؟ وابتسم الإمبراطور مينغ ولم يجب.

وإن التفسير الوارد في كتاب التاريخ كما يلي: تزوّج الإمبراطور مينغ من ابنة الجنرال ما يوان، ومن أجل تجنّب الشكوك وسوء الفهم، لم يُدخل الإمبراطور مينغ ما يوان إلى القائمة.

# 66

# الإمبراطور مينغ بحث
# عن الكتب البوذية المقدّسة

عندما تسافر إلى مدينة لويانغ، ما هي المواقع السياحية التي ستزورها؟

إذا زرتها في شهر أبريل المشمس، فلا بدّ من التمتع بمشاهدة زهور مودان الفاخرة والأنيقة، ثم يجب زيارة جبل لونغمن ومشاهدة التماثيل البوذية المنقوشة عليه، وإذا توفّر الوقت، فلا تنسى زيارة مكان آخر يستحق الزيارة، وهو معبد الخيل الأبيض.

أنا لا أعرف ما إذا كنت تفكّر في سبب تسمية هذا المعبد باسم «الخيل الأبيض» إذا زرته، ويجب أن نبدأ الحديث من ليو تشوانغ الإمبراطور مينغ لأسرة هان إذا أردت معرفة الإجابة.

في ليلة من ليالي عام 64، أنهى الإمبراطور مينغ عمل المصادقة على التقارير في مكتبه وذهب إلى السرير، وحلم حلماً غريباً في تلك الليلة، ورأى فيه رجلاً قوياً ذهبياً وفوقه ضوء أبيض ساطع، وهو كان يطير ببطء حول القصر، ثم صعد إلى السماء في اتجاه الغرب.

استيقظ الإمبراطور مينغ ولم يعرف ما إذا كان الرجل الذهبي في حلمه إشارة للبركة أم للشرارة. وأخبر الوزراء في اجتماع اليوم التالي، وأمل منهم توضيح المعنى الحقيقي لحلمه. لكن الجميع وقع في صمت ولا أحد عرف ماذا يعني الرجل الذهبي في حلم الإمبراطور.

في نهاية المطاف، قال الوزير العالم الدكتور فو يي ببعض التردد: يا صاحب الجلالة، لقد سمعت أن هناك دولة في المناطق الغربية باسم الهند تقدّس آلهة تدعى البوذا، وطوله 5.3 متر ولونه ذهبي وفوقه ضوء ساطع، وأعتقد أن الرجل الذهبي في حلمهم هو البوذا، وهذا إشارة للبركة.

هنا، دعونا نتحدث عن البوذية باختصار.

نشأت البوذية في الهند القديمة، وولد مؤسس البوذية ساكياموني في ولاية كابيرا في شمال البلاد، التي هي الآن نيبال.

كان ساكياموني أميراً ولد في أسرة نبيلة وغنية، لكنه حساس ومتعاطف رأى أن هناك معاناة مثل المرض والشيخوخة في العالم. ولا يسعه إلا أن يتساءل كيف يمكنه الهروب من هذا النوع من المعاناة. ومن أجل العثور على أسلوب لتجنب تلك المعاناة، قرّر التخلي عن حياته الغنية وزوجته، وشرع في سلوك مسار الممارسة الروحية في السنة التاسعة والعشرين.

تعرّض ساكياموني على طول الطريق للعديد من النكسات وأخيراً أدرك بشكل تام وكامل تحت شجرة بودي، وبلغ مستوى فوتو الذي يشير إلى الرجل المنور. ثم أسس البوذية، وتجول في مختلف الأماكن لنشر عقائد البوذية وطوّر العديد من المؤمنين. وبعد وفاته، قام أتباعه بتنظيم وتأليف كتب مقدّسة من أقواله.

اقتنع الإمبراطور مينغ أن الرجل الذهبي في حلمه هو البوذا، فأرسل الوزير تساي يي والوزير تشين جينغ للذهاب إلى الهند للعثور على الكتب المقدّسة.

بعد رحلة شاقة وجد الرجلان راهبين عظيمين في المناطق الغربية، وتعلما العقائد البوذية منهما، ثم قرّرا دعوتهما إلى زيارة الصين لتمرير الوعظ، وكان الخيل الأبيض لهما حمل 42 كتاباً بوذياً مقدساً وتمثالاً بوذياً وعاد الجميع إلى عاصمة لويانغ للقاء بالإمبراطور.

قدّم الراهبان نبذة عن البوذية للإمبراطور، وعلى الرغم من أن الأخير لم يفهم بشكل كامل، طلب منهما ترجمة الكتب المقدّسة إلى اللغة الصينية، وفي عام 68، بنى الإمبراطور معبداً بناء على نصيحة الراهبين، وسماه معبد الخيل الأبيض، لأن الخيل الأبيض الذي حمل الكتب البوذية إليه. وهذا هو مصدر تسمية معبد الخيل الأبيض.

منذ ذلك الحين، بدأت البوذية تنتشر ببطء في الصين، ولم يكن هناك الكثير من الناس يؤمنون بها في البداية، لأن البوذية آنذاك دعت إلى اتخاذ العدمية أساساً لجميع الأمور، ورأت أن روح الرجل خالدة رغم وفاته، وهو سوف يولد من جديد وسوف يعاقب لو فعل الشر في حياته، وكانت هذه العقائد لم تتوافق مع الأفكار والعادات الصينية التقليدية.

ولكن على غرار الجدول الذي يمرّ صعوداً ونزولاً في الجبل والذي سيصب في النهر الكبير في النهاية. إن البوذية الساحرة تكيفت مع التقاليد الصينية وغيرتها تدريجياً، وتفاعلت باستمرار مع أفكار كونفوشيوس ومنسيوس، وأصبحت أخيراً موجة كبيرة على ربوع الصين. وانطلاقاً من حلم، تجذرت وترسخت البوذية في الصين وتحولت من ديانة دخيلة إلى ديانة صينية.

من بين أوائل الأشخاص المؤمنين بالبوذية ليو يينغ أمير مقاطعة تسو.

وكان مؤمناً كبيراً للبوذية وأرسل مساعديه لزيارة الناهبين في مدينة لويانغ للحصول على الكتب المقدّسة فضلاً عن صورة للبوذا. غير أن ائتمانه لم يأت به الحظ الحسن. وفي عام 70، عرف الإمبراطور مينغ أن ليو يينغ تحزّب مع الناس في مختلف الأماكن في محاولة للتمرّد بحجة دراسة العقائد البوذية، فأمر بإقالته ومطاردته في المنفى. وشعر الأخير بأنه ارتكب جرائم كبرى فاختار الانتحار في طريق المنفى.

# 67

# بان تشاو تخلى عن القلم وزار المناطق الغربية

هل ما زلت تتذكر تشانغ تشيان؟

تراوح تشانغ تشيان بلا كلل عبر الحدود بين بلدان مختلفة، ومدّ جسراً للتواصل بين أسرة هان ودول المناطق الغربية، وفتح طريق الحرير الذي يربط بين القديم والحديث. وبعد أكثر من عشر سنوات من وفاة تشانغ تشيان، توفي أيضاً الإمبراطور وو الطموح والعظيم، وانتهى عصر مع عدد لا يحصى من المسؤولين المشهورين، وبدأت أسرة هان تتراجع، ولم يظهر أي مغامر يستحق الذكر لفترة طويلة.

في وقت لاحق، صعد إلى مسرح التاريخ فوضى وانغ مانغ وتناوب السلطة، ولم يكن الوقت متاحاً للمناطق الغربية. ونتيجة لذلك، بدأت الطرق التي فتحها تشانغ تشيان مغطية بالرمال والأعشاب الضارة، وحتى أصبحت غير واضحة بعض الشيء. ومع ذلك، فقد نسيت دول المناطق الغربية تدريجياً أسرة هان التي كانت في يوم من الأيام قوة قوية، وسادت مرة أخرى إلى قبائل الهون.

وبعد عشر سنوات من ذلك، أعادت أسرة هان الشرقية التي أسسها ليو شيو الغنى والاستقرار، حيث وجّه الإمبراطور نظرته نحو المناطق الغربية من جديد. وفي هذا الوقت، ظهر مغامر آخر تمكن من الوصول إلى تلك المناطق الغربية بعد تشانغ تشيان وبسط هيمنة أسرة هان عليها من جديد، واسمه بان.

بالطبع، يمكنك المقارنة قليلاً لمعرفة الفرق بين الرجلين.

ولد بان تشاو في أسرة غنية وكبيرة، وكان والده بان بياو مثقفاً وعالماً في علم التاريخ. وتحت تأثيره، تعلم ابناه بان قو وبان تشاو وابنته باو شاو الأدب والتاريخ منذ الطفولة. وبعد وفاته، واصل بان قو القضية التي لم ينجزها والده وأكمل تأليف أول كتاب تاريخي لأسرة معيّنة وهو

«تاريخ أسرة هان»، وبرزت سمعته بعد ذلك، أما أخته بان شاو فهي مثقفة بارزة في تاريخ الصين وساهمت في تأليف «تاريخ أسرة هان».

وما كانت كفاءة بان تشاو وقد ترك والده وأخوه وأخته بصمات واضحة على السجلات التاريخية؟

اختار بان تشاو طريقاً آخر وخرج بإنجازات تختلف عن أخيه وأخته.

ذات سنة تمّ تعيين بان تشاو مدوناً في البلاط الإمبراطوري، ونقل مع والدته إلى مدينة لويانغ، غير أن طموحاته لم تكمن وراء الكتب. وعندما سمع أن قبائل الهون اجتازت الحدود واعتدت على أهله من جديد، رمى بان تشاو القلم في يده وقال، أنا كرجل كبير، يجب عليّ قتل الأعداء مثل الجنرال فو جيزي وتحقيق إنجازات في المناطق الغربية مثل تشانغ تشيان، وكيف يمكنني الإدمان في الحبر والقلم طوال اليوم وإهدار حياتي؟

سخر زملاء بان تشاو منه، لكن الأخير قال في هدوء: كيف يمكن لشخص غير مهم أن يفهم تطلعات البطل؟

لذا قرّر بان تشاو أن يتخلى عن قلمه وكرّس نفسه في ساحة المعركة.

وجاءته الفرصة أخيراً. وفي عام 73، رافق بان تشاو الجنرال دو قو لمهاجمة قبائل الهون، وقاتل بشجاعة وحقّق النجاح في المعركة، ووجد الجنرال أن بان تشاو موهوب جداً، ورشحه مبعوثاً للإمبراطور للتواصل مع المناطق الغربية.

وافق الإمبراطور على نصيحة الجنرال.

بعد قبول مهمة زيارة المناطق الغربية، أخذ بان تشاو 36 مرافقاً وقطع مسافة طويلة للوصول إلى دولة شانشان التي تقع الآن في منطقة شينجيانغ. وكانت دويلة شانشان كبيرة في دول المناطق الغربية، لكنها تعرضت للاستغلال والابتزاز من قبل قبائل الهون لسنوات طويلة، فكان مَلِكَه سعيداً فوق العادة من زيارة بان تشاو، واستضافه ومرافقيه بكرم الضيافة وحسن الاستقبال.

ولكن تراجع حماس الملك بعد بضعة أيام، وقال بان تشاو الحكيم لمرافقيه إن سبّب تحول موقف الملك على الأرجح هو زيارة مبعوث قبائل الهون، وهو لم يعد جريئاً على أن يكون متحمساً أمامنا.

وما كان العمل في مواجهة هذا الوضع؟

من المقدر أن الشخص العادي سوف يصبر للبحث ببطء عن فرص للتواصل مع الملك، غير أن بان تشاو اختار نهجاً قوياً وحازماً، وقرّر في البداية التأكد من زيارة مبعوث قبائل الهون من عدمها، ثم سأل الخادم الذي يقدمه بالأطعمة حول موعد الزيارة ومكان الإقامة لمبعوث قبائل الهون؟

أجاب الخادم بصدق، وصل المبعوث قبل 3 أيام ويسكن الآن مكاناً يبعد عنا بخمسة عشر كيلومتراً.

ما كان العمل بعد التأكد من زيارة مبعوث قبائل الهون؟

خشي بان تشاو من تسلل الخبر من قبل الخادم، فاعتقله مؤقتاً ثم قال لمرافقيه، لم يصل مبعوث قبائل الهون إلا قبل 3 أيام وقد أصبح موقف الملك تجاهنا سالباً جدًّا، وإذا أخبر المبعوث بوجودنا هنا واحتجزنا، فإننا بالتأكيد غير قادرين على إكمال المهمة، فماذا يجب أن نفعل الآن؟

قال المرافقون، نحن تحت أمرك في هذه اللحظة الخطيرة.

قال بان تشاو بهدوء إنه لا يمكن أخذ النمر إلا بعد دخول كهفه، فلا يمكن تحويل موقف الملك إلا بعد قتل مبعوث قبائل الهون.

وافقه المرافقون.

قرّر بان تشاو شنّ الهجوم باستخدام النار، وقاد الستة والثلاثين محارباً بهدوء في الليل للوصول إلى محيط مخيم مبعوث قبائل الهون، وأمر بإشعال النار وطرق الطبل، ثم هرع المحاربون المتبقون إلى داخل المخيم، واستيقظ المبعوث وأتباعه في ضوء النار وصوت الطبل، وسرعان ما قُتلوا من قبل بان تشاو ومرافقيه.

قطع بان تشاو رأس المبعوث وعاد به.

التقى بان تشاو بالملك فجر اليوم التالي، وشعر الأخير بالخوف الشديد بمجرد رؤية رأس مبعوث قبائل الهون، وأبدى على الفور استعداده للاتحاد مع أسرة هان الشرقية لمواجهة قبائل الهون بشكل مشترك. وبعد إخضاع دويلة شانشان، عاد بان تشاو إلى مدينة لويانغ، وكان الإمبراطور مينغ سعيداً جدًّا من كفاءته وحكمته وشجاعته، لذلك قرّر تعيينه جنرالاً للجيش.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، أرسل الإمبراطور بان تشاو لزيارة دولة يوديان.

كانت دولة يوديان كبيرة وقوية في المناطق الغربية، وزارها بان تشاو مع فريقه القديم، ولكن كان موقف ملك دولة يوديان تجاهه سالباً، وعبّر بان تشاو عن حرص أسرة هان على الاتحاد مع دولة يوديان لمقاومة قبائل الهون سوياً، لكن الساحر بجانب الملك عارضه بشدة.

كانت الخيول مع فريق بان تشاو أعجبت الساحر كثيراً، حيث اعتقد أنه يمكن استخدامها لعبادة الآلهة لحماية الملك.

وافق بان تشاو عن عمد على إعطاء الخيول للساحر، لكنه طلب الساحر للقدوم إليه لأخذ الخيول بنفسه. وعندما جاء الساحر، أخرج بان تشاو سيفه وقطع رأس الساحر، ثم زار الملك به واتهمه قائلاً، هذا هو نتيجة رفضك في الاتحاد مع أسرة هان والتواطؤ مع قبائل الهون.

اندهش الملك في يأس وهو قد سمع قصص بان تشاو في دولة شانشان من قبل، فاتفق على الاتحاد مع أسرة هان لمقاومة قبائل الهون سوياً.

خضعت دولة شانشان ودولة يوديان القويتان أمام أسرة هان الشرقية، ثم أقامت دول صغيرة أخرى مثل شولي وكوتشا التي تقع الآن في منطقة شينجيانغ علاقات ودية مع أسرة هان. ونتيجة لذلك، تمّ تعيين بان تشاو مبعوثاً خاصة للإمبراطور للمناطق الغربية. وهو ساهم في إعادة مدّ الجسر المنقطع بين أسرة هان والمناطق الغربية.

في هذا الوقت، كان قد مضى وقت طويل منذ رمي بان تشاو لقلمه وتحويله في ساحة المعركة، وحقّق تطلعاته في نهاية المطاف وكانت إنجازاته ليست أقل أهمية مقارنة مع تشانغ

تشيان، أما زملاؤه الذين سخروا منه في السابق فقد اختفوا ببطء في نهر الزمن، ولم يتركوا أي بصمات فيه.

## 68

# تشانغ هنغ اخترع جهاز رصد الزلزال

وقع زلزال في منطقة لونغشي حوالى عام 138م.

كان الزلزال مفاجئاً لدرجة أنه كان من الصعب تجنبه، وانهار عدد لا يحصى من المنازل في الهزات الأرضية، وطارت طيور وهرعت الأبقار والأغنام في ذعر وخوف، ورمى المزارعون المحاريث الخشبية في أيديهم وهرعوا إلى بيوتهم، وسقط جرحى في القرية وصاحوا تحت المنازل المنهارة في يأس.

تزامناً مع الزلزال في منطقة لونغشي، نظر رجل في عاصمة لويانغ إلى جهاز لرصد الزلزال، وفجأة جاء ضجيج غريب وسقطت كرة نحاسية مستديرة من فم التنين النحاسي للجهاز، وسقطت في فم الضفدع النحاسي تحت، وماذا حدث؟ أخرج الرجل الكرة النحاسية ونظر إلى الاتجاه الشمالي الغربي في قلق.

كان يعلم أن هناك كارثة في ذلك الاتجاه.

وقع هذا المشهد قبل أكثر من 1800 عام، واسم هذا الرجل هو تشانغ هنغ، وهو رجل عجيب في تاريخ الصين، وحقق إنجازات ملحوظة في علم الفلك والرياضيات والجغرافيا والرسم والأدب، وتمت الإشادة به كرجل عليم في كل المجالات. إذن، ما كانت قصصه؟ لنتحدث عنها ببطء.

توفي ليو تشوانغ الإمبراطور مينغ في عام 76، وتسلّم عرشه ليو تان الإمبراطور تشانغ، واكتسبت أسرة هان الشرقية تطوراً مطرداً في عهد حكمه، ولكن بعد وفاته بدأت أسرة هان في التراجع ببطء، غير أنها متألقة في مجال العلوم والتكنولوجيا، ومما يجدر الذكر والثناء هو ابتكار تساي لون لطريقة صنع الورق واختراع تشانغ هنغ لجهاز رصد الزلازل وجهاز رصد السماء.

إن لقب تشانغ هنغ هو تسي بينغ وهو أهل مدينة نانيانغ، وولد في عائلة فقيرة وكان مجتهداً في دراسته، ويحب التفكير بعمق. وفي سنّ السابعة عشرة، غادر تشانغ هنغ عائلته للدراسة في الخارج، وأخيراً جاء إلى مدينة لويانغ للدراسة في الجامعة الوطنية. وبدلاً من تعلم الكتب الكلاسيكية الخمسة والفنون الستة، بدا أن تشانغ هنغ يفضّل علم الميكانيك والفلك والمناخ والتقاويم أكثر. وعرف الإمبراطور أن تشانغ هنغ هو رجل عليم، فعيّنه مدوناً للشؤون الفلكية والتقويمية في القصر.

كان تشانغ هنغ مهتماً جداً بهذا العمل، حيث قدّم بعض الأفكار الفريدة خلال فترة عمله، والتي تُعد مذهلة حقاً. على سبيل المثال، طرح تشانغ هنغ أن كوكب الأرض دائرة، وأن القمر يضيء بسبب انعكاس أشعة الشمس.

لم تَعد هذه الأفكار غريبة في عيون الناس الحديثين، ولكن طرحها تشانغ هنغ قبل 1800 سنة، حيث اعتقد أن السماء تشبه قشر البيض وتحيط الأرض، فالأرض مثل صفار البيض في داخل السماء. وبالإضافة إلى ذلك، صنع تشانغ هنغ أداة فلكية دقيقة وهي جهاز رصد السماء، ويمكن استخدامه لتحديد الأزمنة الشمسية ومراقبة النجوم، وحتى معرفة أن النجوم التي ترتفع من الشرق، والتي تصعد إلى منتصف السماء، والتي تسقط في الغرب.

لكن هذه الاكتشافات والاختراعات لا يمكن مقارنتها بجهاز رصد الزلزال. وفي أسرة هان الشرقية، تكررت الزلازل في أماكن مختلفة، ودمّر فيها عدد لا يحصى من المنازل مع وفيات وإصابات بشرية وحيوانية. ولم يتمكن الناس من تفسير ظاهرة الزلزال بشكل معقول، واعتقدوا أن الأشباح والآلهة فعلت ذلك.

لم يتفق تشانغ هنغ مع الآخرين، واعتقد أن الزلزال ظاهرة طبيعية بعد دراسة مفصلة، ثم كرّس نفسه في دراسة قوانين الزلازل واخترع «جهاز رصد الزلزال» الذي يمكن أن ينبّه في حال حدوث الزلزال.

ووفقاً للسجلات التاريخية، فإن جهاز رصد الزلزال كان مصنوعاً من النحاس وقطره 2.67 متر، وتمّ تقسيمه إلى قسمين. وإن مركز الجهاز أعلى من محيطه وهو يشبه زجاجة من النبيذ، وإن واجهته مزينة بالنصوص ورسومات الجبال والسلاحف والطيور والحيوانات.

يوجد عمود نحاسي داخل الجهاز، وتربط به ثمانية خراطيم مجهزة بمفصلة ويمكن استخدامها في تحديد الدوافع، وعلى واجهة الجهاز ثمانية تنانين نحاسية وهي تقابل ثمانية اتجاهات، وفي فم كل تنين كرة نحاسية وتحته ضفدع نحاسي مفتوح الفم لقبول الكرة الساقطة من التنين. وفي حال حدوث الزلزال، يهتزّ التنين أولاً ويحرّك الدوافع، وتسقط الكرة من فمه إلى فم الضفدع تحت.

مما ينبّه الناس من حدوث الزلزال، ويمكن تحديد اتجاه الزلزال استناداً إلى التنين الذي سقطت الكرة النحاسية منه.

وما كانت فعالية جهاز رصد الزلزال بالضبط؟ وكان الناس متشككين منه.

سقطت كرة نحاسية وأشارت إلى اتجاه الشمال الغربي فجأة في فبراير عام 138. واندهش الناس في خوف، ولكن لا توجد أي إشارة للزلزال في مدينة لويانغ، مما أثار شكوك وتساؤلات الناس من فعالية ودقة جهاز رصد الزلزال.

بعد بضعة أيام من المضايقات، وصل خبر حدوث الزلزال في منطقة لونغشي فجأة إلى عاصمة والذي وقع قبل عدة أيام، تحديداً يوم تنبيه جهاز رصد الزلزال. ومنذ ذلك الحين، لم يشك الناس في فعالية ودقة الجهاز.

هذه هي قصة تشانغ هنغ لصنع جهاز رصد الزلزال.

لم يتم تناقل هذا الجهاز بل اختفى بشكل دائم في التاريخ، ولا نعرف ما إذا كان السبب هو الحرب أو أسباب أخرى. ولا يمكننا إلا الاعتماد على بعض السطور من المعلومات في كتب التاريخ، وهل ما جاء فيها واقعي؟ وهل تشانغ هنغ صنع جهاز رصد الزلزال بشكل حقيقي؟

تسببت هذه التساؤلات في جدل آخر في صفوف الأجيال المتتالية، مما جذب انتباه العالم مرة أخرى إلى تشانغ هنغ الذي عاش قبلنا بما يقارب 1800 سنة. وإذا كنت مهتماً، يمكنك البحث عن البيانات والإجابات لهذه التساؤلات.

# 69
# ليانغ جي المستبدّ والغاشم

نعرف أنه بعد نظام التنازل لزعماء ياو وشون ويو، أصبحت الصين تتناقل بين عائلات مختلفة، وما هذا يعني؟

بعبارة بسيطة، يتناقل العرش من الأب إلى ابنه ثم إلى حفيده ضمن عائلة واحدة. إذن، لا يسعنا إلا أن نسأل ما العمل لو كان الأبناء والأحفاد غير فاضلين أو موهوبين؟ وإن الجواب هو مواصلة تسليم العرش، لأن أهم شيء هو حماية ديمومة العائلة، بما يعني خياراً محدوداً، حيث لا يمكن ضمان جميع الأبناء والأحفاد من نفس العائلة فاضلون وموهوبون، لذلك ظهر بعض الحكام الغاشمين وحتى الحمقى في تاريخ الصين.

سيتم التطرق إلى هذه الأمثلة في الفصول القادمة. وفي إطار هذا النظام، لم يكن لدى الناس القدماء أي خيار سوى الأمل أن يكون الإمبراطور حكيماً ورشيداً. وبالإضافة إلى ذلك، هناك مسألة أخرى في تسليم العرش وهي ما العمل لو أن الوريث الجديد ما زال صغير السن في حال وفاة الإمبراطور؟ هنا يمكن أن نرجع إلى الحاكم تشنغ بمساعدة الوزير جوقونغ والأمير جاو لدويلة هان بمساعدة الجنرال هوقوانغ، فعادة سيختار الإمبراطور مسؤولين جديرين بالثقة لمساعدة ابنه قبل وفاته. ولكن ما العمل إذا لم يفعل الإمبراطور ذلك أو لم يكن المسؤولون موثوقاً بهم؟

لا يملك الإمبراطور الصغير السن القدرة على إدارة الشؤون السياسية، فلا بدّ من تحويل السلطة إلى الناس الأقرب منه. فمن هؤلاء الناس؟ كان منهم أقرباء والدة الإمبراطور والمخصيين الذين يخدمون الإمبراطور نهاراً وليلاً، ومن السهل لهم الاقتراب منه. وإن السلطة تجعل الناس مجنونين ومتغطرسين، وأصبح الكثير من الأقرباء والمخصيين الذين حصلوا على السلطة غير

راغبين في تسليمها حتى عندما يبكر الإمبراطور في سنّه، مما أثار الصراع. ويمكن القول إن تاريخ أسرة هان الشرقية هو تاريخ طويل من الصراع على السلطة.

الآن دعونا نتحدث عن هذا التاريخ من الصراع.

بعد وفاة الإمبراطور خه، تغيرت سلطة أسرة هان الشرقية بشكل متكرر، وكان معظم الأباطرة الجدد أطفالاً صغاراً، مما دفع أقرباء الأمهات إلى الاستحواذ على السلطة، وهو عبارة عن ضعف السلطة في يد الإمبراطور. وعندما كبر الإمبراطور، عادة بدأ في البحث عن طرق تغيير الوضع الحالي، حيث لم يكن له أي خيار إلا الاعتماد على المخصيين بجانبه للتخلص من سيطرة أقربائه. وكررت قصص نزاعات من السلطة بين أقرباء الإمبراطور ومخصييه في أسرة هان الشرقية.

في عام 126، تسلّم العرش ليو باو الإمبراطور شون، حينما كانت السلطة في يد الجنرال العام ليانغ جي شقيق الإمبراطورة ليانغ الأرملة، وهو رجل متعجرف وفعل كما شاء بشكل عشوائي، حيث لم يتمكن الإمبراطور شون من السيطرة على ليانغ جي. وبعد أكثر من عشر سنوات، توفي الإمبراطور شون واختارت الإمبراطورة ليانغ الأرملة وليانغ جي الإمبراطور تشونغ البالغ من العمر عامين فقط لتسليم العرش. وبعد أقلّ من ستة أشهر، توفي الإمبراطور الجديد، واختار ليانغ جي من أبناء العائلة الملكية ليو جي أي الإمبراطور جي الذي كان عمره ثماني سنوات فقط لتولي العرش.

ما زالت السلطة في يد ليانغ جي وواصل فعل ما شاء ولم يأخذ الإمبراطور جي في عين الاعتبار.

على الرغم من أن الإمبراطور جي صغير السن، إنه رجل ذكي ولا يحب ليانغ جي المتغطرس، حيث سبق له أن اتهمه أمام الوزراء قائلاً، إنك جنرال متغطرس بكل معنى الكلمة، حينما أدرك الوزراء أن الإمبراطور قد أساء بليانغ جي، وأن الأخير لن يتحمل هذا الاتهام بالتأكيد. كما توقع الوزراء، على الرغم من أن ليانغ جي لم يواجه الإمبراطور مواجهة مباشرة، بدأت كراهيته تجاه الإمبراطور تتجذر في قلبه منذ ذلك الحين.

ذات مرة تظاهر ليانغ جي بأنه يريد الاعتناء بالإمبراطور ومراعاته، وأمر الناس بإرسال أطعمة سامة له، ولم يشك الإمبراطور فيها وأكل جميعها، وسرعان ما مات بسبب الأطعمة السامة.

أدرك جميع الوزراء أن ليانغ جي هو من قتل الإمبراطور، ولكن لا أحد يجرؤ على الكشف عن الحقيقة. ولا يمكن تسيير البلاد بدون إمبراطور حتى ولو ليوم واحد، فاختار ليانغ جي شاباً يبلغ من العمر 15 عاماً من العائلة الملكية لتسليم العرش وهو الإمبراطور هوان.

لم يتخلص الإمبراطور الشاب هوان من مصير الدمية، حيث ما زال ليانغ جي ممسكاً بالسلطة بشدة، وهو ما زاده تغطرساً وفعل كما شاء مثل الاغتصاب والاستحواذ على الحقول الخصبة، واختطف العديد من الخادمات من الشارع لإجبارهن على العمل في منزله، لكنه ادعى أمام الآخرين أنهنّ أحببن الخدمة في منزله بأنفسهن.

من أجل مراكمة الثروة، أمر ليانغ جي بالقبض على الأغنياء بأسباب مزيفة، ويمكن إعفاء من سلّم أمواله، وقتل من لم يسلم.

ذات مرة عرف ليانغ جي أن هناك رجل غني ولكن محرج باسم صن فن، لذلك ادعى ليانغ جي بإعطائه حصاناً بـ 50 مليون عملة آنذاك، ولكن لم يكن لصن فن مبلغ كافٍ فأعطى لليانغ جي 30 مليون فقط. وكان الأخير غاضباً جدًّا وأمر بالقبض على صن فن وادعى أن أمواله سرقتها والدته عندما كانت خادمة في المنزل نفسه، وطلب من الحكومة المحلية معاقبة صن فن، وقتل الأخير في السجن، وصادر ليانغ جي جميع ممتلكات عائلته.

ازداد استياء الإمبراطور هوان من ليانغ جي، وتأجّج الخلاف بينهما لأن ليانغ جي قتل والدة محظية الإمبراطور.

فكيف القضاء على ليانغ جي؟

استدعى الإمبراطور هوان خمسة خصيان بمن فيهم شان تشاو وأمرهم بقيادة الجنود لمحاصرة منزل ليانغ جي في الليل. واختار الأخير قتل نفسه بتناول السموم بعد معرفة الخبر لأنه أدرك أنه لن يكون لديه نتيجة إيجابية. وكان جماهير الشعب سعداء من وفاة ليانغ جي، وقام

الإمبراطور بمصادرة ممتلكاته ووزع الحقول الزراعية التي استحوذ عليها ليانغ جي على المزارعين، وقام بترقية مناصب الخصيان الخمسة.

ونتيجة لذلك، تحولت السلطة التي أخذها أقرباء الإمبراطور إلى أيدي الخصيان تدريجياً.

# 70
# كارثة الخصيان

بالإضافة إلى الإمبراطور ومحظياته، عاش في القصور الملكية الفاخرة أيضاً العديد من الخادمات والخصيان، فهل تعرف قصتهم؟

كانت حياتهن ليست مشرقة وفاخرة مثل القصور، بل مليئة بالدم والدموع، وإنها أكثر الصفحات مأساوية وداكنة في التاريخ الصيني. وكان هناك قصيدة في أسرة تانغ حول الخادمات في القصر الملكي قالت إن الخادمات لا يمكن الرجوع إلى منازلهن حتى الموت، وعليهن العيش في القصر كأنهن في السجن، وهنّ مثل الزهور تتفتح ثم تتلاشى في النهاية. وفي حال حسن الحظ، يمكن لبعضهن الخروج من القصر للزواج إذا كان الإمبراطور فاضلاً.

أما الخصيان فكانت حياتهم أكثر بؤساً، كما قال الشاعر قو كوانغ من أسرة تانغ في قصيدته حول الخصيان: إن المخصي بيع كعبد منذ صغره وكرّس نفسه في مراكمة ثروة صاحبه، لكنه عانى من سوء المعاملة بقسوة وسبّ وإصابات.

عندما دخل الخصيان القصر، كانوا عموماً أطفالاً صغاراً، وعاشوا في القصر مدى الحياة، وما استطاعوا إلا أن يعانوا من الإذلال، وهم عاشوا في حذر، لذلك كان العديد منهم متواضعين ومشوَّزين. وإنهم أقرب الناس من الإمبراطور، إذن ماذا حصل لو استحوذوا على السلطة؟

قد تحدثنا عن أقرباء الإمبراطور في القصة السابقة، فالآن لنتحدث عن الخصيان.

بعد ترقية شان تشاو وغيره من الخصيان الخمسة في المناصب، سرعان ما سيطروا على السلطة، وكان أداؤهم أسوأ من أقرباء الإمبراطور، حيث بدأ العديد منهم يسيئون التصرف ويبيعون

المناصب ويعينون المقربين ويقضون على غير الموالين لهم، مما جعل أسرة هان الشرقية أكثر فوضوية.

على سبيل المثال كان أحدهم باسم تشانغ شي غشيماً للغاية وقام بنهب ممتلكات المسؤولين والمدنيين بشكل عشوائي من أجل جمع الثروة. ووفقاً للسجلات التاريخية، سيطر هذا المخصي على 180 هكتاراً من الأراضي الزراعية و381 بناية سكنية، ويمكننا أن نرى عدد الناس الذين قتلوا وشرّدوا من هذه الأرقام.

كان هناك بعض الناس يريدون تحويل هذا الوضع، فصعدت على مسرح أسرة هان الشرقية قوة ثالثة ما عدا الأقرباء والخصيان، وهي تعرف باسم قوة شيزو، ولأصحابها مناصب على المستويين المركزي والمحلي، وكان بعضهم يدرسون في الجامعة الوطنية.

وعارضت قوة شيزو بالإجماع سيطرة الخصيان على السلطة، وطالبت بشدة بإصلاح شؤون الدولة والقضاء على الخصيان، وكان الجنرال تشن بو ومسؤول المراقبة لي يينغ رفعا راية مقاومة الخصيان عالياً، لذلك برزت سمعتهما في صفوف طلاب الجامعة الوطنية الذين رأوهما كنماذج يحتذى بها.

في عام 165، قام شخص ما بالإبلاغ إلى لي يينغ عن ملف الفساد لتشانغ شو رئيس محافظة يوانغ وهو شقيق المخصي تشانغ رانغ. ووجد لي يينغ أن الأمر واقعي بعد التحقق، فأمر الناس بالقبض على تشانغ شو على الفور، وكان الأخير خائفاً جدًّا واحتمى في منزل شقيقه تشانغ رانغ. وكان لي يينغ حازماً لمعاقبته فذهب بنفسه إلى منزل تشانغ رانغ وألقى القبض على تشانغ شو، ورفض طلب شقيقه للعفو وقتله في النهاية.

في ذلك الوقت، كانت شؤون الدولة فوضوية بشكل متزايد وانهار النظام القانوني، وكان مسؤول المراقبة لي يينغ هو الوحيد الذي تمكن من حماية السلطة وفرض القانون، والوحيد الذي لم يخف من الخصيان، لذلك كانت سمعته بارزة للغاية، وجاءه الكثير من الطلاب لمقابلته، ومن كان بإمكانه رؤية لي يينغ شعر بالشرف العظيم المتمثل في «زيارة التنين في منزله»، ولكن تشانغ رانغ كره لي يينغ كثيراً.

في عام 116، كان هناك عراف تشانغ تشنغ الذي تواطأ مع الخصيان وهو سمع منهم أن الإمبراطور سوف يعفو عن السجناء، فحرّض ابنه الذي كان في السجن على قتل الناس. وعرف لي يينغ الأمر، خاصة علاقات التواطؤ بين تشانغ تشنغ والخصيان، فأمر بقتل ابن تشانغ تشنغ في السجن رغم مرسوم العفو للإمبراطور.

بدلاً من خبر العفو، وصل خبر وفاة ابنه إلى تشانغ تشنغ فجأة، وهو كان يائساً للغاية وقرّر الانتقام.

استنجد تشانغ تشنغ بالمخصي هو لان والمخصي تشانغ رانغ، وكان الاثنان غير راضين عن لي يينغ منذ مدة، فرفعا تقريراً للإمبراطور قالا إن لي يينغ تواطأ مع الطلاب في محاولة للانقلاب. وكان الإمبراطور هو لان غاضباً للغاية وأمر بالقبض على لي يينغ وغيره تقريباً 200 شخصية بارزة مثل دو مي وتشن هاو وفان بانغ، وفرّ بعض الطلاب إلى خارج المدينة، ثم أمر الإمبراطور بملاحقتهم وعرض مكافأة من أجل القبض عليهم.

من أجل القبض على الهاربين، أصدر الإمبراطور مرسوماً لفحصهم واعتقالهم في كل أنحاء البلاد. وقام الخصيان بتعذيب الهاربين المعتقلين في السجن، وربطوا رؤوسهم وأيديهم وأقدامهم بأدوات التعذيب الخشبية، وأطلقوا على طريقة التعذيب اسم «الأخشاب الثلاثة». ومع ذلك، لم يخضع لي يينغ أمام هذه التدابير القاسية، بل كشف بجرأة الخطايا المختلفة للخصيان في السجن. وبالإضافة إلى ذلك، طلب من المعتقلين كشف علاقات التواطؤ بينهم وبين أبناء الخصيان عن عمد، مما أثار خوف بعض الخصيان.

في الوقت نفسه، أراد والد الإمبراطورة دو وو استخدام المعتقلين لمقاومة الخصيان، لذلك قرّر مساعدة لي يينغ، فذهب للقاء الإمبراطور هوان ورفع تقريراً له يطلب منه عفو لي يينغ. وفي النهاية، أصدر الإمبراطور عفواً عن لي يينغ والطلاب.

لم يحب الخصيان بقاء المعتقلين الذين تمّ إطلاق سراحهم في لويانغ، فطردوهم وحرموهم من الحقوق السياسية طوال حياتهم. وهذه هي كارثة الخصيان في تاريخ الصين، وتلتها كارثة ثانية بعد ذلك بوقت قصير.

# 71

# فان بانغ العادل والمستقيم

توفي الإمبراطور هوان في عام 167.

بدأت الإمبراطورة دو الأرملة ووالدها دو وو في اختيار وريث الإمبراطور الراحل في العائلة الملكية فور وفاته، واختارت ليو هونغ ابن شقيق الإمبراطور الراحل البالغ من العمر اثني عشر عاماً فقط في النهاية، وهو إمبراطور لينغ. وحضرت الإمبراطورة دو الأرملة الاجتماع اليومي في البلاط القصري وراء الستار كل يوم، وعيّنت والدها جنرالاً عاماً، وعيّنت تشن بو جنرالاً.

على غرار الإمبراطور هوان الراحل، كانت الإمبراطورة دو الأرملة مهتمة بالخصيان، غير أن دو وو وتشن بو كانا مع قوة شيزو. وذات مرة قال تشن بو لدو وو، لا بدّ من القضاء على الخصيان من أجل استعادة استقرار البلاد، والآن أنا في الثمانين من العمر، ولا أريد إلا مساعدتك على إزالة هذه الآفة وتحقيق النجاح.

اتفق دو وو معه ورفع تقريراً إلى الإمبراطورة الأرملة، حيث عرض الأفعال الدنيئة للخصيان وطلب منها القبض عليهم. غير أن الأخيرة لم تتفق معه ولم تجرؤ على التصرف بتهور. وبعد ذلك عرف المخصي تساو جي والمخصي وانغ فو عن هذا الأمر واتخذا الخطوة الاستباقية حيث سرقا الختم الإمبراطوري من الإمبراطورة الأرملة، ووضعاها في الإقامة الجبرية، ثم قتلا دو وو وتشن بو باسم الإمبراطور لينغ بحجة جريمة التمرد.

ومنذ ذلك الحين، أعاد الخصيان السيطرة على الحكم من جديد.

وكان أحدهم هو لان يريد الانتقام من تشانغ جيان أحد الوزراء الذي كان قد أساء إليه، وسمع أن الأخير طرد أحد خادميه من المنزل ذات يوم، فتواطأ مع هذا الخادم لتأطير تشانغ جيان، وادعى أنه تحزّب مع 24 شخصاً من مسقط رأسه ولوموا الإمبراطور وحاولوا الانقلاب.

نقل المخصي تساو جي هذا الخبر للإمبراطور وطلب منه القبض على المتحزبين، وكان الإمبراطور البالغ 14 عاماً من العمر لم يفهم معنى المتحزبين وسبب اعتقالهم. وقال تساو جي إن هؤلاء الأشرار حاولوا الانقلاب والتمرّد، ووثق الإمبراطور به وأصدر مرسوماً لاعتقالهم.

سرعان ما اندهشت كل البلاد قيادة وقاعدة من مرسوم الاعتقال، حيث حثّ بعض الناس الجنرال العام لي يينغ البارز السمعة على الهروب من حسن النية، غير أنه قال: أنا كبير في السن فما جدوى الهروب؟ ناهيك عن أن هروبي سيأتي للآخرين بأذى كبير. ونتيجة لذلك، اعتُقل لي يينغ في السجن وتوفي فيه بعد وقت قصير.

وقتل دو مي نفسه بعد أن عرف خبر وفاة لي يينغ، لأنه أدرك أنه لن ينجو من الاعتقال.

في محافظة تشنغتشو التي هي الآن مدينة يانتشنغ بمقاطعة خنان، كان هناك رجل مشهور باسم فان بانغ أحد أصحاب قوة شيزو عرف أن رئيس مقاطعة رونان قد بعث الناس لاعتقاله، فبادر إلى زيارة رئيس المحافظة قو يي. وكان الأخير مسؤولاً عادلاً جدًّا واندهش برؤية فان بانغ وقال له: إن العالم كبير حيث بإمكانك الذهاب إلى أي مكان كما تشاء، فلماذا جئت إلى هنا وطلبت مني اعتقالك؟

وواصل قو يي قوله: من الأفضل أن أترك ختم رئيس المحافظة ولأهرب معك. وأمام هذا المسؤول العادل والجيد، تأثر فان بانغ كثيراً وقال: كلا، وإن الخصيان قد ينهوا عملية الاعتقال في المحافظة في حال وفاتي، فلا يمكنني الهروب معك. وبالأحرى إن والدتي كبيرة في السن، وهي ستُعتقل في حال هروبي.

رفض فان بانغ الهروب مراراً فلم يكن لقو يي أي خيار سوى اعتقاله في السجن.

دعا قو يي والدة فان بانغ لزيارته، وانفجرت العجوز في البكاء بمجرد رؤية ابنها، وتعاطف معها فان بانغ وقال لها: لا تحزني، وبعد أن أموت، لا يزال هناك أخي الأصغر الذي يمكنه أن

يعتني بك. وتوقفت والدته عن البكاء وقالت: أنا مرتاحة جدًّا حيث يمكنك أن تكون مشهوراً مثل لي يينغ ودو مي في التاريخ. ثم بكت العجوز مرة أخرى.

قال فان بانغ لابنه الزائر له: لا يجوز أن أطلب منك فعل الشر، ولكن إذا طلبتُ منك فعل الخير، انظر إلى مصيري ولم أفعل أي شر في حياتي. وانفجر الناس بمحيطه في البكاء بعد الاستماع إلى هذا الكلام. وبعد ذلك قتل فان بانغ في السجن.

وتمّ اعتقال جميع الناس الذين قاوموا الخصيان أو رفضوهم، وقُتل بعضهم وجُنّد البعض في الجيش ثم طُرد البعض الآخر إلى الأماكن النائية، وحُرم بعضهم من الحقوق السياسية طوال الحياة، وهذه هي «كارثة الخصيان الثانية» في تاريخ الصين.

من خلال الكارثتين اللتين أثارهما الخصيان، نجحوا في القضاء على القوى المقاومة وازداد نفوذهم باستمرار وازداد ضررهم وتخريبهم لأسرة هان الشرقية، وهم بمثابة فروع ضخمة لشجرة ضعيفة، حيث اقتربت أسرة هان الشرقية التي أنشأها ليو شيو من نهايتها.

# 72

# انتفاضة العمائم الصفراء
# في نهاية أسرة هان الشرقية

نحن نعلم أنه إذا أردت التسوق فتحتاج للذهاب إلى المتجر الصحيح.

إذا رغبت في شراء الأدوية، عليك الذهاب إلى الصيدلية. وإذا رغبت في شراء الكتب، عليك الذهاب إلى متجر الكتب. وإذا رغبت في شراء الخضراوات، عليك الذهاب إلى السوق. وإذا رغبت في شراء الطعام، عليك الذهاب إلى السوبرماركت. وتُعرض أسعار المنتجات مثل الخضار والأرز وزيت الفول السوداني في الأسواق والمحلات أمامك بكل وضوح. وعندما نحتاج إليها، يمكننا الذهاب لشرائها.

حسناً، فأين يمكن شراء المنصب في رأيك؟ وهل هناك مكان لبيع مناصب والي المقاطعة ورئيس المحافظة؟

قد تضحك عندما ترى هذا السؤال، حيث تتساءل كيف هذا ممكن؟

نعم وفي العصور القديمة، كان المسؤول المحلي هو من يقرر سعادة الشعب من عدمها، ويقرر سياسة الضرائب الباهظة والاستغلال والقمع أو سياسة الانفراج وسعادة السكن والعمل. فيجب اختيار أصحاب الكفاءة والقدرة لتولي هذا المنصب الهام، وكيف يمكن بيعه مثل المنتجات الموجودة في المتاجر؟

وفقاً للسجلات التاريخية، فعل الإمبراطور لينغ مثل هذا الأمر في عام 178.

حيث أنشأ مؤسسة تسمى «شيدي» وهي كانت مسؤولة فقط عن شيء واحد وهو بيع المنصب. نعم، بيع المنصب بأسعار واضحة واختلف السعر من منصب إلى آخر حسب مستواه

والراتب الشهري لهذا المنصب. وبالإضافة إلى ذلك، إذا كان لديك شخصية أخلاقية جيدة، يمكنك التمتع بالتنزيلات التي تتراوح بين ثلاثين حتى خمسين بالمائة، وحتى يمكنك الاقتراض إذا لم يكن لك أموال، على أن تعيد المبلغ مرتين عما اقترضته.

عند هذه النقطة، هل خطر في بالك مثل صيني قديم وهو «جمع الثروة عبر بيع المنصب».

باع الإمبراطور لينغ المناصب من أجل جمع الثروة، لكنه لا يفهم أن قراره سرّع في وتيرة اجتثاث جذور أسرته التي شارقت على الانهيار أصلاً. ومن السهل أن نعرف أن أول شيء أو الشيء الوحيد الذي يفعله الناس الذين اشتروا المناصب هو جمع الثروة والممتلكات من جماهير الشعب بكافة الطرق المتاحة. وفي مؤسسة شيدي، كان كل منصب مباع عبارة عن قتل عدد لا يحصى من الناس وفقدان عدد لا يحصى من المنازل، حيث حان الوقت لهم للوقوف على القدمين للمقاومة.

في البداية، كان حجم المقاومة صغيراً جدًّا، ولم يهتم بها الإمبراطور لأنه لم يتوقع أنها سوف تتحول إلى انتفاضة كبرى باسم انتفاضة العمائم الصفراء سوف تجتاح كل البلاد. وكان زعيمها تشانغ جياو وهو أهل مقاطعة جولو التي هي الآن محافظة بينغشيانغ بمقاطعة خبي. وفي الوقت نفسه، كان زعيم مذهب السلام الدائم، واعتقد أن العالم سوف يدخل عصر السلام الدائم، حينما لن يقلق الناس من مشاكل الغذاء والكساء وسيعيشون حياة خالية من الهموم. وبالطبع كان هذا هو فقط حلماً بالنسبة إلى الناس الذين عاشوا في حالة من الفقر والمرارة، وما كان لهم بالإضافة إلى الحلم؟

كان تشانغ جياو طبيباً أصلاً وساعد المرضى بين الحين والآخر مجاناً، لذلك رأى العديد من الفقراء أنه منقذهم واحترموه كثيراً وانضموا بنشاط إلى مذهب السلام الدائم. وشهد مذهب تشانغ جياو تطورات حثيثة للغاية وانتشر في كل المقاطعات والمحافظات خلال أقل من 10 سنوات، وتجاوز عدد المؤمنين مئات الآلاف الذين انتشروا في 8 مناطق رئيسية وهي تشينغ وشو ويو وجي وجينغ ويانغ وتشونغ ويو، التي هي الآن شاندونغ وخبى وخنان وهوبى وهونان وجيانغشى وآنهوى وجيانغسو.

قسّم تشانغ جياو المؤمنين في ستة وثلاثين فريقاً، وعيّن زعيماً أي جنرالاً لكل فريق على حدة، وحيث بلغ عدد المؤمنين في الفريق الكبير عشرة آلاف، والفريق الصغير ستة أو سبعة آلاف، وكان تشانغ جياو القائد العام لجميع الزعماء. وخطّط الجميع لإطلاق الانتفاضة في يوم 5 مارس عام 184 في 8 مناطق رئيسية في آن واحد بشعار «ماتت السماء الزرقاء، وجاءت السماء الصفراء، وحان عصر جيازي المفعم بالبركة والسعادة»، حيث إن السماء الزرقاء عبارة عن أسرة هان الشرقية بلا شك، والسماء الصفراء عبارة عن الأسرة التي يريد إنشاءه تشانغ جياو، أما جيازي فهو لقب حكم أسرته. ثم أمر تشانغ جياو الناس بكتابة نص «جيازي» على أبواب مقرات الحكومات المحيلة في كافة البلاد كإشارة سرية للانتفاضة.

كان كل شيء جاهزاً، ولكن قبل شهر واحد فقط من يوم الانتفاضة، قام الخائن في قوات الانتفاضة تانغ تشو بتسريب خبر الانتفاضة إلى مسؤول الحكومة المحلية، حيث أمر الإمبراطور بقتل زعيم قوات الانتفاضة في مدينة لويانغ، وقتل أكثر من ألف عنصر من قوات الانتفاضة، حتى أصبحت شوارع مدينة لويانغ حمراء اللون بسبب إراقة الدم.

ثم أمر الإمبراطور بالقبض على تشانغ جياو.

اضطر تشانغ جياو إلى إطلاق الانتفاضة بعد معرفة الخبر، وأمر كافة الزعماء بالانتفاضة على الفور، وطلب من جميع الجنود لبس عمائم صفراء حول رؤوسهم كرمز «السماء الصفراء»، وكانت قواته تعرف أيضاً باسم «جيش العمائم الصفراء»، وأعلن تشانغ نفسه جنرالاً سماوياً، وعيّن شقيقه تشانغ باو جنرالاً أرضياً وشقيقه تشانغ ليانغ جنرالاً إنسانياً، وقام الثلاثة بتوجيه المعركة معاً.

قامت قوات الانتفاضة بإحراق المقرات الحكومية ومهاجمة مقاطعة تلو الأخرى، وسرعان ما وقعت البلاد في الفوضى.

أصبح الإمبراطور لينغ خائفاً للغاية، فدعا الوزراء إلى المناقشة والتباحث عن التدابير المضادة. ثم أمر الجنرال هوانغبو تشونغ والجنرال جو جوان بقيادة 40 ألف جندي نبخة لقمع قوات الانتفاضة، وخسر الجنرال هوانغبو تشونغ في معركته الأولى، ثم قرّر هذا الجنرال الخبيث استخدام النار لمهاجمة جيش العمائم الصفراء وقتل أكثر من 10 آلاف عنصر له في الفوضى.

في الوقت نفسه، حقّق تشانغ ليانغ شقيق تشانغ جياو النجاح في المعركة في الشمال، ثم قرّر الإمبراطور لينغ بعث الجنرال هوانغبو تشونغ إلى الشمال لقمع تشانغ ليانغ، واضطر هوانغبو تشونغ إلى التراجع أمام المقاومة القوية لتشانغ ليانغ، حينما توفي تشانغ جياو فجأة من المرض. وانتهز جيش هان الشرقي الفرصة لشنّ هجمات مضادة عنيفة، وقُتل شيانغ ليانغ في ساحة المعركة وكان عدد جنوده أقل بكثير من الأعداء.

في وقت لاحق، قُتل تشانغ باو أيضاً في المعركة.

إن وفاة تشانغ جياو وشقيقيه على التوالي أعلنت فشل الانتفاضة. وعلى الرغم من هزيمة القوة الرئيسية لجيش العمائم الصفراء، واصل عناصره المتبقون القتال في مختلف المناطق. ويمكن القول إن هذه الانتفاضة قد ضربت بشدة أسرة هان الشرقية الفاسدة، لكنها لم توقظ الخصيان والأقرباء للإمبراطور في مدينة لويانغ من حلم النزاع للسيطرة على السلطة، وسقطت أسرة هان الشرقية مع ازدياد حدّة التوتر فيمن بينهم، مما يفتح الحقبة الرائعة للممالك الثلاث.

## 73

## يوان شاو قتل الخصيان

سقطت شجرة أسرة هان الشرقية العملاقة بسبب التفاعل السلبي بين جذورها وفروعها.

لم تفهم الفروع أنها تشارك في الجذور والحياة والموت، لذلك تنمو بفارغ الصبر للتنافس معها للحصول على أشعة الشمس والمياه، مما أدى إلى تراجع وتدهور الجذور، حيث تسقط الفروع ومجدها الماضي في آن واحد.

يمكن القول إن العائلة الملكية لأسرة هان الشرقية هي مثل شجرة عملاقة، في حين أن قوى الأقرباء والخصيان مثل فروع الشجرة التي تشاركها في السراء والضراء والصعود والهبوط، وتأتي سلطة قوى الأقرباء والخصيان من العائلة الملكية، وهم يتمتعون بحياتهم ومجدهم طالما لم تسقط الشجرة العملاقة، ويفشلون في حال سقوطها.

أجّجت انتفاضة جيش العمائم الصفراء الحالة الفوضوية في أسرة هان الشرقية الفاسدة ودفعتها إلى حافة الانهيار، وكان ما زاد الطين بلةً هو نزاع بين قوى الأقرباء والخصيان في مدينة لويانغ.

وكان هذا النزاع الأخير من نوعه بين قوى الأقرباء والخصيان وكان حسابه سقوط أسرة هان الشرقية. وفي عام 189، توفي الإمبراطور لينغ السخيف وتسلّم عرشه ابنه ليو بيان الذي كان عمره أربعة عشر عاماً فقط، وهو الإمبراطور شاو. وبسبب سنّه الصغيرة، أدارت والدته الإمبراطورة خه الأرملة شؤون الدولة، وأصدرت مرسوم العفو العام وغيّرت لقب الحكم إلى قوانغشي، وعيّنت الجنرال العام خه جين رئيساً للوزراء، بينما سيطر الأخير على سلطة القصر الإمبراطوري.

أخيراً وجد خه جين فرصة لانتقام المخصي تشيان شو رئيس الحرس الملكي الذي كان يحاول اغتياله، فقتل تشيان شو باستخدام السلطة في يده. وعقبه اقتراح العقيد يوان شاو على خه جين للقضاء على قوة الخصيان. وإن يوان شاو ولد في عائلة مشهورة ونبيلة، وقد تولت الأجيال الأربعة المتتالية قبله مناصب سامية في القصر الإمبراطوري، فإن يوان شاو رجل موثوق به في رأي خه جين.

وقال يوان شاو إن الجنرال دو وو في السابق حاول القضاء على قوة الخصيان، لكنه قُتل من قبل الخصيان بسبب تسرّب خبر محاولته واعتماده على الجنود الذين كانوا خائفين من الخصيان أصلاً. لكنك الآن تمسك بالسلطة العسكرية وكل الضباط والجنود لك أصحاب الشجاعة والحكمة تحت أمرك. فيجب على جنرالكم انتهاز هذه الفرصة السانحة التي توفرها لك السماء للقضاء على آفّة الخصيان، بما سيذيع صيتك في التاريخ.

نقل خه جين هذا الكلام إلى الإمبراطورة خه الأرملة، ورفضت الأخيرة ذلك وقالت، لا يمكن إلغاء نظام الخصيان الذي أنشأ منذ بداية أسرة هان، وبالإضافة إلى ذلك، كيف يمكنني قتلهم بُعيد وفاة الإمبراطور لينغ؟

لم يودّ خه جين معارضة الإمبراطورة خه الأرملة.

غير أن يوان شاو اعتقد أن قوة الخصيان ستكون كارثة كبرى إذا لم يتم القضاء عليها، فاقترح على خه جين استدعاء كافة الأمراء من كل أنحاء البلاد للقدوم إلى العاصمة لإجبار الإمبراطورة الأرملة. ورأى خه جين أن هذا الاقتراح جيد ووافق معه.

كان تشن لين مسؤول المكتبة الملكية رفض هذه الفكرة على الفور قائلاً، كما قال المثل القديم إنه لا يمكن القبض على العصفور في حال إغماض العينين، وشأنه شأن شؤون الدولة الكبيرة، ومن السهل للغاية لجنرالكم القضاء على عدة خصيان مثل حرق بضعة شعرات بالنار، وهذا يتفق مع إرادة الشعب. ولكن في حال اجتماع جميع الأمراء في العاصمة، سوف ينجح الأقوى وسيكون الوضع خارج سيطرتنا.

لم يتفق معه خه جين.

كما قال تساو تساو عقيد الحرس الإمبراطوري إن الخصيان ظلوا موجودين على مرّ العصور، لكن الخصيان في أسرة هان الشرقية وصلوا إلى هذا المستوى غير المسبوق بسبب السلطة والنعمة المفرطة التي منحها لهم الإمبراطور. فالآن أرى كفاية قتل زعماء الخصيان، ولم أرَ أي ضرورة لاستدعاء الأمراء من خارج العاصمة، لأن خبر تحركاتهم سوف يتسرّب مسبقاً بالتأكيد، وأتمكن من التنبؤ بالفشل باستخدام هذه الطريقة.

لم يهم خه جين هذا الكلام، واستدعى الأمير دونغ جو من خارج العاصمة، الذي سرعان ما انطلق في الطريق نحو العاصمة.

قلق يوان شاو من إمكانية تراجع خه جين في قراره فقال له إن خطتنا قد دخلت حيّز التنفيذ، فيجب علينا الاستعجال في اتخاذ التدابير الاستباقية.

ثم عيّن خه جين يوان شاو رئيساً للمراقبة وأمره بقتل الخصيان. وكان جميع الخصيان خائفين للغاية بعد معرفة الخبر المتسرّب، وتباحث بعضهم حول سبل القضاء على خه جين. وفي النهاية، أصدروا مرسوماً ملفقاً باسم الإمبراطورة الأرملة لاستدعاء خه جين إلى القصر الإمبراطوري، وما إن وصل خه جين إلى القصر حتى قتله الخصيان وقطعوا رأسه.

بعد معرفة خبر وفاة خه جين، طلب شقيقه الأصغر يوان شاو اقتحام القصر على الفور، لكن الأخير لم ينجح حتى الليل فأمر بحرق بوابة القصر. وفي النهاية، تدفق الجنود إلى القصر وقتل كل الخصيان مهما كانت سنّهم، وقتل أكثر من ألفي مخصي.

تراجعت قوى الأقرباء والخصيان بعد هذا الحدث. وانتهز الأمير دونغ جو الذي استدعاه خه جين الفرصة لدخول مدينة لويانغ والسيطرة على السلطة.

# 74
# تساو تساو برز لأول مرة

كان دخول دونغ جو مدينة لويانغ تدشيناً لعصر مضطرب.

وصفت الشاعرة تساي وينجي من أسرة هان الشرقية في قصيدتها بعنوان «الغضب والسخط» بوضوح مصير التشابك المأساوي لمختلف الناس في العصر المضطرب، حيث قالت في مستهل القصيدة إن دونغ جو اتخذ تدابير رجعية بعد دخول مدينة لويانغ، وأوقع المدينة في فوضى كبيرة، حيث أجبر الإمبراطور شاو للتخلي عن العرش لصالح ليو شي أمير تشنليو ليكون الإمبراطور شيان، ثم قتل الإمبراطورة خه الأرملة بالخمر السام.

أمام هذا الوضع، غادر العديد من المسؤولين مدينة لويانغ، من بينهم رجلان يستحقان الانتباه.

كان أحدهما يوان شاو.

قد تحدثنا في الفصل السابق عن قصة يوان شاو حول كيفية تقديم الاقتراحات لخه جين وقتل الخصيان. وعندما قرّر دونغ جو الإطاحة بالإمبراطور، تساءل يوان شاو أن الإمبراطور ليس صغير السنّ وليس له أي عيوب، كما أن أسرة هان لها إقبال من جماهير الشعب لأكثر من 400 سنة، فإن الشعب لن يتفق معك في الإطاحة بالإمبراطور.

أمام اتهامات يوان شاو، أمسك دونغ جو بمقبض سيفه واتهمه قائلاً، كيف تجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة؟ أوَلستُ من يقرر شؤون العالم؟ ومن يجرؤ على معارضتي؟ ألا ترى أن سيفي حاد بما فيه الكفاية لقتلك؟ وتساءل يوان شاو أيضاً مع الغضب، أأنت البطل الوحيد في البلاد؟ ثم ودّع يوان شاو مع الوزراء وغادر مدينة لويانغ.

أما الرجل الثاني الذي غادر المدينة فهو عقيد الحرس الإمبراطوري تساو تساو.

عند ذكر تساو تساو، يخطر في بال الناس ملامح المسؤول الغادر. ولكن في الواقع، يمكن القول إن تساو تساو رجل ذو حكمة وشجاعة. وهو كان أهل محافظة جياو وولدا ذكياً وحذراً ومخططاً وماهراً في استعمال السلطة، ولم يحب التقيد بآداب السلوك المعمول بها. ذات مرة زار تساو تساو شو شاو محلّل الشخصيات السياسية وطلب منه تحليله، وقال الأخير بلهجة باردة إنك ستكون مسؤولاً رائعاً في وقت السلام، وستكون بطلاً غادراً في وقت الفوضى. كان تساو تساو سعيداً للغاية بهذا التقييم وعاد بفرح.

فعل تساو تساو الأمور بشكل مباشر وجريء، وتولى منصب قائد الأمن في شمال العاصمة في سنّ العشرين، وأمر الحرفيين بصنع أكثر من 20 قضيباً ملوناً وتعليقها على بوابة مقرّ الحكومة المحلية، حيث يُضرب المجرم بها سواء كان نبيلاً أو مدنياً.

في ذلك الوقت، كان عم المخصي تشيان شو رجلاً سخيفاً وتصرف بشكل تعسفي، وخالف القانون المحلي ذات مرة، وأمر تساو تساو بالقبض عليه وضربه حتى الموت. وكان جماهير الشعب سعداء للغاية وصفقوا للإشادة بتساو تساو، وبعد هذا الحدث بدأ الخصيان يخافوا من تساو تساو ويكرهونه كثيراً.

في وقت لاحق، تأثر الإمبراطور بالشائعات حول تساو تساو وقرّر تحويله في منصب آخر خارج العاصمة. وبعد عدة سنوات، أعاد تساو تساو منصبه في مدينة لويانغ من جديد بسبب إنجازه في قمع انتفاضة جيش العمائم الصفراء.

قرّر دونغ جو ترقية منصب تساو تساو، ولكن كان دونغ جو رجلاً عنيفاً وغاشماً، فلم يقبل تساو تساو التعيين الجديد وهرب من العاصمة إلى منطقة تشنليو التي هي الآن محافظة تشنليو بمقاطعة خنان، حيث خطّط لتجنيد القوات لمحاربة دونغ جو، ونال دعم والده ومساعدة أحد النبلاء المحليين باسم وي زي، فضلاً عن انضمام شقيقه تساو هونغ بجنوده، فنجح تساو تساو بتجنيد خمسة آلاف جندي خلال وقت قصير جداً.

كما قالت تساي وينجي في قصيدتها إن العديد من الأبطال كانوا على أتم استعداد لمحاربة دونغ جو.

تجمعت قوات تساو تساو والقوات الأخرى بسرعة بالقرب من مدينة لويانغ. وفي عام 190، تجمعت قوات تساو تساو وقوات المتمردين الأخرى في منطقة سوانزاو، حيث تشكل ائتلاف كبير وتم اختيار يوان شاو رئيساً له.

ماذا فعل لدونغ جو أمام هذا الوضع؟

اختار الهروب، حيث كان خائفاً من اقتحام الائتلاف لمدينة لويانغ، فقرّر تحويل الإمبراطور شيان وسكان العاصمة إلى مدينة تشانغآن، ثم أشعل النار وأحرق مدينة لويانغ العاصمة القديمة لأسرة هان الشرقية منذ قرون، حيث تحولت القصور الفاخرة والمنازل المرتبة على حدود 100 كيلومتراً مربعاً في المدينة إلى رماد في النيران المستعرة. وغادر السكان بلدتهم التي عاشها أسلافهم لأجيال متتالية وبدأوا سلوك طريق الهجرة.

في طريق إعادة التوطين، مات عدد لا يُحصى من الناس بسبب المجاعة والقتل والضرب.

لم يحب الائتلاف التقدم بعد مغادرة دونغ جو للعاصمة، وكان تساو تساو قلقاً للغاية وقال للضباط الآخرين إن سبب الانتفاضة هو مهاجمة دونغ جو وإسناد أسرة هان الشرقية. وقد أحرق دونغ جو القصر وأجبر الإمبراطور على الهجرة، وأوقع الناس في حالة حرجة للغاية، وهذه فرصة سانحة تأتي بها السماء إلينا للقضاء عليه. ويمكننا استعادة استقرار البلاد طالما بذلنا جهوداً متضافرة.

لم يكن لدى الضباط الآخرين أي مصداقية لمهاجمة دونغ جو، وأدرك تساو تساو أنهم فقط أرادوا الحفاظ على قوتهم الذاتية. فقرّر قيادة خمسة آلاف جندي لوحده لمهاجمة دونغ جو، ولم يقطع شوطاً بعيداً حتى تعرّض لاعتراض الجنرال شو رونغ التابع لدونغ جو، حيث عرف الأخير تحركات تساو تساو مسبقاً ونصب كميناً لاعتراضه. وبسبب التفاوت الكبير لعدد الجنود بين الجانبين، سرعان ما هزم تساو تساو وأُصيب بالسهام في كتفه.

عاد تساو تساو بجنوده المتبقين إلى منطقة سوانزاو.

رأى تساو تساو أن جميع جنود الائتلاف البالغ عددهم أكثر من 100 ألف انغمسوا في المتعة والخمر ليلاً ونهاراً ولا أحد فكّر وخطّط للمهاجمة، فأدرك أن هؤلاء الناس المتوسطين لن يحققوا أي

شيء عظيم. وكما توقع تساو تساو ولم يمض وقت طويل حتى انسحبت قوات مختلفة بسبب استنفاد الإمدادات الغذائية. وجاء تساو تساو إلى منطقة يانغتشو التي هي الآن مناطق آنهوي وجيانغسو جنوب نهر اليانغتسي لإعادة تجنيد القوات.

حيث طمح تساو تساو الصعود والنهوض مرة أخرى.

# 75

# وانغ يون قضى على دونغ جو بالتكتيك

وصل دونغ جو بأمان إلى مدينة تشانغآن تزامناً مع استمرار انسحاب القوات المحاربة له.

ماذا حدث في مدينة تشانغآن وما كان مصير دونغ جو هناك؟ دعونا نواصل الحديث. لم تشكل القوات المحاربة الكبيرة لدونغ جو تهديداً له، وازداد تغطرساً بعد انسحابها، حيث أعلن نفسه «تايشي» (الأستاذ الأكبر) وطلب من الإمبراطور شيان تسميته «شانغ فو» (الوالد المحترم)، ثم عيّن أشقاءه وأبناء أشقائه مهما كانت سنهم جنرالات وضباطاً للجيش. ومع ذلك، لا يزال دونغ جو يشعر بعدم الرضا، حيث بنى قلعة في مكان على بعد أكثر من 100 كيلومتر من مدينة تشانغآن، وكانت جدران القلعة عالية وسميكة، فيها عدد لا يحصى من الكنوز والمجوهرات الذهبية والفضية وإمدادات غذائية لما يكفي من مدة 30 عاماً، وأطلق عليها اسم قلعة ميوو واتخذها مكاناً خاصاً لمتعته.

ومنذ ذلك الحين، أصبح دونغ جو أكثر غطرسة ووحشية، حيث قتل جميع المسؤولون إذا ما قالوا خطأ حتى ولو كان صغيراً، وخطّط العديد منهم القضاء على دونغ جو سرًّا. وعرف الأخير أنه قد أثار سخط وكراهية الغير فاشترى بلو بو الشجاع والقوي وأعلنه ابناً له لحماية نفسه، لذلك لم يتمكن الوزراء من قتل دونغ جو.

كان لدى رئيس الوزراء وانغ يون تكتيك.

حيث دعا لو بو لزيارة منزله بين حين وآخر لشرب الخمر والدردشة. ومع مرور الوقت، أصبحت العلاقة بين الاثنين حميمة.

ذات يوم أخبر لو بو وانغ يون أن دونغ جو رجل متغطرس، حيث سبق له أن قال شيئاً غير مناسب أمام دونغ جو وألقى دونغ جو الغاصب رمحاً على لو بو على وشط قتله. ورغم أن دونغ جو قدم تأسفه لاحقاً للو بو، غير أن الأخير لا يزال غير سعيد. وانتهز وانغ يون هذه الفرصة للكشف عن فكرته لقتل دونغ جو لصالح الشعب. تردّد لو بو لحظة وقال إنه ما زال هناك أواصر أبوية بيني وبين دونغ جو. وقال وانغ يون إنك من عائلة لو ولم يكن لك أي علاقة معه أصلاً، والآن لا يوجد أي مجال للحديث عن العلاقات الأبوية وأنت مهدّد بالقتل، ناهيك عن أن دونغ جو لا يفكر في العلاقات الأبوية عندما رمى الرمح عليك؟

اقتنع لو بو بكلام وانغ يون.

في عام 192، التقى الإمبراطور شيان بعد شفائه من مرض خطير بجميع الوزراء في القصر.

من أجل منع اغتيال الغير، لبس دونغ جو درعاً داخل ثوبه العادي، وبسط عدداً كبيراً من الجنود على جانبي الطريق المؤدي إلى القصر. ومع ذلك، فإنه لا يزال غير مطمئن وطلب من لو بو متابعته عن كثب. ولكن لم يتوقع أن لو بو قد اتفق مع وانغ يون وقد استبدل الجنود على جانبي الطريق بأتباع لو بو. وعندما وصلت عربة دونغ جو إلى بوابة القصر، تقدّم حارس إلى الأمام فجأة في محاولة لطعن دونغ جو برمح، ولم ينجح بسبب حماية الدرع، ولكن أُصيب دونغ جو في ذراعه.

نزل دونغ جو من على العربة وصرخ، أين لو بو؟

تقدم لو بو من خلف العربة وأعلن بصوت عال: وفقاً للمرسوم الإمبراطوري، أمر الإمبراطور بقتل دونغ جو الغاشم.

عرف دونغ جو أن لو بو قد خانه وصرخ بصوت عال: كيف تجرؤ أنت على فعل هذا؟ ولكن لم يكمل كلامه حتى طعنه لو بو في حنجرته برمح، ثم تقدّم الجنود لقطع رأس دونغ جو.

وقع الموالون لدونغ جو في الفوضى، ثم واصل لو بو في قراءة المرسوم الإمبراطوري: يجب قتل دونغ جو بنفسه ومن غير الضروري قتل الموالين له. ثم أصبح الجنود هادئين وصاحوا

«يحيا الإمبراطور». كما أن السكان في مدينة تشانغآن سعداء للغاية بعد وفاة دونغ جو، واحتفلوا بتناول النبيذ وأكل اللحوم، ولكن لم تنته كارثتهم بعد.

# 76

## تساو تساو دعا إلى سيادة الإمبراطور شيان

أصبحت سلطة أسرة هان الشرقية اسمية بعد حادثة دونغ جو، ودخلت الأسرة إلى عصر مضطرب.

قد نتساءل عن سبب الاضطراب لأنه قد تمّ القضاء على قوى الأقرباء والخصيان من قبل دونغ جو، والقضاء على دونغ جو من قبل وانغ يون ولو بو. وكان السبب هو تدهور السلطة في يد الإمبراطور بعد حوادث وكوارث متكررة، وتنامي سلطة المسؤولين والأمراء المحليين.

فما كانت قصتهم؟

بدأ معظم أمراء الحرب في السيطرة على القوة العسكرية أثناء قمع انتفاضة جيش العمائم الصفراء، وسبق لهم أن اتحدوا لمهاجمة دونغ جو، لكنهم رفضوا بذل جهدهم وفشلوا في الحملة العسكرية. بعد ذلك، انخرطوا في معارك مشاجرة من أجل السيطرة على مناطق النفوذ، وكان على رأسهم يوان شاو ويوان شو وغونغسون زان وسون تسه وليو بي وليو بياو وتشانغ لو وليو تشانغ.

بالطبع، تعاظم نفوذ تساو تساو أيضاً.

انغمس أمراء الحرب في القتال، حيث تُرك الإمبراطور جانباً الذي كان يتمتع بسيادة السلطة. وبعد وفاة دونغ جو، حدثت معارك عنيفة بين الموالين له في العاصمة، حيث اضطر الإمبراطور ووزراؤه إلى العودة ومغادرة مدينة تشانغآن والفرار إلى العاصمة القديمة لويانغ، التي قد تحولت إلى أنقاض مليئة بالركام والأعشاب الضارة. فبدأ الإمبراطور شيان العيش على هذه الأنقاض وتعرّض للجوع بين حين وآخر كأنه قد نُسي من قبل الغير.

في الواقع، لم ينسه الأمراء وهو خطر في بالهم بين حين وآخر. وذات مرة اقترح جو مستشار يوان شاو عليه إعلان سيادة الإمبراطور، لكن الأخير رفض ذلك، ناهيك عن الأمراء الآخرين الذين لم يروا أي ضرورة تغليب إمبراطور غير وازن على أنفسهم. ولكن كان هناك رجل بينهم اختار الخضوع أمام الإمبراطور، من شأنه أصدر أوامر لقيادة الأمراء باسم الإمبراطور وحقّق إنجازات كبيرة.

وهذا الرجل هو تساو تساو.

في عام 195، رابط تساو تساو في مدينة شوتشنغ، وعرف أن الإمبراطور شيان قد عاد إلى مدينة لويانغ، فاستدعى المسؤولين للتشاور حول ما إذا كان عليه الخضوع أمام الإمبراطور، وعارضه العديد من المسؤولين الذين لم يروا أي ضرورة للخضوع أمامه.

لكن المستشار شون يو قال، في العصور القديمة، أرسل الأمير وين لدويلة جين الجنود لمرافقة حاكم شيانغ لمملكة تشو للعودة إلى مدينة لويي، ثم خضع أمام الأمير وين جميع الأمراء، وسبق للإمبراطور قاوزو لأسرة هان إعلان حداد وطني للأمير الراحل ييدي، ثم نال ثقة الشعب في كل البلاد. فإن الإمبراطور يعيش الآن في حالة صعبة للغاية، والخضوع أمام إرادة الناس، والإمبراطور سيشكرنا، فلنستغل هذه الفرصة السانحة قبل فوات الأوان.

لذلك قاد تساو تساو قواته للقدوم إلى مدينة لويانغ لاستقبال الإمبراطور شيان، وانحنى أمامه وقال مع الولاء إنني ظللت أبحث عن فرص لخدمة البلاد وجلالتكم. وإن الموالين لدونغ جو مذنبان للغاية، وسوف أقضي عليهم بالتأكيد، وأرجو من جلالتكم عدم القلق وضرورة رعاية نفسكم بشكل جيد.

فكّر تساو تساو ثم قال إن مدينة لويانغ مهجورة لمدة طويلة جدًّا ومن الصعب إصلاحها خلال وقت قصير. أما مدينة شوتشنغ فهي غنية بالإمدادات الغذائية، ومن أجل صحة جلالتكم، أدعوكم للانتقال إلى مدينة شوتشنغ. ووقع جميع الوزراء في صمت، ثم قال تساو تساو إنني أرى أنه من الأفضل إعلانها عاصمة جديدة.

نظر الوزراء إلى بعضهم البعض، ولم يكن لهم أي خيار إلا الموافقة مع تساو تساو.

في عام 196، استقبل تساو تساو الإمبراطور شيان في مدينة شوتشنغ وغيرها إلى عاصمة شودو، وبنى قصراً للإمبراطور شيان ودعاه إلى إدارة شؤون البلاد فيه، وفي الواقع وكما نعلم أن تساو تساو لم يرد إلا إصدار المراسيم باسم الإمبراطور وإخضاع الجميع.

أصدر تساو تساو بياناً ملكياً باسم الإمبراطور واتّهم فيه يوان شاو بعدم خدمته للأسرة الإمبراطورية.

ثم عيّن يوان شاو جنرالاً للجيش باسم الإمبراطور وعيّن نفسه جنرالاً عاماً، مما أثار غضب يوان شاو الذي رفع تقريراً لرفض قبول التعيين الجديد. وعرف تساو تساو أن وقت المواجهة المباشرة مع يوان شاو لم يحن بعد، ثم منح لقب الجنرال العام ليوان شاو.

في وقت لاحق، أخذ تساو تساو نصيحة الوزير زاو دي واتخذ نظام الزراعة الجماعية واستصلاح الأراضي، مما حلّ مشكلة الغذاء والعلف، ثم جذب عدداً من أصحاب الهمّة والكفاءة والحكمة مثل شون شو وقو جيا، وازدادت قوته ونفوذه باستمرار.

# 77

# تساو تساو وليو بي شربا الخمر وقيّما الأبطال

يمكن اعتبار تساو تساو بطلاً، إذن في رأيه من كان البطل الذي يمكن التنافس معه؟ إن الجواب هو ليو بي، وكان الرجلان يعيشان في مدينة شودو، وكان تساو تساو متحفزاً، أمام ليو بي فهو حافظ على قوته سرًّا وكرّس نفسه في الزراعة.

ذات يوم دعا تساو تساو ليو بي لشرب الخمر.

بعد تناول بعض الخمر، قال تساو تساو بهدوء إنني وأنت نحن الأبطال الأوحد في العالم، أما يوان شاو فهو ليس أكثر من رجل عادي. تفاجأ ليو بي بهذا الكلام وسقطت العيدان من يده تزامناً مع الرعد خارج النافذة.

سأل تساو تساو، لماذا سقطت العيدان بمجرد الرعد؟

التقط ليو بي العيدان وقال: إن الحكماء قالوا في السابق إن الرجل يخاف من الصاعقة والرعد، وهذه هي الحقيقة.

هذه هي قصة «شرب الخمر وتقييم الأبطال» المشهورة في التاريخ، وهي مشهد رائع في رواية «رومانسية الممالك الثلاث». وفي هذه اللحظة، لا بدّ أن نسأل عن شخصية ليو بي، وسبب إعجاب تساو تساو به؟ وما كانت القصة بينهما لاحقاً؟

دعونا نواصل الحديث.

كان ليو بي أهل منطقة جوجون التي هي الآن محافظة جوشيان بمقاطعة خبي، وهو سليل الإمبراطور جينغ لأسرة هان الغربية. وتوفي والده شاباً وعاش ليو بي مع والدته في حالة صعبة للغاية، لكنه رجل طموح منذ الطفولة. وكان هناك شجرة عالية في الزاوية الجنوبية الشرقية لمنزله،

وهي مثل غطاء لعربة الخيول الفاخرة، وقال الناس الذين استراحوا تحتها إنها شجرة فوق الطبيعة، والذين يعيشون تحتها سيكونون نبلاء. وذات مرة لعب ليو بي مع زملائه تحت الشجرة، وأشار إليها وقال إنني سوف أركب عربة لها غطاء مثل هذه الشجرة يوماً من الأيام في المستقبل.

كان ليو بي لا يحب قراءة الكتب، لكنه يحب معرفة أصحاب الهمّة، وذات مرة عرف كبار التجار تشانغ شيبينغ وسو شوانغ في منطقة تشونغشان، ووجد الرجلان أن ليو بي سوف يحقق إنجازات كبرى في المستقبل، فساعداه على تجنيد القوات وشراء الخيول.

وهكذا، بدأ ليو بي تجنيد القوات وشراء الخيول بتمويل التاجرين، ومن بين جميع المحاربين الذين لجأوا إليه رجلان لفتا انتباه ليو بي، وهما قواني ووتشانغ في، وهما قويان في ساحة المعركة وشاركا ليو بي في نفس الهمّة والهدف، وحتى تناول الرجال الثلاثة الطعام حول نفس المائدة وعلى نفس السرير، كأنهم أشقاء حقيقيون، وأصبحت العلاقات بينهم معروفة لدى الجميع.

بعد الممارسة التدريبية لفترة من الوقت، قرّر ليو بي الانتفاضة، ولكن فشل أمام قمع يوان شو ولو بو. ثم لجأ إلى تساو تساو تزامناً مع استقبال الأخير للإمبراطور شيان في مدينة شودو.

كانت العلاقات بينهما في البداية حميمة للغاية، وبعد القضاء على لو بو، رفع تساو تساو تقريراً إلى الإمبراطور لإعلان ليو بي جنرالاً يسارياً، وطلب منه متابعته طوال الوقت، مما جعل ليو بي غير مطمئن لأنه رجل طموح وكيف يمكنه متابعة رجل آخر والخضوع أمامه؟ وطمح ليو بي الصعود إلى مسرح أكبر وأوسع، وهل يمكن لتساو تساو تحمل رجل قد يتنافس معه في المستقبل؟

إذن ماذا ينبغي أن يفعل ليو بي؟

من أجل تجنب الكشف عن طموحه، اختار ليو بي إخفاء تألقه، وكرّس نفسه في الزراعة كأنه لم يهتم بالأمور خارج منزله. وفي الواقع لم يأت قلق ليو بي من الفراغ، حيث ظل تساو تساو يراقبه سرًّا، وسبق له أن بعث مساعديه لزيارة ليو بي في منزله فجأة، وأصبح مرتاحاً بعد معرفة أن ليو بي كان يقوم بالري والزراعة مثل مزارع.

نعلم أن الإمبراطور شيان أصبح إمبراطوراً اسمياً أمام تساو تساو، لكنه وجد أن الأمر لا يطاق تدريجياً، فكتب مرسوماً ووضعه في حزام الملابس، وسلمه إلى الجنرال دونغ تشنغ وطلب منه القضاء على تساو تساو. تلقى دونغ تشنغ المرسوم وناقش مع المقربين منه، وأدرك عدم إمكانية قتل تساو تساو بقوته الذاتية، فقرّر الاستنجاد بليو بي، وزاره في منزله ووافق ليو بي معه بعد التفكير المعمق.

بعد فترة من الوقت، دعا تساو تساو ليو بي لشرب الخمر وقيم الرجلان الأبطال في المأدبة، وظهر المشهد الذي ذكرناه من قبل. وفي الحقيقة، إن حديث تساو تساو عن الأبطال في البلاد نوع من الاكتشاف لمعرفة ما إذا كان ليو بي مبالياً للسلطة، وإذا كان ليو بي عالي المعنوية، فعلى الأرجح سيتم القضاء عليه بعد فترة قصيرة، ولكن لحسن الحظ تبيّن واتضح خجله أمام تساو تساو بعد الرعد.

بدا تساو تساو مرتاحاً قليلاً، لكن ليو بي عرف أن تساو تساو سوف يقتله بالتأكيد يوماً من الأيام في المستقبل. وذات مرة أمره تساو تساو باعتراض قوات يوان شو في مدينة شوتشو، وانتهز ليو بي هذه الفرصة واحتل مدينة شوتشو بعد تحقيق الانتصار في المعركة ضد يوان شو وخان على تساو تساو. وندم تساو تساو من تكليف ليو بي بتلك المهمة وأصبح غاضباً للغاية وحرص على تدمير ليو بي فوراً.

في يوم ربيعي من السنة التالية، عرف تساو تساو عن حادث حزام الملابس وتآمر دونغ تشنغ مع ليو بي للقضاء عليه، فأصبح غاضباً للغاية وقتل دونغ تشنغ، وقرّر قيادة القوات بنفسه لمهاجمة ليو بي. وفي ذلك الحين أعلن يوان شاو شنّ هجوم ضد مدينة شودو بعد أن استحوذ على منطقة يوتشو التي هي الآن المنطقة الواقعة في شمال مقاطعة خبى ومقاطعة ولياونينغ، وله أكثر من 100 ألف جندي.

اقترح الوزراء على تساو تساو مهاجمة يوان شاو أولاً، لكنه رفض واكتفى بأمر بعض الجنود النخب بالمرابطة في منطقة قواندو لمقاومة يوان شاو، ثم قاد جنوده المتبقين للتقدم نحو مدينة شوتشو، وكان عدد جنود ليو بي أقل بكثير من تساو تساو، فاضطر إلى التخلي عن مدينة شوتشو والاستنجاد بيوان شاو في منطقة جيتشو.

# 78
# معركة قواندو

هناك بلدة صغيرة على بعد حوالى 200 كيلومتر شمال مدينة شوتشانغ لمقاطعة خنان.

وهي مجرد بلدة عادية ولا يوجد شيء لها يستحق الذكر، ولكن اندلعت فيها معركة مشهورة قبل أكثر من 1800 عام غيّرت نمط أسرة هان الشرقية، وهي معركة قواندو.

لم يكن تأثير هذه المعركة موجوداً مع مرور الزمان سوى بعض المعالم القديمة، بما فيها بلدة قواندو وجسر قواندو في البلدة.

وتبدو أن هذه المعالم القديمة هي الإرث الوحيد لهذه المعركة.

إذن ما نوع المعركة التي اندلعت في بلدة قواندو؟ وكيف غيّرت نمط نفوذ أمراء الحرب؟ واندلعت هذه المعركة بين تساو تساو ويوان شاو الذي قاد 100 ألف جندي، وبعث يوان شاو الجنرال يان ليانغ لعبور النهر الأصفر وهاجم بلدة بايما، واتخذ تساو تساو الذي رابط في بلدة قوانغدو تكتيك «الإعلان في الشرق والضرب في الغرب».

أرسل تساو تساو بعض الجنود المتظاهرين لعبور النهر في منطقة يانجين، ووقع يوان شاو في الفخ وبعث جنوده للاعتراض. وفي الوقت نفسه قاد تساو تساو فريقاً آخر من الجنود للتقدم نحو بلدة بايما سرًّا وقتل الجنرال يان ليانغ ليوان شاو وكسر حصاره.

أصبح يوان شاو غاضب جدًّا بعد معرفة أنه وقع في فخ تساو تساو، ثم أمر الجنرال وينتشو بقيادة 50 ألف جندي لمطاردة جيش تساو تساو الذي كان في طريق الرجوع من بلدة بايما إلى بلدة قواندو. فأمر تساو تساو جنوده بإلقاء الأسلحة في وادي الجبل وترك الخيول بشكل عشوائي، ثم نصب كميناً في الجانب الجنوبي للجبل.

وصل الجنرال وينتشو مع جنوده إلى الجبل واعتقد أن جيش تساو تساو قد فرّ إلى مكان بعيد، فأمر جنوده بالتقاط الأسلحة على الأرض، ولكن لم يكن في حسبانه أنه ما إن بدأ الجنود المهمة حتى اندفع تساو تساو وجنوده الستمائة للقتال معهم، وسرعان ما قتل الجنرال وينتشو.

ازداد غضب يوان شاو بعد خسارة جنرالين متتاليين، وإن السخط يحرم الرجل من العقلانية، حيث قرّر التقدم دون انقطاع حتى بلدة قواندو بغضّ النظر عن اقتراح المستشار جو شو حول إعادة التفكير والتخطيط، حيث رأى المخيمات والقلعات التي بناها تساو تساو منذ مدة.

بدأ القتال بين تساو تساو ويوان شاو، وفشل الأول فتراجع إلى المعسكر ودافع عنه ولم يخرج.

لم يتمكن يوان شاو من اقتحام معسكر تساو تساو من الخارج، فتوصل إلى تكتيك، وأمر الجنود بنصب تلال ترابية مقابل معسكر تساو تساو وبناء بنايات عالية عليها، من شأنها يمكن لجنوده رماية السهام من عليها نحو معسكر تساو تساو، مما أوقع الأخير في موقع سلبي للغاية، حيث اضطر تساو تساو إلى البقاء في المعسكر واستخدام الدروع في حال الخروج. فما العمل؟

فكّر تساو تساو ومستشاروه بشكل معمّق ومطول وصمموا نوعاً من عربة إطلاق الصخور الكبيرة لهدم البنايات العالية مقابلهم، مما أوقع يوان شاو في موقع سلبي وسقطت بناياته واحدة تلو الأخرى، وإذا لم يكن حذراً، فسوف يتم سحقه بواسطة الصخور.

فشل يوان شاو في تكتيكه الأول فتوصل إلى تكتيك آخر، وأمر جنوده بحفر الأنفاق سرًّا لمهاجمة تساو تساو من تحت الأرض. وكانت فكرته جيدة، لكنها عديمة الجدوى وقد بنى تساو تساو خندقاً طويلاً وعميقاً أمام المعسكر. وفشل يوان شاو في محاولته من جديد.

وهكذا استمرت المواجهة غير المباشرة بين الطرفين لأكثر من شهر في بلدة قواندو.

وأخيراً نفدت الإمدادات الغذائية لتساو تساو وأصبح جنوده منهكين للغاية، بينما الإمدادات الغذائية ليوان شاو متوفرة. في ظل هذا المأزق، خطّط تساو تساو لسحب قواته، ولكن اقترح عليه المستشار قو يو المثابرة لمدة أطول. فكّر تساو تساو للحظة وقرّر قبول اقتراحه.

كما توقع المستشار وقد سنحت الفرصة لتساو تساو.

سمع مستشار يوان شاو من شو يو أن معسكر تساو تساو نقص من الإمدادات الغذائية، فاقترح على يوان شاو شنّ هجمات مفاجأة ضد تساو تساو، لكن يوان شاو لم يأخذ اقتراحه في عين الاعتبار، بل اتهمه وأدانه لانتهاك أحد أقربائه للقانون في مدينة يهتشنغ، مما جعل شو يو غاضباً وخائفاً، ثم قرّر اللجوء إلى تساو تساو.

كان تساو تساو سعيداً للغاية بلجوء شو يو إليه واستعجل في استقباله حتى لم يرتد الأحذية. وقال شو يو لتساو تساو إنه لدى يوان شاو أكثر من عشرة آلاف عربة للإمدادات الغذائية والذخائر في بلدة ووتشاو، وإن الحراسة هناك ضعيفة للغاية، حيث يمكن مهاجمتها بشكل مفاجئ.

لذلك تقدم تساو تساو مع خمسة آلاف جندي نحو بلدة ووتشاو في الليل، وأحرق جميع العربات ليوان شاو، مما أثار فوضى كبيرة في صفوف جيش يوان شاو، وأصبح جيشه متشتتاً أمام الهجوم العنيف لتساو تساو. وفي النهاية، قاد يوان شاو 800 من جنوده المتبقين للفرار نحو الشمال.

إن معركة قواندو مشهورة في تاريخ الصين بتغلب القليل على الكثير، وتراجعت قوة يوان شاو لدرجة أنه لم يعد قادراً على منافسة تساو تساو، ومات من المرض بعد سنتين من ذلك. وبعد سبع سنوات أخرى، قضى تساو تساو على بقايا قوات يوان شاو ووحّد المناطق في شمال البلاد، وتصاعد واقترب من هدف توحيد البلاد، إذن من هو آخر خصومه في ذلك الوقت قبل تحقيق الهدف النهائي؟

# 79
# استيلاء سون تشوان وسون تسه
# على منطقة جيانغدونغ
# (الضفة الشرقية لنهر اليانغتسي في مجراه الأوسط)

قد سألنا من هو آخر خصوم تساو تساو في الفصل السابق؟

قد أجاب عن هذا السؤال الشاعر شين تشيجي في أسرة سونغ الجنوبية في قصيدته «نانشيانغزي – حول زيارة كشك بيقو»، حيث خطر في باله تاريخ الممالك الثلاث عندما زار الكشك، وكان هناك عدد لا يحصى من الأبطال حقّق انتصارات وإنجازات كبرى في ساحة المعركة وعلى ظهور الخيل، ولم يعد هؤلاء موجودين مع تدفق مياه نهر اليانغتسي نحو الشرق، ولكن من بينهم بطل يستحق الذكر وهو كان شاباً شجاعاً نشطاً في منطقة نهر اليانغتسي واستولى على جنوب شرق البلاد للمواجهة مع تساو تساو.

يمكن القول إن أبرز الأبطال والخصوم الثلاثة في ذلك الحين هم تساو تساو وليو بي وسون تشوان، وقد تحدثنا عن قصة الأولين، فالآن لنتحدث عن سون تشوان، ولنبدأ من قصة شقيقه سون تسه.

في حين خضوع تساو تساو ويوان شاو في معركة الاستنزاف في بلدة قواندو، وجّه شخص أنظاره نحو مدينة شودو.

وهو سون تسه.

كان والد سون تسه رئيس مقاطعة تشانغشا تحت يوان شو، ولجأ سون تسه إلى يوان شو بعد وفاة والده، وكان يوان شو معجباً بحكمته وأناقته ولكن لم يرق به إلى منصب سامي. وكان خال

سون تسه رئيس مقاطعة دانيانغ، ولكن تمت إقالته بسبب تأطير ليو ياو عمدة مدينة يانغتشو، فاستنجد سون تسه بيوان شو وطلب منه استعارة بعض الجنود لمهاجمة ليو ياو، وكان لدى يوان شو وليو ياو خلافات في السابق، فوافق يوان شو على طلبه وسلّمه ألف جندي كانوا موالين لوالد سون تسه.

لم يكن في حسبان يوان شو أن سون تسه سيحقق قضايا كبرى بهؤلاء الألف جندي فقط. وفي طريق سون تسه نحو الجنوب، جاء العديد من الناس للانضمام إلى جيشه، وسرعان ما توسع جيشه إلى خمسة أو ستة آلاف جندي، كما انضم إليه تشو يو زميل الطفولة. وكان جيش سون تسه منضبطاً للغاية ونال إقبال الناس، وهزم ليو ياو خلال وقت قصير جدًّا، ولم ينجح سون تسه في استعادة مقاطعة دانيانغ فحسب، بل أيضاً في الاستيلاء على مقاطعتي وو وكوايجي ومعظم أراضي المقاطعات الست في منطقة جيانغدونغ.

بعد استعادة الاستقرار في منطقة جيانغدونغ، وقعت حادثة قبل هجوم سون تسه لمدينة شودو في حين انخرط تساو تساو ويوان شاو في المعركة العنيفة. حيث هاجم سون تسه مقاطعة وو في بادئ الأمر، وقتل رئيسه شو قونغ، وظلّ المقربون من شو قونغ يريدون الانتقام من سون تسه. وذات مرة نصب هؤلاء كميناً في الغابة عند اصطياد سون تسه، وأطلقوا السهام عليه وأصابوه في الوجه. وازدادت إصابة سون تسه سوءاً، وعرف أنه على فراش الموت، فاستدعى تشانغ تشاو وغيره من المقربين وطلب منهم مساعدة شقيقه الأصغر سون تشوان بعد موته.

سلّم سون تسه ختمه إلى سون تشوان الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، وهل يتمكن هذا الرجل الشاب من أداء المهام الشاقة التي كلّفه بها سون تسه وتحقيق إنجازات جديدة؟

بكى سون تشوان في يأس وحزن بعد مشاهدة موت شقيقه، ثم مسح دموعه وعزم على إكمال قضية شقيقه غير المكتملة. ولكن كان الوضع في منطقة جيانغدونغ غير مستقراً، ولم يهتم به الضباط والجنود القدماء، فما العمل؟ لم يكن لسون تشوان أي خيار سوى مواجهة هذا الوضع الصعب، وركب خيله لإجراء جولة تفقدية في المعسكر لفرض ضغوط على الضباط والجنود غير المهتمين به، ثم استدعى زميل شقيقه تشو يو لمساعدته مع تشانغ جاو معاً.

سرعان ما استقر الوضع في منطقة جيانغدونغ بفضل جهود تشو يو وتشانغ جاو.

اهتم سون تشوان بأصدقائه وأصحاب الكفاءة، وله سمعة بارزة في منطقة جيانغدونغ، كما أنه علم أيضاً أنه لا يمكن مقارنة شقيقه سون تسه في الحرب، فيجب عليه تفعيل المزايا الذاتية وتجنب الكشف عن نقاط ضعفه، لعدم خيبة أمل شقيقه الراحل. لذلك بذل قصارى جهده في جذب وتعيين أصحاب الكفاءة قدر الإمكان.

قال تشو يو له إن لو سو رجل ذو كفاءة ورؤية ثاقبة، ثم دعاه سون تشوان إلى زيارته، وكان الرجلان متطابقين ومتشابهين كأنهم صديقان قديمان. وظل سون تشوان يفكر في كيفية تعزيز سلطته بعد الاستيلاء على منطقة جيانغدونغ، لكن لم يتمكن من الخروج من المأزق في ظلّ الوضع المضطرب. وذات مرة شرب سون تشوان الخمر مع لو سو، وأخبره هذه المعضلة قائلاً: إن أسرة هان الشرقية ضعيفة ووقعت الدولة في الفوضى، وآمل مواصلة قضايا والدي وشقيقي، ومساعدة الحاكم على غرار الأمير هوان لدويلة تشي وأمير وين لدويلة جين، فماذا يمكن أن أفعل برأيك؟

حلّل لو سو الوضع تحليلاً مفصلاً وقال بجدية: إن الإمبراطور قاوزو حاول حماية سلطة الأمير ييدي ولم ينجح في ذلك بسبب عرقلة شيانغيو، وإن تساو تساو هو مثل شيانغيو، فمن الصعب عليك تحقيق إنجازات مثل الأمير هوان لدويلة تشي وأمير وين لدويلة جين. ووفقاً لتوقعاتي، من المستحيل إحياء أسرة هان الشرقية الآن، لأن تساو تساو قد حقّق النجاح في قضيته المهيمنة، لذلك أعتقد أن ما يمكنك فعله الآن هو الحفاظ على منطقة جيانغدونغ والانتظار حتى مجيء الفرصة. والوقت الحاضر، انشغل تساو تساو بأعمال الحرب في الشمال، فيمكننا اغتنام هذه الفرصة لشنّ هجوم ضد ليو بياو واحتلال مقاطعة جينغتشو، ثم توجيه الأنظار إلى كل الدولة.

اتضح الوضع أمام سون تشوان فجأة بعد الاستماع إلى كلام لو سو.

أولى سون تشوان اهتماماً بالغاً بأصحاب الكفاءة، لذلك توالى عليه العديد من الموهوبين المدنيين والعسكريين، وسرعان ما ظهر مشهد مزدهر ومتصاعد في منطقة جيانغدونغ.

# 80
# تشوقه ليانغ خرج من كوخه المتواضع

تصاعد سون تشوان تدريجياً كخصم لتساو تساو، ولكن ماذا عن ليو بي؟

اضطر ليو بي إلى التخلي عن مدينة شوتشو واللجوء إلى يوان شاو في مقاطعة جيتشو، لكن الأخير فشل في معركة قواندو مع تساو تساو، فاضطر ليو بي إلى الفرار من جديد ولجأ إلى رئيس مقاطعة جينغتشو ليو بياو، وسلّمه ليو بياو بعض الجنود للمرابطة في بلدة شينيه التي هي الآن محافظة شينيه بمقاطعة خنان.

بقي ليو بي في بلدة شينيه لمدة بضع سنوات ولم يحقق أي إنجاز، وهذا شيء قاس جدًّا للبطل. وذات يوم، عاد ليو بيي من المرحاض وفجأة انفجر في البكاء وتساقطت دموعه، وسأله ليو بياو على الفور: ما بك؟ قال ليو بي متأثراً: لا شيء، كنت نشيطاً في ساحة المعركة وأمضيت وقتي على ظهر الخيل، لذلك كانت عضلاتي قوية للغاية، لكنني الآن أعيش حياة عاطلة حتى أصبحت عضلاتي فضفاضة. وأبكي لأنني شعرت بالحزن الشديد لعدم تحقيق أي إنجاز كبير مع مرور الزمن.

هل استمر هذا الوضع لليو بي حتى موته؟

لا، كان ليو بي سوف يلتقي بأبرز مستشاريه في حياته وهو تشوقه ليانغ، فما كانت القصة بينهما؟

في ذلك الوقت، عرف ليو بي أن هناك رجل شهير اسمه سيما هوي في مدينة شيانغيانغ، فقرّر زيارته بنفسه.

قال سيما هوي إنني لست سوى رجل عادي، فمن الصعب عليّ الوقوف على الوضع بوضوح، ومن يقدر على الوقوف على الوضع بوضوح هو صاحب الكفاءة الحقيقي، وهناك رجلان ذات كفاءة عالية في المنطقة قد يساعدانك على تحقيق الإنجاز، أحدهما تشوقه ليانغ، والآخر بانغ تونغ، وستنجح في الاستيلاء على كل الدولة إذا تشرف أحدهما أن يكون مستشاراً لك.

عاد ليو بي إلى بلدة شينيه، حيث لجأ إليه شو شو ذات شخصية محلية بارزة.

تطرق شو شو إلى تشوقه ليانغ في الحديث مع ليو بي، وقال إن تشوقه ليانغ ليس أهل بلدة شينيه أصلاً، بل هو أهل محافظة يانغدو لمقاطعة لانغيا التي هي الآن محافظة ييشوي بمقاطعة شانغدونغ، وانتقل تشوقه ليانغ إلى مقاطعة جينغتشو مع عمه بعد وفاة والده، ثم انتقل إلى بلدة لونغتشونغ بعد وفاة عمه. وباشر حياته اعتماداً على الزراعة، وهو كان يحب قراءة كتب التاريخ، وهو رجل بارز الكفاءة والمعرفة وثاقب الرؤية، ولكن لا أحد قد اكتشف موهبته فهو عاش حياة ناسكة في بلدة لونغتشونغ. وقال شو شو لليو بي: عليك زيارة تشوقه ليانغ بنفسك إذا أردت الاستنجاد به.

ثم قدّم ليو بي مع قوان يو وتشانغ في إلى منطقة لونغتشونغ لزيارة تشوقه ليانغ.

عرف تشوقه ليانغ حول زيارة ليو بي، فتظاهر بأنه ليس في البيت عمداً. فعاد ليو بي وهو غير محبط، ثم زار تشوقه ليانغ للمرة الثانية ولم يره من جديد، وهو ما زال غير محبط، فزار تشوقه ليانغ للمرة الثالثة، حيث تأثر تشوقه ليانغ بصدق ليو بي في النهاية، واستضافه في كوخه المسقوف بالقش، وجرى الحديث بينهما في جو ودي وسعيد كأن الرجلين صديقان قديمان.

وقال ليو بي بصراحة إن أسرة هان الشرقية متدهورة، ويمسك بسلطتها تساو تساو الخائن، وأعلم أنني ضعيف القوة والحكمة جداً ولم أحقق أي إنجازات، لكنني أريد حماية العدالة والإنصاف واستعادة سلطة الأسرة، لذلك جئت إلى هنا لاستشارتكم.

وجد تشوقه ليانغ أن ليو بي رجل متواضع ومخلص، فتحدث معه بكل صراحة.

قال تشوقه ليانغ إن تساو تساو قد هزم يوان شاو، ولديه مليون جندي ويصدر مراسيم ملكية باسم الإمبراطور، لذلك لا ينبغي عليك مواجهته بشكل مباشر. أما سون تشوان فهو متمركز في

منطقة جيانغدونغ وله إقبال كبير في صفوف السكان المحليين، فضلاً عن دعم مجموعة من الأشخاص الموهوبين، لذلك لم يكن لك أي خيار سوى الاتحاد معه.

سأل ليو بي عن المكان الذي يجب عليه الذهاب إليه لتحقيق التنمية.

قال تشوقه ليانغ إن الخيار الوحيد هو مقاطعة جينغتشو، وهي تحدُّ من نهر هانشوي ونهر ليشوي في الشمال وبحر الصين الجنوبي في الجنوب ومقاطعتي وو وكواجي في الشرق ومقاطعتي باه وشو في جنوب الغرب، وهي غنية بالموارد الطبيعية وذو أهمية استراتيجية عسكرية، وإن رئيسها ليو بياو غير قادر على الدفاع عنها، لذلك إنها أساس التنمية الذي منحته لك السماء.

بعد الانتهاء من مقاطعة جينغتشو، واصل تشوقه ليانغ الحديث عن مقاطعة ييتشو وقال إن ييتشو تتميز بتضاريسها الصعبة وسهولة الدفاع وصعوبة الاعتداء، وتتميز أيضاً بمساحات شاسعة من الأراضي الخصبة وهي تعرف باسم «بلدة الجنة السماوية» منذ القدم، لكن رئيسها ليو تشانغ لا يعرف كيفية حماية سكانه. فأقترح عليك احتلال جينغتشو وييتشو والاتحاد مع سون تشوان وإعادة تنظيم الشؤون الداخلية وحسن معاملة القبائل الأقلية في جنوب الغرب، وعندما يحين الوقت، فيمكنك شنّ الهجوم من جينغتشو وييتشو للسيطرة على المناطق الأخرى واستعادة حكم أسرة هان الشرقية.

قدّر ليو بي كلام تشوقه ليانغ تقديراً عالياً من صميم قلبه، وانحنى أمامه متأثراً وقال إنني استفدت واستلهمت كثيراً من كلامكم، وأرجو منكم أن تساعدني على إنجاز القضية العظيمة. تأثر تشوقه ليانغ بعمق بصدق ليو بي ووافق عليه بسرور، ثم عاد الرجلان إلى بلدة شينيه.

وفي وقت لاحق، استخلصت الأجيال القادمة القصة بينهما بمثل «زيارة الكوخ المسقوف بالقش ثلاث مرات»، واستخلصت الحديث بينهما بمثل «حديث لونغتشونغ».

بعد سنوات عديدة، قال تشوقه ليانغ في تقريره المشهور «قبل خضوع المعركة» إلى ليو تشان ابن ليو بي: كنتُ مزارعاً في منطقة نانيانغ، ولم أطمح سوى الحفاظ على حياتي ولم أسع وراء نيل السمعة البارزة. لكن الأمير ليو بي الراحل زارني في الكوخ المسقوف بالقش ثلاث مرات واستشارني حول شؤون الدولة رغم أنني كنت متواضعاً، لذلك كنت متأثراً ومتحمساً للغاية وافقت على متابعته وخدمته.

أصبحت العلاقات بين ليو بي وتشوقه ليانغ نموذجية بسبب الثقة المتبادلة بين الرجلين، التي ليست سهلة المنال في التاريخ، حيث كثر بين المسؤول ومن يخدمه عدم الثقة. وكان تشوقه ليانغ محظوظاً لأن ليو بي هو مسؤول جيد. لذلك، فهو مصمم على بذل قصارى جهده لخدمة ليو بي ولم يخش من الموت، حيث قال إنك زرتني ثلاث مرات فيجب عليّ خدمتكم، وتعاملت معي بصدق وإخلاص فيجب عليّ ردّ الجميل إليك لتحقق القضية العظيمة.

هكذا خرج تشوقه ليانغ من كوخه المتواضع، وما هي الإنجازات التي سيحققها ليو بي بمساعدته؟

# 81

# سون تشوان وليو بي
# حاربا تساو تساو في تشيبي

أصبح ليو بي مثل نمرة مع جناحين بمساعدة تشوقه ليانغ، حيث تعاظمت قوته تدريجياً.

بعد أن هزم يوان شاو، نجح تساو تساو في القضاء على بعض القوى الانفصالية والسيطرة على منطقة حوض النهر الأصفر وتوحيد شمال الدولة من حيث الأساس، وخطط توحيد كل الدولة وبسط الهيمنة بقوته العسكرية القوية. أما سون تشوان فقد أسس سلطة مستقرة وثابتة في مناطق الروافد الوسطى والدنيا لنهر اليانغتسي.

في عام 208، قاد تساو تساو الجيش جنوباً من أجل احتلال مقاطعة جينغتشو. وكان رئيس المقاطعة ليو زونغ الابن الأصغر لليو بياو الراحل رجلاً ضعيفاً وخجولاً وغير كفء، واستسلم دون مواجهة هجوم تساو تساو. وبعد ذلك اضطر ليو بي الذي كان يرابط في مدينة فانتشانغ إلى التراجع إلى منطقة جيانغلينغ التي أصبحت الآن مدينة جيانغلينغ بمقاطعة هوبي. ونظراً لشعبيته البارزة، كان سكان مقاطعة جينغتشو على استعداد التراجع معه.

لم يتمكن ليو بي من قطع سوى بضعة كيلومترات يومياً مع جنوده وعتاده وأكثر من 100 ألف مدني، وكيف يمكنه تجنب ملاحقة تساو تساو بهذه السرعة؟ حيث قطع تساو تساو أكثر من 100 كيلومتراً خلال يوم واحد فقط، وسرعان ما لاحق ليو بي في منطقة تشانغبانبو ببلدة دانيانغ.

كانت المعركة بينهما قاسية، وأصبح جيش ليو بي مشتتاً، وأصبح طريقه المؤدي إلى منطقة جيانغلينغ مسدوداً بسبب اعتراض جيش تساو تساو، فاضطر إلى الفرار نحو منطقة شياكو التي هي الآن مدينة ووهان بمقاطعة هوبي، ولكن كان جيش تساو تساو يتابعه عن كثب وعلى وشك ملاحقته من جديد.

فما كان العمل؟ اقترح تشوقه ليانغ على ليو بي أن الخيار الوحيد هو الاستنجاد بسون تشوان.

لذا أرسل ليو بي تشوقه ليانغ ولو سو لزيارة سون تشوان في منطقة تشايسانغ التي هي الآن مدينة جيوجيانغ بمقاطعة جيانغشي. وأبلغ تشوقه ليانغ سون تشوان عن آخر التطورات الميدانية وأمل منه صنع القرار لمقاومة تساو تساو.

كان سون تشوان لا يريد الاستسلام إلى تساو تساو بشكل طبيعي، وإن الاتحاد مع ليو بي خيار واقعي له، ولكن ما هي إمكانيات ليو بي لمقاومة تساو تساو؟ أمام تساؤل سون تشوان، قام تشوقه ليانغ بتحليل الوضع دون تردد وقال إن ليو بي فشل بشكل مؤقت وما زال له 20 ألف جندي يجيدون حرب الماء. وعلى الرغم من أن تساو تساو لديه عدد ضخم من الجنود، إلا أنه قد استنفد بعد قطع مسافة طويلة من الشمال، فضلاً عن أن جنوده غير جيدين في حرب الماء.

فكّر سون تشان بضمير حيال ذلك واتفق مع تشوقه ليانغ، ودعا الوزراء للتباحث حول سبل مقاومة تساو تساو، حينما وصلت إليه رسالة المعركة من تساو تساو عن طريق مبعوثه وقال تساو تساو فيها إن الإمبراطور كلّفه بقيادة 800 ألف جندي لمحاربة سون تشوان.

دعا الجنرال تشانغ تشاو إلى الاستسلام إلى تساو تساو واتفق معه عدد غير قليل من المسؤولين، وكان لو سو المسؤول الوحيد الذي فهم فكرة سون تشوان المتمثلة في الاستسلام الآن عبارة عن طريق مسدود.

نصح سون تشوان ليتذكر بسرعة تشو يو لخطة عمله. عندما عاد تشو يو، كان سون تشوان على الفور يبكي. عين تشو يو كحاكم، وخصّص له جيشاً مائياً يبلغ 30 ألفاً، مما سمح له بتوحيد ليو بي ضد كاو كاو.

شهدت بلدة تشيبي التي هي الآن منطقة جبل روكي الغربي في محافظة وتشانغ بمقاطعة هوبي معركة عنيفة بين الطريفين. وكان معظم جنود جيش تساو تساو من شمال الصين، فلم يتكيفوا مع المناخ والأكل في بلدة تشيبي التي تقع في جنود البلاد، وأصيب العديد منهم بالمرض، وخاصة أنهم لم يجيدوا حرب الماء، وازداد مرضهم سوءاً في موسم الأمطار والعواصف، فما إن بدأت

المعركة بين الطرفين حتى فشل جيش تساو تساو، وانسحب إلى الضفة الشمالية لنهر اليانغتسي، واقترح المستشار على تساو تساو ربط البواخر بالسلاسل الحديدية لكي تكون مستقرة.

أتى استقرار البواخر بخطر خفي وهو صعوبة الانسحاب بسرعة في حال الطوارئ.

قدّم العقيد هوانغ قاي بتكتيك الهجوم بالنار لسون تشوان، حيث أرسل رسالة استسلام إلى تساو تساو، وأمر الجنود بإحضار عشرة بواخر كبيرة سرًّا وشحنها بالقضبان الخشبية الجافة المنقوعة بالزيت، ثم إلقاء الستار عليها.

أصبح كل شيء جاهزاً ما عدا الرياح الشرقية.

في مساء ذات يوم، هبّت الرياح الجنوبية الشرقية وصخبت الأمواج على النهر، وأمر هوانغ قاي بإطلاق البواخر العشرة للتقدم نحو الضفة الشمالية للنهر، وخرج جنود تساو تساو من المعسكر وانتظروا هوانغ قاي للاستسلام بسرور، ولم يكن في حسبانهم أن قوانغ قاي أطلق النار على البواخر عن بعد كيلومتراً واحد فقط من وصولها إلى الضفة الشمالية، حيث اندفعت عشرة بواخر نارية باتجاه معسكر تساو تساو بسرعة تحت تأثير الرياح. أما البواخر لتساو تساو فهي كانت مرتبطة ببعضها البعض ومن الصعب عليها الانسحاب، وسرعان ما أصبحت بحراً من ألسنة اللهب، وانتشرت النار إلى المخيمات في المعسكر على الضفة الشمالية في وقت قصير، حيث قُتل عدد لا يحصى من الجنود والخيول حرقاً وغرقاً.

انتهز تشو يو الجنرال لسون تشوان الفرصة لقيادة جنود النخبة لعبور النهر، مما أثار قلقاً كبيراً في صفوف جيش تساو تساو.

اضطر تساو تساو إلى الانسحاب مع فلوله عن طريق بلدة هوارونغ التي هي الآن محافظة تشيانجيانغ بمقاطعة هوبي، حيث واصل جنود ليو بي وتشو يو مطاردته حتى مقاطعة نانجون التي هي الآن مدينة جيانغلينغ بمقاطعة هوبي.

قد قلبت معركة تشيبي ميزان القوة تماماً في ذلك الوقت.

وخسر تساو تساو أكثر من نصف جنوده البالغ عددهم مئات الآلاف، وترك الجنرالات تساو رن وشو هوانغ وله جين للترابط في مناطق جانغنيونغ وشيانغيانغ جنوب النهر، وعاد بنفسه إلى

الشمال ولم يعد قادراً على الغزو جنوباً. لذلك، تمّ ترسيخ مكانة سون تشوان في المجرى الأوسط والدنيا لنهر اليانغتسي. أما ليو بي فهو استولى على معظم مناطق هوبي وهونان، ثم على سيتشوان بعد ذلك، مما تشكلت الصورة الأولية لتواجد الممالك الثلاث المزمع إقامتها في المستقبل.

# 82
# ليو بي استولى على مقاطعة ييتشو

بعد معركة تشيبي، أصبحت ملكية مقاطعة جينغتشو مشكلة.

كانت جينغتشو أصلاً تحت سيطرة ليو بياو وهو من نفس عائلة ليو بي، فترجع ملكيتها إلى ليو بي بطبيعة الحال، لكنه استولى عليها عن طريق تشو يو جنرال سون تشوان، فرأى الأخير أن جينغتشو ملكه. وبعد النقاش المتكرر، توصل الطرفان إلى حلّ متوسط، وهو إقامة ليو بي في جينغتشو بشكل مؤقت.

إن الإقامة المؤقتة ليست حلاً طويل الأجل، وظلّ ليو بي يخطط لفتح أراض جديدة، وكان تساو تساو يتمركز في الشمال وسون تشوان يتمركز في منطقة جيانغدونغ، فالمخرج الوحيد له هو مقاطعة ييتشو التي ذكرها تشوقه ليانغ في حديث لونغتشونغ، وفي ذلك الوقت أرسل ليو تشانغ رئيس مقاطعة ييتشو مبعوثه لدعوة ليو بي.

كان ليو تشانغ رجلاً غير كفء، غير أن اثنين من مستشاريه فا تشانغ وتشانغ سونغ من أصحاب الكفاءة، واعتقدا أنه ليس لهما مستقبل مشرق لخدمة ليو تشانغ. وسبق للأخير أن بعث تشانغ سونغ لزيارة تساو تساو عند شنّ الأخير هجوماً على مقاطعة جينغتشو، ولم يهتم تساو تساو الذي حقّق الانتصار في المعركة بالمبعوث العادي المظهر الزائر له.

عاد تشانغ سونغ وأخبر ليو تشانغ أن تساو تساو يرغب في احتلال مقاطعة ييتشو، وأقنعه بالاتحاد مع ليو بي لمهاجمة تساو تساو معاً. ثم أرسل ليو تشانغ المستشار فا تشانغ لزيارة ليو بي على الفور.

التقى فا تشانغ بليو بي وهو مسرور للغاية وجرى الحديث بينهما في جو ودي للغاية، وعاد فا تشانغ إلى مقاطعة ييتشو وتواطأ مع تشانغ سونغ سرًّا في محاولة لدعوة ليو بي ليكون رئيس مقاطعة ييتشو.

بعد وقت قصير من ذلك، خطّط تساو تساو لمهاجمة مدينة هانتشونغ القريبة من مقاطعة ييتشو والتي هي الآن مدينة هانتشونغ بمقاطعة شنشي. وفي حال سيطرة تساو تساو على مدينة هانتشونغ، ستصبح مقاطعة ييتشو مهددة، فكانت كل المقاطعة مندهشة وخائفة من تخطيط تساو تساو قيادة وقاعدة. واعتقد المستشار تشانغ سونغ أن الوقت قد حان، فاقترح على ليو تشانغ دعوة ليو بي إلى الدفاع عن مدينة هانتشونغ، بما يمكن ضمان سلامة مقاطعة ييتشو.

وافق ليو تشانغ غير الكفء على مستشاره على الفور وأمر فا تشنغ بقيادة 4 آلاف جندي لدعوة ليو بي. وفور وصول فا تشنغ إلى مقاطعة جينغتشو، قال لليو بي بصراحة إن مقاطعة ييتشو غنية ومترامية الأطراف، وإنك رجل طموح يجب انتهاز هذه الفرصة السانحة لمواصلة القضية العظيمة في ييتشو، والمستشار تشانغ سونغ سوف ينسّق معنا ويساعدكم على الاستيلاء على ييتشو.

اندهش ليو بي من كلام فا تشنغ وفكّر في مقترحه وأصبح متردداً، وأقنعه مستشاره العسكري بانغ تونغ قائلاً إن مقاطعة جينغتشو مهجورة وفقيرة وينقصها أصحاب الكفاءة، وهي محاطة بسون تشوان شرقاً وتساو تساو شمالاً، ومن الصعب عليكم تحقيق الطموحات هنا، أما مقاطعة ييتشو فهي تمتلك أكثر من مليون نسمة ومساحة كبيرة من الأراضي الخصبة والموارد الوفيرة، وستتعاظم حظوظكم في إنجاز القضية العظيمة في حال تمّ الاستيلاء عليها.

رأى ليو بي الحق مع مستشاره العسكري بانغ تونغ، فأمر تشوقه ليانغ وقوان يو للبقاء بمواصلة المرابطة في مقاطعة جينغتشو، ثم قاد قواته للتقدم نحو مقاطعة ييتشو.

لم يكن في الحسبان أن ليو بي ما زال في منتصف الطريق وأن ليو تشانغ رئيس مقاطعة ييتشو كشف عن محاولة الانقلاب لمستشاره تشانغ سونغ وقتله، ثم أمر ليو تشانغ بشن هجوم عنيف ضد ليو بي في مدينة لوتشنغ التي هي الآن محافظة قوانغهان الشمالية بمقاطعة سيتشوان، ودارت المعركة بين الطرفين أكثر من سنة، ونجح جيش ليو بي في نهاية المطاف، لكنه خسر مستشاره

العسكري بانغ تونغ الذي عوّله كثيراً، ثم تقدم ليو بي بحزن نحو مدينة تشنغدو عاصمة مقاطعة ييتشو.

في الوقت نفسه، أرسل تشوقه ليانغ تعزيزات من مقاطعة جينغتشو لدعم ليو بي. ولم يعد بإمكان ليو تشانغ الصمود فاستسلم إلى ليو بي. وفي عام 214، دخل ليو بي إلى مدينة تشنغدو وأعلن نفسه رئيساً لمقاطعة ييتشو. وبمساعدة تشوقه ليانغ، عاش سكان المقاطعة حياة آمنة وعملوا عملاً سعيداً، وتوطّد موقف ليو بي تدريجياً.

# 83
# قوان يو حارب الأعداء استفادةً من قوة الفيضانات

أصبحت مقاطعة ييتشو منطقة نفوذ لليو بي، فهل يجب استرجاع مقاطعة جينغتشو إلى سون تشوان؟

حاول سون تشوان استرجاع مقاطعة جينغتشو، لكن ليو بي رفض ذلك، وكاد أن يؤدي الأمر إلى معركة بين الرجلين. وفي النهاية اتفق الطرفان بعد التفاوض على تقسيم مقاطعة جينغتشو إلى شطرين عبر نهر شيانغشوي، حيث يرجع الشطر الغربي لليو بي، والشطر الشرقي لسون تشوان. وبعد ذلك، اندلعت معركة بين ليو بي وتساو تساو، ونجح ليو بي واضطر تساو تساو إلى الانسحاب من منطقة هانتشونغ والتراجع إلى مدينة تشانغآن.

في عام 219، أعلن ليو بي نفسه أمير هانتشونغ، وعيّن قوان يو جنرالاً أمامياً للجيش.

وفقاً لخطة تشوقه ليانغ في «حديث لونجتشونغ»، قرّر ليو بي توسيع مناطق نفوذه في السهول الوسطى، وكانت مقاطعة جينغتشو الخط الأمامي لدخولها. لذلك، أمر قوان يو بنشر القوات في مقاطعة جينغتشو بإذن ليو بي وقاد جيشه الكبير لهجوم مدينة فانتشنغ التي كانت تحت سيطرة تساو تساو.

كان الجنرال للدفاع عن مدينة فانتشنغ تساو رن لم يتمكن من التصدي للهجوم العنيف الذي شنّه قوان يو، فاستعجل في الاستنجاد بتساو تساو.

أمر تساو تساو الجنرال يو جين والجنرال بانغ ده على الفور بقيادة التعزيزات لدعم تساو رو، وكان الأخير سعيداً للغاية وطلب منهما المرابطة في السهول على الجانب الشمالي من مدينة

فانتشنغ، مما شكّل نمطاً مثلثاً منع قوان يو من مهاجمة المدينة.

ومن غير المتوقع للجميع أنه قد هطلت أمطار غزيرة فجأة في نهاية شهر أغسطس على طرفي معركة الاستنزاف، مما ارتفع منسوب المياه في نهر هانشوي بسرعة وتجاوز 3 أمتار في منطقة السهول، واضطر الجنرال يو جين وجنوده إلى الصعود إلى مرتفع، وانتهز قوان يو الفرصة لحصاره وحرّمه من التقدم والتراجع، واضطر يو جين إلى الاستسلام. إذن ماذا عن الجنرال الآخر بانغ ده؟

قاد بانغ ده مجموعة أخرى من الجنود وهرب إلى ضفة النهر، وحاصره قوان يو وأمر برمي حوالى 10 آلاف سهام على جيش بانغ ده، وقُتل عدد غير قليل من جنوده، وقال بانغ ده في النهاية لجنوده إن الجنرال الرائع لن يخاف من الموت ولن يهرب، والشهيد الرائع لن يفقد أخلاقه من أجل البقاء على قيد الحياة، مما عزّز معنويات الضباط والجنود، وكانوا متحمسين جدًّا لخوض القتال.

كلما ارتفع منسوب المياه، كلما ازداد هجوم قوان يو حدةً وشراسةً، ولاحظ بانغ ده أن حظوظ النجاح قد فاتته، فركب قارباً صغيراً في محاولة لاختراق الحصار، ولكن انقلب القارب بسبب العاصفة، وسقط بانغ ده في الماء.

تقدم جنود قوان يو وألقوا القبض على بانغ ده.

نُقل بانغ ده إلى معسكر قوان يو، وأدرك قوان يو أن بانغ ده رجل شجاع وحكيم، فنصحه بالاستسلام في محاولة لشراء قلبه وتجنيده. لكن بانغ ده حدّق في وجه قوان يو واتهمه ولامه، ورفض الاستسلام رفضاً قاطعاً.

لم يكن لدى قوان يو أي حيلة فأمر بإعدام بانغ ده.

استفاد قوان يو من قوة نهر هانشوي في القضاء على قوات يو جين وبانغ ده، ثم شنّ هجوماً على مدينة فانتشنغ. وكان تساو رن هو من دافع عن المدينة، وخشي بعض المسؤولين من الهجوم العنيف المرتقب لقوان يو، فاقترح على تساو رو الهروب قبل تطويق جيش قوان يو، وطرح البعض

الآخر ضرورة الصمود والمثابرة قائلين إن الفيضانات قد تتراجع بعد بضعة أيام، وسنفقد مناطق النفوذ جنوب النهر الأصفر في حال الهروب.

قرّر تساو رن الدفاع عن المدينة. والآن لنوجه أنظارنا إلى الأماكن الأخرى، حيث توالت فيها انتفاضات أطلقها جماهير الشعب تضامناً مع قوان يو، وبرزت وذاعت سمعته خلال وقت قصير جدًّا. ولكن نعلم أن الصعود والهبوط دائماً في التناوب، إذ إنه حان وقت تراجع قوان يو بعد وصوله إلى قمة حياته، وكان الجنرال المشهور الذي أسقط قوان يو من الجنة إلى الجحيم هو لو منغ (جنرال لسون تشوان)، إذن ما هي القصة عنه؟

## 84

## لو منغ تغلّب على قوان يو بحكمة

قبل أن نتحدث عن قصة لو منغ، لنتحدث عن دور القراءة باختصار.

بعد دخول المكتبة، يمكننا أن نرى كتباً متنوعة معروضة على الرفوف بانتظام حسب الأصناف والفئات، ويمكن إخراج كتاب وفتحه، ويبدو أننا يمكن الشعور بلمسة من رائحة الحبر الجميلة. وإن الناس الذين يحبون القراءة يعرفون أن هناك عالم عجيب مخبأ بين سطور الكتب، التي تجذبك للتراوح فيها دون أي رغبة في المغادرة.

لذلك، عند قراءة هذه الكتب، أتساءل عما إذا كنتَ قد فكرتَ في سبب القراءة، وما هي التغييرات التي ستجلبها لك القراءة؟

يمكننا أن نجد الإجابة في قصيدة «الحث على التعلم» للشاعر منغ جياو لأسرة تانغ، حيث قال إن الإنسان لن يفهم القوانين من كل شيء ولن يفهم العالم المتنوع ولن يعرف الماضي والمستقبل إلا عبر التعلم.

لذلك، القراءة هي طريقة إلى حدٍّ ما للتعلم ولاحتضان العالم تدريجياً في القلب. وفي هذه العملية، يصبح الإنسان حكيماً وعليماً. وإن القراءة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنمو، حيث قال الفيلسوف البريطاني المعروف فرانسيس بيكون إن قراءة التاريخ تجعل الإنسان حكيماً، وقراءة الشعر تجعل الإنسان منيراً، وقراءة الرياضيات تجعل الإنسان حذراً، وقراءة العلوم تجعل الإنسان عميقاً، وقراءة الفلسفة تجعل الإنسان مهيباً، وقراءة المنطق تجعل الإنسان بليغاً، ويقرر ما يقرأه الإنسان شخصيته.

إن سبب الحديث عن دور القراءة هو أن لو منغ كان شخصية تاريخية تمّ تغيير مصيرها عن طريق القراءة. كما يقول المثل الصيني القديم: يجب تبني نظرة مختلفة عند رؤية نفس الضابط بعد

ثلاثة أيام، بمعنى أن الرجل قد يحقق إنجازات كبيرة خلال وقت قصير، فلا يمكن النظر فيه نظرةً قديمةً. وإن الضابط الذي يشار إليه في هذا المثل هو لو منغ، وقد غيّرت القراءة مصيره.

كان لو منغ جنرالاً شهيراً لسون تشوان، وقد أتقن فنون القتال منذ صغره، وحقّق العديد من الإنجازات العسكرية، واهتمّ به سون تشوان كثيراً، وحثّه على قراءة المزيد من الكتب، لكن لو منغ رفض بسبب انشغاله بالشؤون العسكرية.

وقال سون تشوان إنني لم أطلب منك قراءة الكلاسيكيات الكونفوشيوسية أو كونك مسؤولاً لتبشيرها، بل أريد منك قراءة المزيد من كتب التاريخ. وقلتَ إنك انشغلت بالشؤون العسكرية، فهل أنت أكثر انشغالاً مني؟ وأنا أقرأ الكتب بين حين وآخر وأرى فوائد كبيرة للقراءة.

اقتنع لو منغ بسون تشوان، وبدأ بالقراءة طالما لديه وقت كافٍ للقراءة.

ذات مرة مرّ الجنرال لو سو بمدينة شونيانغ وأجرى الحديث مع لو منغ، واندهش بكفاءته وقدرته قائلاً إنك لم تعد لو منغ العديم المعرفة في السابق. وقال لو منغ بفخر إنه يجب تبني نظرة مختلفة لرؤية البطل كل بضعة أيام، يا أخي الكبير، يجب عليكم متابعتي عن كثب.

قدّر لو سو تقديراً عالياً لو منغ وأصبح صديقاً عزيزاً معه، ثم غادر.

هذه هي قصة تغيير المصير عن طريق القراءة للو منغ، وهو الذي أسقط قوان يو من الجنة إلى الجحيم. وفي الفصل السابق، عندما برزت سمعة قوان يو، أصبح تساو تساو قلقاً من قوان يو، وقرّر التخلي عن عاصمة شودو بشكل مؤقت. ولكن رأى مستشاره سيما يي عكس ذلك وقال إن العلاقات بين ليو بي وسون تشوان جيدة على السطح، لكنها في الحقيقة سيئة، وأقترح إرسال المبعوث لزيارة سون تشوان للتعهد بمنحه منطقة جيانغدونغ، ودعوته إلى مواجهة قوان يو معنا، ومن المؤكد أننا سنكسر حصار قوان يو لمدينة فانتشنغ.

كما توقع سيما يي بأن هناك خلافات كبيرة بالفعل بين سون تشوان وليو بي، وكانت العلاقات بين الطرفين جيدة نسبياً عندما كان لو سو على قيد الحياة. وبعد وفاة لو سو، تولى لو منغ منصبه، واختلف موقفه عن موقف لو سو كثيراً تجاه ليو بي، ورأى أن جنراله قوان يو طموح في الاستيلاء على منطقة النفوذ لسون تشوان، فاقترح على سون تشوان القضاء على قوان يو. وكان

الأخير مستاءً بالفعل من قوان يو، لأنه سبق له أن طرح عقد الزواج بين ابنه وابنة قوان يو، لكن قوان يو رفض ذلك. لذلك عزّز اقتراح لو منغ من عزيمة سون تشوان على القضاء على قوان يو.

وافق سون تشوان على مبعوث تساو تساو بلا تردد حول مهاجمة قوان يو.

علم قوان يو أن لو منغ رجل قوي جداً، لذا لم يخفّف من اليقظة تجاهه حتى للحظة واحدة، فتوصل لو منغ إلى خطة للتعامل مع قوان يو، حيث تظاهر بالمرض الشديد، وأصدر سون تشوان مرسوماً رسمياً سمح له بالتقاعد وإحلال الجنرال الشاب لو شون محل لو منغ.

لم يشك قوان يو في صحة الخبر لأنه عرف في السابق أن لو منغ ضعيف الجسم أصلاً، بل كان سعيداً سرًّا من تقاعده.

بعد بضعة أيام، أرسل لو شون مبعوثه لزيارة قوان يو وقدّم له هدايا ورسالة، وقدّر لو شون فيها شجاعة قوان يو في معركته ضد جيش تساو تساو وأمل منه الرعاية في المستقبل. وارتاح واطمأن قوان يو بعد قراءة هذه الرسالة، ثم قام بتحويل الجنود لمقاومة جيش سون تشوان إلى مدينة فانتشنغ، ولم يكن في الحسبان أن لو شون قد أبلغ سون تشوان ولو منغ بما فعله قوان يو.

كان جيش قوان يو يرابط في مكان بعيد عن القاعدة بمواجهة عشرات الآلاف من جنود الجنرال يو جين، فحصلت إشكالية الإمدادات الغذائية غير الكافية، لذا أمر قوان يو بالاستيلاء على مستودعات الحبوب في منطقة النفوذ لسون تشوان، مما قرّر سون تشوان شنّ هجمات من خلف جيش قوان يو.

جاء لو منغ إلى مدينة شونغيانغ التي هي الآن مدينة قوانغمي بمقاطعة هوبي، وقام بتحويل جميع البواخر الحربية إلى شكل البواخر التجارية، وتجنيد عدد من المدنيين لسياقة البواخر، وطلب من الضباط والجنود ارتداء الملابس البيضاء كالتجار، ثم أمر بإطلاق البواخر نحو الضفة الشمالية للنهر. ولم يهتم الحراس المدافعون لجيش قوان يو بهذه البواخر التجارية، لذا لم يكن لقوان يو أي علم بتحركات لو منغ.

نجح جيش لو منغ في الاستيلاء على الضفة الشمالية للنهر، ثم تقدم نحو مدينة قونغآن، واستسلم جيش شو إلى لو منغ. وهذا هو الحدث التاريخي المشهور «عبور النهار بارتداء الملابس

البيضاء».

بعد دخول مدينة قونغآن، تعامل لو منغ مع أفراد عائلات الضباط والجنود الأعداء وشدّد على الانضباط العسكري، حتى رأى سكان المدينة أن جيش الأعداء خير من الجيش أنفسهم. وفي الوقت نفسه وقع قوان يو في مأزق، حيث واجه تعزيزات جيش تساو تساو من جهة، ومن جهة أخرى جيش لو منغ. وفشل فشلاً كبيراً في المعركة مع جنرال الجيش تساو تساو، واضطر إلى الانسحاب من مدينة فانتشنغ، ثم استسلم المبعوث والجنود الذي بعثهم قوان يو لزيارة منطقة وو إلى سون تشوان.

في هذا الوقت، أدرك قوان يو أنه كان غير حذر من سون تشوان، ولكن قد فاته الأوان حيث لم يتمكن من الدفاع عن مقاطعة جينغتشو، فاضطر إلى الفرار إلى مدينة مايتشنغ التي هي الآن جنوب شرق محافظة دانيانغ بمقاطعة هوبي، وطارده جيش سون تشوان إلى مدينة مايتشنغ وألقى القبض عليه وقُتل على يد سون تشوان.

هذا هي هزيمة قوان يو في مدينة مايتشنغ.

شعر تساو تساو بارتياح ساحق بعد وفاة قوان يو، ورأى أن سون تشوان حقّق إنجازاً كبيراً وعيّنه أمير نانتشانغ. وبعد وفاة تساو تساو، تولى منصبه ابنه تساو بي، وعيّن سون تشوان حاكم وو.

# 85

# لو شون أحرق المعسكرات المتعاقبة لسون تشاوان

لدى شي شياوبو الذي يعرف باسم أحد «رموز شوشنغ الأربعة» في أوبرا بكين مسرحية كلاسيكية معروفة «مدينة بايدي».

جاء من هذه المسرحية: كم كان مكروهاً لو شون الذي استخدم الحيل لحرق المعسكرات المتعاقبة لليو بي التي تمتد لثلاثمائة وخمسين كيلومتراً، وقُتل في الحريق أكثر من 700 ألف جندي وخيل لجيش ليو بي.

تروي هذه المسرحية قصة حزينة ومأساوية في عهد الممالك الثلاث، وبالتحديد معركة شياوتينغ بين مملكة وو (سون تشوان) ومملكة شو (ليو بي)، حيث أحرق الجنرال المشهور لو شون لمملكة وو المعسكرات المتعاقبة لليو بي التي تمتد لثلاثمائة وخمسين كيلومتراً، مما أدى إلى وفاة ليو بي في مدينة بايدي من المرض والسخط.

يجب أن نبدأ الحديث من تساو بي (ابن تساو تساو)، والذي أجبر الإمبراطور شيان على تسليم العرش إليه في عام 220، وأعلن نفسه إمبراطوراً. واعتقد ليو بي أمير هانتشونغ أن الإمبراطور قد قُتل، فأقام جنازة كبيرة للإمبراطور. ولا يمكن تيسير الدولة دون الإمبراطور، فأعلن ليو بي كسلف عائلة ليو لأسرة هان نفسه إمبراطور تشاولي، ولأن المنطقة التي حكمها ليو بي تدعى شو، فتسمى منطقة نفوذه مملكة شو أو مملكة شوهان.

كان أول شيء فعله ليو بي بعد وصوله إلى سدّة الحكم هو مهاجمة مملكة وو (برئاسة سون تشوان).

كان ليو بي قلقاً وحزيناً من استيلاء مملكة وو على مقاطعة جينغتشو وقتل الجنرال قوان يو، فقرّر الانتقام منها رغم رفض المستشار تشوقه ليانغ والجنرال تشاو يون، حيث قاد 50 ألف جندي لمهاجمة مملكة وو. وفي الوقت نفسه، طلب من الجنرال تشانغ الانضمام إليه في بلدة جيانغتشو، ولم يظن أبداً أن تشانغ في قد قُتِلَ من قبل رجاله في منتصف الطريق.

ازداد الحقد والكراهية في قلب ليو بي بعد خسارة أخوين واحداً تلو الآخر، وعزم على القضاء على مملكة وو بغضّ النظر عن واقع تدهور قوته.

كان سون تشوان خائفاً من اقتحام ليو بي، وأدرك أن المعركة ستكون قاسية وأنه من الأفضل تجنبها. لذلك أرسل مبعوثيه لزيارة ليو بي عدة مرات سعياً وراء المصالحة معه، لكن ليو بي رفضه، فاضطر إلى الاستعداد للقتال.

نجح ليو بي في البداية واستولى على أراضي مملكة وو بمساحة حوالى ثلاثمائة كيلومتر مربع. وبعد استيلائه على منطقة زيقوي، حذّره الجنرال هوانغ تشوان قائلاً إن جنود مملكة وو أقوياء، والآن نتقدم بالبواخر من أعلى النهر إلى أسفله، فإن الأمر سهل التقدم وصعب الانسحاب، ويجب علينا تبنّي الصبر والتقدم ببطء.

ولكن في هذا الوقت، قد امتلأ قلب ليو بي بالكراهية، وهو لم يتمكن من التفكير بهدوء. ورفض اقتراح هوانغ تشوان وقاد بنفسه القوة الرئيسية للتقدم على طول لنهر اليانغتسي والوصول إلى بلدة شياوتينغ.

أمام تهديد جيش ليو بي الكبير، قرّر الجنرال لو شون لمملكة وو المرابطة في الضفة الشمالية للنهر وعدم التحرك، أما جيش ليو بي فرابط في الضفة الجنوبية وأقام أكثر من 40 معسكراً متعاقباً يمتد طوله لمئات الكيلومترات. وفي البداية، ظنّ ليو بي أن لو شون خاف من مواجهته، ولكن لم يفعل لو شون أي شيء في غضون نصف السنة، فأمر ليو بي الجنرال وو بان بقيادة آلاف الجنود لتحدي جيش وو.

لم يصبر جنود لو شون وطلبوا الهجوم. لكن لو شون ابتسم وقال إنه لا يمكننا أن ننخدع، وهم يتحدوننا فقط لجعلنا ندخل كمينهم.

لم يثق الجنود بكلام لو شون، حتى رأوا أن ليو بي استدعى ثمانية آلاف من جنوده من الوادي في الكمين بعد بضعة أيام.

بعد بضعة أيام أخرى، أعلن لو شون الحرب فجأة ضد جيش ليو بي.

تساءل الجنود حول سبب شنّ الحرب المفاجأة، وقال لو شون إن ليو بي شاطر جدًّا ويتقن فن الحرب، وفي البداية لم يكن لنا أي فرصة للمواجهة المباشرة معه، ولكن أعتقد أن جيشه الآن يعاني من الاستنفاد والاكتئاب وتراجع المعنويات. لذلك يمثل اليوم فرصة سانحة للقضاء عليهم.

ثم أرسل لو شون فريقاً من الجنود لمهاجمة معسكر ليو بي، وهزم جيشه بشكل كامل.

اشتكى الجنود ولكن قال لو شون إنه وجد طريقة للهجوم وهي استخدام النار، وأمر جنوده بالتقدم نحو معسكرات جيش ليو بي بالقش والمواد لإطلاق النار في منتصف الليل، وشنّ جنوده هجوماً في الليل وأحرقوا المعسكرات المتعاقبة لليو بي التي تمتد لثلاثمائة وخمسين كيلومتراً، وسرعان ما تحولت المعسكرات إلى بحر من النيران.

نجح لو شون في تدمير أكثر من 40 معسكراً لجيش ليو بي بالنار بسهولة، وهرب ليو بي في ضوء النار حتى مدينة بايدي، وقد سقط جنوده بأسرهم تقريباً في المعركة.

ندم ليو بي من شنّ الهجوم بعجالة وأصيب بالمرض الخطير، وكلّف المستشار تشوقه ليانغ بإدارة شؤون المملكة قبل وفاته. وكانت المعركة بينه وبين سون تشوان تسمى «معركة شياوتينغ» أو «معركة ليلينغ» في التاريخ الصيني، وهي مشهورة على غرار معركة قواندو ومعركة تشيبي، تُعرف بتغلّب القليل على الكثير في فترة الممالك الثلاث.

# 86

# تشوقه ليانغ مات في ووتشانغيوان

في أوائل ربيع عام 760، بنى الشاعر دو فو لأسرة تانغ كوخاً على ضفاف نهر شياوهوا في مدينة تشنغدو.

وهو كوخ دو فو المشهور.

كانت هناك شجرة خارج الكوخ مع أكثر من 200 سنة، ويمكنها منع أشعة الشمس والأمطار بفروعها وأوراقها الخضراء، وأمام الكوخ حديقة حيث أشجار الخوخ والخيزران وأشجار البانيان والزنابق الخضراء. وكانت حياة دو فو هادئة. ذات يوم، رسم دو فو لوحة الشطرنج على الورق، ولعب الشطرنج مع زوجته العجوز، وانشغل ابنه بجانبه بصنع الخطاف لصيد الأسماك. وفي خارج الكوخ مرّ بالقرية نهر صاف، وطارت عصافير في السماء وسبحت الطيور المائية على سطح المياه.

ها هو الهدوء النادر لدو فو الذي عانى من عدد لا يحصى من المصاعب والمتاعب. وما كان قلقه بهذا الهدوء؟ إنه قلق من مستقبل الدولة، خرج من الكوخ وتقدم نحو شمال غرب البلدة حيث المعبد.

هذا هو المعبد الذي كرّس حكم تشوقه ليانغ في فترة الممالك الثلاث.

كان المعبد في عمق الغابة، وانعكس العشب الأخضر في عتباتها الفارغة، واختبأت الطيور وراء أوراق الأشجار. وما كان العديد من الناس في المعبد، واستعرض فيه دو فو حياة تشوقه ليانغ وكتب قصيدة مشهورة «رئيس وزراء مملكة شو»، حيث ذكر أن تشوقه ليانغ قاد الجيش لمهاجمة

مملكة وي (بقيادة تساو تساو) عدة مرات، ومات قبل أن يحقق النجاح، مما أثار التقمص العاطفي من قبل عدد لا يحصى من الأبطال الذين تساقطت دموعهم عند ذكره.

دعونا الآن نحوّل أنظارنا إلى فترة الممالك الثلاث ونتحدث عن الحملة العسكرية الشمالية لتشوقه ليانغ وموته.

في عام 229، أعلن سون تشوان إمبراطوراً لمملكة وو رسمياً. وهناك العديد من وزراء مملكة شو دعوا تشوقه ليانغ إلى قطع العلاقات معها، لكن تشوقه ليانغ رفض ذلك، حيث رأى أن أهم عدو له هو مملكة وي الواقعة في الشمال، ويجب الاتحاد مع مملكة وو من أجل محاربتها.

أطلق تشوقه ليانغ خمس حملات عسكرية ضد مملكة وي طوال حياته. ووقعت الحملة الرابعة في عام 231، حيث هزم تشوقه ليانغ الجنرال سيما يي لمملكة وي، وقتل الجنرال تشانغ تاي، ولكن اضطر إلى الانسحاب بسبب عدم توفر الإمدادات الغذائية. وفي عام 234، اتحد تشوقه ليانغ الاستعداد التام مع مملكة وو وبعث بـ 100 ألف جندي لمحاربة مملكة وي للمرة الخامسة.

انطلق تشوقه ليانغ بقواته من بلدة شيقو ووصل إلى محافظة مي ورابط في الضفة الجنوبية لنهر ويشوي. أرسل الإمبراطور مينغ لمملكة وي الجنرال سيما يي للمحاربة، وقاد الأخير القوات لعبور نهر ويشوي، حيث بنى معسكراً وقال للجنود: إذا تحرك تشوقه ليانغ نحو بلدة ووقونغ شرقاً، سوف يكون الأمر مقلقاً، وإذا تحرك نحو بلدة ووتشانغيوان غرباً، فيمكننا التمتع بالارتياح والاسترخاء.

تحرك تشوقه ليانغ نحو بلدة ووتشانغيوان حقاً بسبب الدروس المستفادة من نقص الإمدادات في المرة السابقة، وأمر بعض الجنود بالمرابطة في المكان نفسه لاستصلاح الأراضي من أجل توفير الإمدادات الغذائية للقوات.

عندما قام تشوقه ليانغ بالتحضير للمعركة، جاءه نبأ مخيب للآمال وهو هزيمة مملكة وو أمام مملكة وي برئاسة الإمبراطور مينغ، فاضطر تشوقه ليانغ إلى الحسم مع جيش وي بوحدة جيشه. استفاد الجنرال سيما يي من الدرس الفاشل السابق، ورابط في معسكره ولم يتحرك بشكل عشوائي مهما كانت استفزازات تشوقه ليانغ.

استمرت هذه الحالة من المواجهة أكثر من مائة يوم، حتى لم يستطع تشوقه ليانغ الذي جاء من بعيد الانتظار.

لذا توصل إلى خطة وبعث لسيما يي صندوقاً خشبياً يحتوي على غطاء رأس المرأة وملابسها إلى جانب رسالة. كانت نيّة تشوقه ليانغ واضحة جدًّا: لم يجرؤ سيما يي كجنرال بارز لمملكة وي على المواجهة المباشرة معي، ولم أرَ أي فرق بينه وبين امرأة.

أصبح سيما يي غاضباً بعد قراءة الرسالة، ولكن سرعان ما ضبط غضبه لأنه كان يعلم أن ذلك خطة تشوقه ليانغ لإثارة غضبه ويجب عليه ألاّ ينخدع. ومع ذلك، كان الضباط والجنود غاضبين جدًّا وطالبوا بالقتال، واضطر سيما يي إلى التظاهر وطرح ضرورة أخذ إذن الإمبراطور مينغ من أجل القتال. بعد ذلك بوقت قصير، صدر أمر الإمبراطور بعدم السماح له بالقتال. كان تشوقه ليانغ يعلم بوضوح أن سيما يي أخذ إذن الإمبراطور رغم بُعد المسافة، وهو لم يرغب في القتال أصلاً.

ذات يوم، أرسل تشوقه ليانغ مبعوثه إلى سيما يي برسالة حربية أخرى. استقبل سيما يي بأدب المبعوث وتجاذب أطراف الحديث معه وسأله «كيف حال رئيس وزرائكم؟ وكيف شهيته؟».

لم يتخذ المبعوث الاحتياطات وأجاب بصدق: يكرس رئيس الوزراء العديد من الأمور الملموسة وشهيته ضعيفة ولا يأكل الكثير.

كان سيما يي سعيداً سرًّا، وأدرك أن تشوقه ليانغ يبذل قصارى جهده وسوف يمرض قريباً.

كما توقع سيما يي أن تشوقه ليانغ أصبح مريضاً بسبب العمل الزائد. كان تشوقه ليانغ يعلم أنه لم يبق وقت طويل له بسبب المرض الخطير، فاستدعى الجنرال جيانغ وي وقدّم له كتاباً لكل ما تعلمه في حياته. في الوقت نفسه، رفع تقرير إلى الإمبراطور ليو تشان لمملكة شو لإبلاغه عن حالته الصحية، وأرسل ليو تشان على الفور الوزير لي فو لزيارة تشوقه ليانغ في بلدة وو تشانغيوان. أخبره تشوقه ليانغ أنه يمكن تسليم منصب رئيس الوزراء إلى في وي.

قال تشوقه ليانغ للضباط والجنود: لا تقيموا أي جنازة لي بعد وفاتي، من أجل تجنب سيما يي من استغلال الفرصة لشنّ الهجوم. عليكم الانسحاب ببطء، وإذا طاردكم سيما يي، فتضعون تمثالي

الخشبي أمامكم وكونوا مستعدين للقتال، حيث سينسحب سيما يي خوفاً.

بعد ترتيب كل الأشياء بشكل سليم، فارق تشوقه ليانغ الحياة عن عمر يناهز 54 عاماً في بلدة وو تشانغيوان.

وفقاً لتعليمات تشوقه ليانغ، قام جيش شو بوضع جثته في العربة مع الانسحاب السرّي لكافة الجنود والخيول بطريقة منظمة. كشف جيش وي عن وفاة تشوقه ليانغ وقام على الفور بإعلام سيما يي، من شأنه قاد الجيش لمطاردة جيش شو. وبعد عبور بلدة وو تشانغيوان، لم يكن في حسبان سيما يي أن جيش شو تقدم فجأة مع صوت الطبول الصاخبة، وجلس أمام الجيش تشوقه ليانغ بوضوح، مما أصبح سيما يي مستغرباً واستعجل في الانسحاب على الفور.

عندما ابتعد جيش وي، قام جنرالات جيش شو بسحب جميع القوات إلى بلدة وو تشانغيوان بأمان. بعد أن علم الناس بالأمر، قاموا بأداء أغنية وسخروا من سيما يي: تشوقه ليانغ المتوفي أخاف وأبعد سيما يي الحي.

لم يكن سيما يي غاضباً من تلك الأغنية، فقال ببلاغة إنه كيف يمكنني توقع وفاة تشوقه ليانغ؟ وفي وقت لاحق، ذهب سيما يي إلى مكان المرابطة لجيش شو، وراقب بعناية الترتيبات العسكرية التي وضعها تشوقه ليانغ في السابق، ولم يكن بوسعه إلا أن يعجب بأنه عبقري في هذا العالم.

فشل تشوقه ليانغ في رحلته الحربية الشمالية الخامسة. على الرغم من فشله في تحقيق أمنية توحيد السهول الوسطى، وقد تمّ تدوين روحه المتمثلة في بذل قصارى الجهد بغضّ النظر عن الموت في سجلات التاريخ والتي يذكرها الناس دائماً.

# 87
# سيما يي تظاهر بالمرض

بعد انتهاء القصة عن تشوقه ليانغ، دعونا نواصل الحديث عن سيما يي.

بعد وفاة تشوقه ليانغ، لم تكن مملكة شو قادرة على التنافس مع مملكة وي وهي بدأت في التراجع. أما مملكة وي فهي بدأت تتصاعد تدريجياً، في حين يتشكل فيها تغيير هائل كان يتعلق بسيما يي، كمنافس لتشوقه ليانغ طوال الحياة. كان سيما يي رائعاً في التخطيط واتخاذ القرار وقيادة الجيش. لكنه غالباً ما تمّ التجاهل لأن «حكمة» تشوقه ليانغ كانت ساطعة جدًّا في المجتمع المدني. ومع ذلك، مقارنة مع الحكمة، كانت الميزة الأكثر جدارة بالثناء لسيما يي هي في الواقع صبره.

ما هو الصبر؟

يعتبر كثيراً من الناس أن الصبر نوع من الضعف والعجز. بالإشارة إلى القصص التاريخية التي ذكرناها من قبل، هل يمكننا أن نقول إن صبر رئيس الوزراء لينغ شيانغرو مع ليان بو هو الضعف والعجز؟ هل كان صبر هان شين بإذلال الزحف من أسفل الآخرين عبارة عن الضعف والعجز؟ في الواقع، إن الصبر نوع من المعرفة والحيلة في كثير من الأحيان. يعرف الصابر أنه لن يخفّف من حدّة الأمور أو لن يفسح المجال لنموه إلا عبر النمو، كما هو الحال مع سيما يي الذي صبر من أجل ضبط النفس والإمساك الدقيق للفرص.

اختار سيما يي الصبر عندما أرسل تشوقه ليانغ ملابس المرأة إلى معسكره، لأنه على علم أن تشوقه ليانغ حاول إجباره على شنّ الهجوم المضاد. لكنه أدرك أيضاً أن تشوقه ليانغ لن يصمد لمدة طويلة في معركة الاستنزاف، فاختار تبنّي الصبر حتى نيل النصر بعد ذلك.

هذه هي طريقة الصبر لسيما يي. يمكننا فهم ذلك بشكل أعمق عبر تظاهر سيما يي مريضاً مرتين؟

دعا تساو تساو ذات مرة سيما يي ليكون مسؤولاً، لكن الأخير رفضه بلباقة، لأنه رأى أن التوقيت غير مناسب، حيث تنافس أمراء الحرب في السهول الوسطى، وهو بحاجة إلى الانتظار والترقب لبعض الوقت من أجل صنع القرار. ولكن كان من الضروري أن يكون لديه سبب مقبول لعدم قبول الدعوة، لذا اختار سيما يي التظاهر بأنه أُصيب بالشلل الجسدي.

يقال إن شيئاً ما حدث خلال هذه الفترة جعل الناس معجبون بهدوء سيما يي. من أجل التدقيق من الوضع الفعلي لمرض سيما يي، أرسل تساو تساو قاتلاً للتسلل في غرفة سيما يي ذات ليلة. جاء القاتل إلى غرفته ورآه مستلقياً على السرير دون أي حراك، ثم أخرج السيف وعلّقه فوق جسد سيما يي. لكن سيما يي أبقى عينيه مفتوحتين وظلّ جسده بلا حراك.

رأى القاتل أن سيما يي لم يتحرك أثناء اغتياله، وتأكد من مرضه ثم غادر.

كان سيما يي يعتقد أنه من الصعب على تساو تساو التصاعد، ولكن لم يكن في حسبانه أن قوة تساو تساو تتنامى باستمرار. في وقت لاحق، دعا تساو تساو سيما يي ليكون مسؤولاً مرة أخرى، تظاهر سيما يي بأنه قد تحسّن من المرض فقبل الدعوة. بعد ذلك، ظلّ سيما يي يشغل منصباً رسمياً هاماً في البلاط الإمبراطوري لمملكة وي، وأصبح مسؤولاً كبيراً مخضرماً في عهد حكم الإمبراطور مينغ، حتى لم يجرؤ أحد في القصر قيادة وقاعدة على التنافس معه. عندما تفاقم مرض الإمبراطور مينغ، دعا سيما يي وتساو شوانغ إلى التشارك في مساعدة الأمير تساو فانغ على الحكم.

بعد وفاة الإمبراطور مينغ، صعد الأمير تساو فانغ إلى العرش كالإمبراطور شاو، وتولى سيما يي منصب الوزير الأول، وتولى تساو شوانغ منصب الجنرال العام. في البداية، كان تساو شوانغ محترِماً جدًّا لسيما يي، لكن المقربين منه حذروه مراراً وتكراراً من تبني اليقظة أمام سيما يي وضرورة الإمساك بسلطته. ثم استغل تساو شوانغ لترقية منصب سيما يي كرئيس للوزراء، وفي الحقيقة استعمل سياسة التقوية العلنية والإضعاف السرّي، ونجح في إقصاء سيما يي من دائرة القرار للقصر الإمبراطوري تدريجياً.

بدا أن سيما يي لم يمانع من محاولة تساو شوانغ في إقصائه. في وقت لاحق، منح تساو شوانغ لأشقائه والمقربين منه مناصب هامة. اختار سيما يي تبنّي الصبر، حيث بدا أنه لا يهتم ولا يمانع دائماً.

بدأ تساو شوانغ التمتع بسلطته، ولم يكن هناك أي شيء أمام ما يدعو للقلق، وازدادت غطرسته باستمرار، وانغمس في المتعة بقدر الإمكان. وما زال سيما يي يحافظ على صمته أمام هذه الحالة الفوضوية، وتظاهر بأنه مريض بعد ذلك واعتذر عن حضور الاجتماع اليومي في القصر الإمبراطوري. على الرغم من أن تساو شوانغ سعيد من ذلك، لم يطمئن في قبله. في يوم من الأيام الشتوية، بعث تساو شوانغ لي شنغ محافظ مقاطعة جينغتشو لزيارة سيما يي للوقوف على حالته الصحية.

كان سيما يي يتناقش مع ابنه حول سُبل استعادة السلطة في المنزل عندما جاءه لي شنغ فجأة، فاستعجل سيما يي في الرقد على سريره. جاء لي شنغ إلى غرفة نوم سيما يي، وكافح الأخير من أجل الوقوف وطلب من الخادمتين تقديم الملابس له، لكنه لم يمسك بها وسقطت الملابس على الأرض. وأشار سيما يي إلى فمه وقال إنه عطشان، فبدأت الخادمتان إطعامه بالعصيدة، لكن سيما يي لم يقبل الوعاء بل اقترب من الوعاء، وما إن بدأ بالأكل حتى تساقطت العصيدة من فمه على ملابسه.

أصبح لي شنغ حزيناً بعد رؤية ذلك.

قال لي شنغ لسيما يي: كلّفني جلالة الإمبراطور بتولي منصب محافظ مقاطعة جينغتشو، أنا أزوركم من أجل توديعكم.

قال سيما يي بشكل متقطع: نعم وستكون المهمة شاقة، حيث إن مقاطعة بينغتشو تقع في الشمال وهي قريبة من قبائل هورين، فيجب عليك تبنّي اليقظة الإضافية. أنا مريض جدًّا، أخشى أنه من الصعب أن أراك في المستقبل، من فضلك آمل منك الاعتناء بأشقائي سيما شي وسيما جاو.

أخبره لي شنغ أنه سوف يذهب إلى جينغتشو وليس بينغتشو.

لم يسمع سيما يي ذلك بوضوح من جديد، وأعاد لي شنغ كلامه عدة مرات حتى فهم سيما يي وقال له: أنا كبير جدًّا في العمر ولم أتمكن من السماع بوضوح، ستعمل في مقاطعة جينغتشو، وسوف تحقق إنجازات كبيرة.

غادر لي شنغ وأخبر تساو شوانغ عما جرى بينه وبين سيما يي، وقال للأسف إن سيما يي على حافة الموت، وقد انفصلت روحه عن جسده، وهو لم يكن يدعو للقلق، وهذا أمر محزن حقاً.

حان وقت عبادة الأسلاف من جديد في ربيع عام 249.

جاء الإمبراطور شاو إلى الضريح الإمبراطوري خارج العاصمة برفقة تساو شوانغ وإخوانه وأقاربه، ولم يحضر سيما يي هذا النشاط بسبب حالته الصحية المتفاقمة. لم يكن في حسبان تساو شوانغ أن سيما يي شفي من مرضه تماماً فور مغادرته العاصمة، وقاد جيشاً كبيراً مع سيما شي وسيما جاو لاختراق بوابة العاصمة، ثم أصدر مرسوماً زائفاً باسم والدة الإمبراطور لإلغاء منصب تساو شوانغ كجنرال عام للجيش.

عندما سمع تساو شوانغ الأخبار خارج المدينة، قد أصبح كل شيء متأخراً. اقترح بعض المقربين منه أن عليه الانسحاب إلى مدينة شودو مع الإمبراطور شاو، من شأنه تجنيد الجنود للمواجهة مع سيما يي. لكن تساو شوانغ ضعيف التخطيط والحكمة، ورأى أن سيما يي لن يقتله. فرمى سيفه على الأرض، قائلاً إن أسوأ الأحوال هو أن أكون رجلاً غنياً.

سلّم تساو شوانغ السلطة العسكرية إلى سيما يي واستسلم إليه. لكن سيما يي كان أكثر قسوة مما توقع تساو شوانغ، حيث لم يعفه بسبب استسلامه، بل قتل جميع أفراد عائلته. منذ ذلك الحين، سقطت كل السلطة لمملكة وي بين يدي سيما يي، مما يفتح تغييرات جديدة في المملكة.

# 88

# طموح سيما تشاو معروف لدى كل الشوارع

كلنا نعرف المثل الصيني: إن طموح سيما تشاو معروف لدى جميع الشوارع. إذن من قال ذلك؟ وما كان طموح سيما تشاو، حتى يعرفه كل الشوارع؟

تحدثنا في الفصل السابق عن استيلاء سيما يي على سلطة مملكة وي مرة أخرى. بعد وفاته، سقطت السلطة بين أيدي ابنيه سيما شي وسيما تشاو، وهما أكثر تخطيطاً وطموحاً من سيما يي، ولم يجرؤ أي من الوزراء على معارضتهما. اقترح بعضهم على الإمبراطور شاو نزع سلطتهما العسكرية. لكن سيما شي اتخذ خطوة استباقية قبل الإمبراطور، حيث أجبر والدة الإمبراطور على الإطاحة به وتسليم العرش إلى تساو ماو حفيد تساو بي. أثار سيما شي استياء وسخط بعض الوزراء، حيث اتخذ وين تشين محافظ مقاطعة يانغتشو ووو تشيوجيان القائد العسكري بمقاطعة تشندونغ الفرصة لشن الهجوم على سيما شي، لكنهم فشلا أمام الهجوم المضاد له. أما سيما شي فهو توفي مريضاً بعد فترة وجيزة من قمع وين تشين ووو تشيوجيان.

لذلك عيّن سيما تشاو جنرالاً عاماً للجيش.

تمسك سيما تشاو بسلطته بشدة، حيث أصبح الإمبراطور تساو ماو غاضباً ومستاءً من السلطة المتدهورة في يده ولم يعد بإمكانه تحمل ذلك. لذا استدعى الوزراء وانغ شن ووانغ جينغ ووانغ يه إلى القصر الإمبراطوري بشكل سرّي يوم 7 مايو، وقال لهم غاضباً: قد أصبح طموح سيما تشاو معروفاً حتى لدى الشوارع. لا أستطيع الانتظار حتى يتم الإطاحة بي. سوف أقاتله معكم الآن.

كان الوزراء الثلاثة يعلمون أن المواجهة بينهما مثل المواجهة بين البيض والحجر.

قال وانغ جين: في العصور القديمة، لم يستطع الأمير جاو لدويلة لو تحمل سقوط السلطة في يد الوزير جي، فحاربه وفشل، وفقد سلطته بشكل نهائي. والآن، وقد تمّ السيطرة على السلطة من قبل سيما تشاو لفترة طويلة، وهناك الكثير من المقربين منه في القصر الإمبراطوري، فضلاً عن قلّة الحراس وضعف القوات لنا، فمن الذي يمكننا الاعتماد عليه للقتال؟ يجب أن نفكر في ذلك بدقة وعناية.

ولكن لم يقتنع تساو ماو بهذه النصيحة، وأخرج من جيبه المرسوم الإمبراطوري المكتوب على قطعة من الحرير الأصفر وألقاه على الأرض قائلاً بحزم: أنا عازم على القتال معه بغضّ النظر عن الموت.

لسوء الحظ، لم يفهم تساو ماو البالغ من العمر 20 عاماً استراتيجية الصراع، ناهيك عن الصراع مع سيما تشاو. ما إن انتهى الاجتماع السرّي مع الوزراء الثلاثة حتى استعجل وانغ شن ووانغ يه إلى إبلاغ سيما تشاو. لذلك عندما تدفق الإمبراطور تساو ماو وحراسه وأتباعه من القصر للقتال مع سيما تساو، تعرّض لاعتراض جيا تشونغ المقرّب من سيما تشاو الذي قاد فريقاً من الجنود ووصل إلى بوابة القصر في وقت مبكر.

وقف تساو ماو على العربة العسكرية وأمسك بسيف طويل لتوجيه التعليمات.

أصبح جنود جيا تشونغ خائفين بعد رؤية الإمبراطور، حتى حاول البعض الهروب، حيث سأل العقيد تشنغ جي جيا تشونغ: إن الأمر عاجل جدًّا، فما العمل؟ انتقدهم جيا تشونغ قائلاً بصوت عالٍ: يعتني الشيخ سيما تشاو بكم من أجل اليوم بالضبط، ولماذا كل هذه التساؤلات؟ لذلك، أخرج تشنغ جي سيفه على الفور وطعن به الإمبراطور تساو ماو، ولم يكن الأخير قادراً على المراوغة، وسقط من على العربة حتى الموت.

انتهت مقاومة تساو ماو بهذه الطريقة.

هرب سيما تشاو إلى القصر واستدعى الوزراء لمناقشة كيفية التعامل مع الحدث. وقال الوزير تشن تاي غاضباً: إن الطريقة الوحيدة هي قتل جيا تشونغ. تظاهر سيما تشاو بأنه حزين وقال بحرج: قد عاد الإمبراطور بالفعل إلى السماء، أليس هناك حلّ آخر؟

قال تشن تاي بلهجة قوية: نعم هناك حلّ أثقل فقط ولن يكون أخف.

لاحظ سيا تشاو الاستياء والسخط في خطاب تشن تاي وتوقف عن الحديث. وفي وقت لاحق ومن أجل التستر على حقيقة مقتل الإمبراطور تساو ماو، أصدر سيما تشاو مرسوماً باسم والدة الإمبراطور حيث كشف عن كل الجرائم التي ارتكبها تساو ماو وحول صفته من إمبراطور إلى رجل مدني. ولم يكن هذا بالطبع كافياً لإخماد الغضب الشعبي، فعزا سيما تشاو مسؤولية مقتل الإمبراطور إلى العقيد تشنغ جي، وأمر بإعدام جميع أفراد عائلته.

في ذلك الوقت، صعد تشنغ جي إلى السقف واشتكى من الظلم، ولكن لم يتابعه أحد.

بعد الإطاحة بتساو ماو، اختار سيما تشاو تساو هوان البالغ 15 عاماً من العمر من صفوف أخلاف تساو تساو لخلافة العرش وهو الإمبراطور يوان. في هذا الوقت، اعتقد سيما تشاو أن الوضع الداخلي في مملكة وي مستقر، وقد حان الوقت لشنّ هجوم عنيف ضد مملكة شو. هل هو نجح في ذلك؟

# 89
# دنغ آي احتل مدينة تشنغدو

في عام 263، كان هناك فريق من جيش مملكة وي سار بين الجبال الشامخة.

مُني هذا الفريق بالكثير من الصعوبات على طول الطريق.

كان الطريق الجبلي ضيقاً جدًّا، وقام الفريق بالتسلق والتقدم بين الهبوط والصعود، وكان بجانبه وديان عميقة وخطيرة. في بعض الأحيان انقطع الطريق بسبب الصخور الضخمة، فاضطر الفريق إلى كسر الصخور قطعةً تلو الأخرى. وفي بعض الأحيان انقطع الطريق بسبب الأنهار، فاضطر الفريق إلى قطع الأشجار لبناء الجسور. ولكن كان أصعب شيء هو أن هذا الطريق مسدود في النهاية، وأنه أدى إلى جرف عميق جدًّا، فما هو العمل؟

هل يجب مواصلة التقدم أم التراجع واكتشاف طريق جديد؟ فكّر جنرال هذا الفريق بعمق وهدوء على حافة الجرف، وظهر في عينيه نوع من الحزم، حيث أمر الجنود بأخذ سجاجيد سميكة. ماذا أراد أن يفعل؟ لماذا سار على هذا الطريق الجبلي الخطير؟ إلى أين هم ذاهبون؟

كان هذا الجنرال هو دنغ آي من مملكة وي، حيث أراد الذهاب إلى مدينة تشنغدو عاصمة مملكة شو. دعونا نتحدث ببطء عن سبب ذلك. في عام 263، أرسل سيما تشاو الجنرال دنغ آي والجنرال تشوقه شو على رأس 30 ألف جندي كلاً على حدة، والجنرال تشونغ هوي على رأس أكثر من 100 ألف جندي لمهاجمة مملكة شو. وكان الجنرال العام لمملكة شو هو جيانغ وي. على الرغم من أنه أراد مواصلة القضية غير المنتهية لتشوقه ليانغ لإسقاط مملكة وي، فشل في حملاته العسكرية المتكررة، مما أضعف قوة مملكة شو.

كان جيش وي قوياً وضخماً، وأدرك الجنرال جيانغ وي صعوبة التصدي، فقرّر المقاومة استفادةً من التضاريس الخطيرة، مما منع جيش وي من المضي قدماً.

رابط الجنرال جيانغ وي في بلدة جيانقه وبسط جنوده بكثافة في الممر الحتمي لجيش وي. عندما جاء الجنرال تشونغ هوي، لم يتمكن من التقدم، فوقع الطرفان في حالة من الاستنزاف. ثم جاء الجنرال دنغ آي مع قواته ورأى أن الهجوم المباشر لن ينجح، فقرّر اختيار طريق آخر لتجاوز بلدة جيانقه، ثم تقدم من درب ينبنغ من أجل التسلل إلى مدينة تشنغدو. لذلك تقدّم بقيادة فريق من نخبة الجنود نحو الغرب، وفتح الطرق ومدّ الجسور وبناء المدرجات، وقطع مسافة مقدار مئات الكيلومترات، ولم يكن لدى جيش شو أي علم بذلك.

كما ذكر أعلاه، تقدم الجنرال دنغ آي مع قواته في الجبال حتى جاء إلى الطريق المسدود، فما كان العمل؟

علاوة على ذلك، كان الطعام الجاف لهم على وشك الاستنفاد. راقب دنغ آي التضاريس بعناية وقرّر مواصلة التقدم بغضّ النظر عن المخاطر، حيث أمر الجنود بإحضار سجادة سميكة، ولفّ نفسه بها وتدحرج نحو الهاوية. بعد رؤية هذه الجرأة الكبيرة، تبعه الجنود ووصلوا أخيراً إلى نهاية الهاوية، مما خرجوا من الطريق المسدود.

قاد دينغ آي جنود النخبة واندفع نحو محافظة جيانغيو على طول الطريق، وتفاجأ جيش شو في المحافظة بظهور جيش وي الذي بدا أنه جاء فوق السماء، ولم يكن مستعداً للمقاومة، واضطر إلى الاستسلام.

بعد الاستيلاء على محافظة جيانغيو، كان أمام الجنرال دنغ آي محافظة ميان تشو الذي دافع عنها تشوقه جان ابن تشوقه ليانغ. أرسل دنغ آي رسالة إلى تشوقه جان لإقناعه بالاستسلام. كان الأخير غاضباً للغاية وقتل مبعوث دنغ آي، وبسط جنوده مستعداً للحسم مع دنغ آي. ولكن بسبب قلة الجنود، قُتل تشوقه جان وابنه تشوقه شانغ في المعركة بمجد.

ثم توجه دنغ آي مباشرة إلى مدينة تشنغدو عاصمة مملكة شو. إذا سقطت مدينة تشنغدو، فهذا يعني سقوط مملكة شو.

كان دنغ آي رأى أنه سيتلقى المقاومة من قبل مدينة تشنغدو، ولكن قد فرّ سكان المدينة إلى الجبال المحيطة قبل وصوله إلى المدينة، حتى استسلم إليه الإمبراطور ليو تشان مقيّد اليدين أمام بوابة المدينة. ثم دخل دنغ آي إلى المدينة شامخاً، ولم يأخذ أحداً في عين الاعتبار. رأى أنه حقّق إنجازات كبيرة، فرفع تقريراً إلى سيما تشاو بدون موافقة الجنرال تشونغ هوي في محاولة للحصول على سماح سيما يي له بقيادة الجيش لمواصلة القضاء على مملكة وو في الشرق، لكن سيما يي رفض ذلك وطلب منه عدم اتخاذ القرار بمفرده.

أصبح دنغ آي غاضباً بعض الشيء.

عرف الجنرال جيانغ وي الذي كان قد انخرط في المعركة مع الجنرال تشونغ هوي خبر سقوط مدينة تشنغدو، فقرّر الانسحاب من المعركة من أجل الدفاع عنها، حينما وصله مرسوم الإمبراطور ليو تشان يطلب منه الاستسلام. خطر في باله تكتيك فاستسلم إلى الجنرال تشونغ هوي في سبيل اكتساب ثقته، واستعمل الخلاف بين تشونغ هوي ودنغ آي لإقناع الأول ببسط إشاعات محاولة من دنغ آي في الانقلاب، من أجل القضاء عليه. شعر جيانغ وي بأن الفرصة ستأتيه، فأرسل رسالة إلى الإمبراطور ليو تشان سرًّا واقترح عليه تبنّي الصبر لبضعة أيام.

ثم واصل جيانغ وي تحريض تشونغ هوي للتمرد ضد سيما تشاو.

اتفق تشونغ هوي معه وأصدر مرسوماً باسم والدة الإمبراطور، حيث قال إن سيما تشاو قتل الإمبراطور يوان، وأمرت والدة الإمبراطور بقتل سيما تشاو، ولكن لم يقتنع الجنود بهذا المرسوم. وفي وقت لاحق، صدرت شائعات قالت إن تشونغ هوي وجيانغ وي يريدان قتل جميع جنود جيش وي، مما أثار انقلاباً عسكرياً داخل الجيش، وأصبح الوضع خارج سيطرة تشونغ هوي وجيانغ وي، حيث قُتلا من قبل الجنود المتمردين.

بعد سقوط مملكة شو، جاء دور مملكة وو.

# 90
# وانغ جون هاجم مملكة وو ببواخر البرج

ذات يوم، وقف وو يان محافظ مقاطعة جيانبينغ على ضفاف نهر اليانغتسي ووجد شيئاً غريباً.

عامت قطع خشبية عديدة على سطح نهر اليانغتسي العريض، وطلب وو يان من الناس إخراج بيضها وأمسك بها في اليد، وبدا هناك أن لها رائحة جميلة للأشجار. لماذا هناك الكثير من رقائق الخشب العائمة على النهر؟ وجّه وو يان نظرته نحو المجرى الأعلى للنهر، حيث مملكة شو القديمة، والآن تتمركز هناك أسرة جين.

أصبحت نظرته مضيئة فجأة، لأنه أدرك أن هناك أناس يبنون بواخر في المجرى الأعلى، وعددها من المؤكد أن يكون كثيراً لأن القطع الخشبية قد غطت كل سطح نهر اليانغتسي؟ وذلك يعني أن أسرة جين قد بدأت بالفعل في التحضير لغزو مملكة وو، وإن الحرب على وشك أن تبدأ.

هرع وو يان لإبلاغ الإمبراطور سون هاو لمملكة وو عن هذا الأمر، وطرح ضرورة بسط التعزيزات في مقاطعة جيانبينغ لمنع مرور بواخر أسرة جين. ولكن لم يأخذ الإمبراطور قول وو يان في عين الاعتبار.

في ذلك الوقت كانت مملكة وو أضعف عما كانت عليه في الماضي، ولم يفكر الإمبراطور سون هاو في كيفية استعادة مجد الأيام القديمة للمملكة، ولكن انغمس في المتعة ليلاً ونهاراً. وهو رجل شديد القسوة واستعمل التعذيب اللاإنساني بشكل عشوائي. ورأى أن جيش أسرة جين لن تتمكن من عبور نهر اليانغتسي بصفته حاجزاً طبيعياً بين الطرفين.

لذلك ما كان العمل بالنسبة إلى وو يان؟

هل ستسقط المملكة بهذه الطريقة؟ كان وو يان مصمماً على بذل قصارى جهده لإنقاذها، حيث أمر الناس بنزع العديد من الأعمدة الخشبية والسلاسل الحديدية في النهر، فضلاً عن وضع مخروطات حديدية عديدة تحت سطح الماء. إذن، هل كانت هذه التدابير فعالة لاعتراض بواخر أسرة جين؟

دعونا نواصل الحديث.

فتح التاريخ صفحة جديدة في عام 265 حيث دخل أسرة جين الغربية. بعد وفاة سيما تشاو بالمرض في هذا العام، قام ابنه سيما يان بالإطاحة بتساو هوان الإمبراطور يوان لمملكة وي، وأعلن نفسه إمبراطور وو لأسرة جين. بعد استقرار الوضع السياسي بقليل، حوّل سيما يان نظرته إلى مملكة وو، حيث أمر الجنرال وانغ جون ببناء البواخر الحربية، على أن يكون طول كل باخرة 60 متراً للاتساع لألفي جندي حتى يمكن ركوب الخيل عليها. تسمى هذه البواخر «بواخر البرج»، لأن هناك برج على كل باخرة، حيث يمكن للجنود الوقوف على قمته والمراقبة من فوقه.

كانت القطع الخشبية العائمة التي اكتشفها وو يان جاءت من تلك البواخر بالضبط.

بعد أكثر من عشر سنوات من التعافي، اعتقد بعض وزراء أسرة جين في عام 279 أنه حان الوقت بالفعل للقضاء على مملكة وو، واقترحوا على الإمبراطور وو شنّ الهجوم ضد مملكة وو، حيث قرّر الإمبراطور إرسال 200 ألف جندي ضمن ثلاث قوات لشنّ الهجوم ضد مدينة جيانيه عاصمة مملكة وو.

تقدمت القوات الوسطية بقيادة الجنرال دو يو والقوات اليسارية بقيادة الجنرال وانغ هون على ما يرام، لكن القوات المائية بقيادة الجنرال وانغ جون تعرضت للعراقيل، حيث تمّ اعتراض «بواخر البرج» من قبل السلاسل والمخروطات الحديدية التي وضعها وو يان.

ما الذي يجب على وانغ جون فعله من أجل التخلص من السلاسل والمخروطات الحديدية؟

لم يكن الأمر صعباً بالنسبة إلى وانغ جون، حيث أمر الجنود ببناء عشرات الطوافات الخشبية، ثم انجرفت مع الماء بقيادة الجنود الذين يجيدون السباحة، عندما مرت الطوافات الخشبية بالمخروطات الحديدية، طعنت قمم المخروطات في الطوافات حيث تمّ اجتثاثها من قاع النهر. ثم

أمر وانغ جون بنصب شعلة ضخمة على كل طوافة لإشعال السلاسل الحديدية، وانقطعت السلاسل في الألهاب النارية الكبيرة.

بهذه الطريقة، تمّ كسر التصميم الدقيق لوو يان بسهولة.

استمرت القوات المائية لوانغ جون في التقدم وسرعان ما دخلت حدود مملكة وو واجتمعت مع قوات الجنرال دو يو التي قد احتلت منطقة جيانغلينغ لمملكة وو، حيث اقترح بعض الضباط على دو يو الاستراحة قليلاً للجنود والخيول، ولكن رفض دو يو قائلاً: إن معنويات الجيش عالية جدًّا، كأننا قد قطعنا الأجزاء العلوية للخيزران، ومن السهل جدًّا لنا قطع الجزء الأسفل. يجب على الجميع بذل جهود دؤوبة الآن، ويمكن الاستراحة بعد تحقيق الانتصار. عزّز كلام الجنرال دو يو هذا من معنويات الجنود بشكل كبير.

ورد من هذا الكلام المثل الصيني المشهور «شي رو بو تشو» (بمعنى التقدم وتحقيق الانتصار مثل قطع الخيزران).

إن استعارة دو يو عن البامبو هي أصل المصطلح «كأنه نمر».

في هذا الوقت، اقتربت القوات الشرقية بقيادة الجنرال وانغ هون من عاصمة جيانيه، وأرسل الإمبراطور سون هاو رئيس وزرائه تشانغ دي للمقاومة، لكن الأخير بات بالفشل التام، حينما اقتربت بواخر البرج للجنرال وانغ جون من العاصمة، حيث أرسل الإمبراطور سون هاو الجنرال تشانغ شيانغ للمقاومة، وكان الأخير وجنوده لم يجرؤوا على القتال أبداً أمام البواخر الحربية للأعداء، فاستسلموا دون أي مقاومة. عندما أصبح الإمبراطور سون هاو عاجزاً أمام الاعتداء، تقدم إلى الأمام جنرال غبي يدعى تاو جون وقال إن لديه طريقة للتغلب على جيش أسرة جين. لم يتردد الإمبراطور في تسليمه السلطة العسكرية، وعيّنه جنرالاً عاماً للجيش. ولكن كان جنود مملكة وو أكثر ذكاء من الجنرال تاو جون، حيث هرب جميعهم ليلة يوم تعيينه.

أخيراً، نجحت القوات المائية للجنرال وانغ جون في احتلال عاصمة جيانيه، حيث لم يكن لدى الإمبراطور سون هاو أي مجال للفرار واستسلم إلى الجنرال وانغ جون مكبّل اليدين، مما أعلن انتهاء فترة الممالك الثلاث، وتوحيد كل الدولة من قبل أسرة جين.

بعد سنوات عديدة، عندما مرّ الشاعر ليو يوشي من أسرة تانغ بجبل شيساي، خطرت في باله بواخر البرج للجنرال وانغ جون والسلاسل الحديدية للمحافظ وو يان وسقوط مملكة وو، فكتب قصيدة بشعور عميق بعنوان «ذكر الماضي في جبل شيساي».

# 91
# الإمبراطور الأحمق سيما تشونغ

قد تحدثنا عن الفرق بين حكم الأصلح وحكم العائلة.

يتم تداول السلطة في عائلة واحدة في إطار حكم العائلة، وليس اختيار الأصلح مثل الزعماء ياو وشون ويو، مما يعني الاختيار المحدود وصعوبة ضمان اختيار الفاضلين والموهوبين في العائلة نفسها. ونتيجة لذلك، ظهر بعض الأباطرة الطغاة والحمق في التاريخ الصيني.

لنتحدث الآن عن أحدهم سيما تشونغ.

إن سيما تشونغ ابن الإمبراطور وو لأسرة جين، وهو أحمق إلى حدٍّ ما، وحكم الأسرة لمدة 16 عاماً. بالطبع، إنه ليس أحمقاً بكل معنى الكلمة، لكن ذكاءه بقي في مرحلة الرضيع، حيث لم يعرف أي شيء سوى اللعب والمتعة. وقد فعل الكثير من الأشياء الغبية. ذات مرة، زار حديقة هوالين برفقة العديد من الحراس والخادمين، وسمع صوت الضفدع فجأة بجانب البركة، فسأل: يصوت الضفدع من أجل الحكومة أم الشعب؟

لم يعرف الحراس كيفية الإجابة على هذا السؤال، وكيف يهم صوت الضفدع الفرق بين الحكومة والشعب؟ ولكن يجب عليهم الإجابة على سؤال الأمير على كل الأحوال، فقال حارس بطريقة عشوائية: إن الضفدع في بركة القصر الإمبراطوري يصوت للحكومة، أما الضفدع في الحقول الزراعية فيصوت للشعب.

صدق سيما تشونغ ذلك تماماً.

فكيف يرث هذا الأمير الغبي المشوب بالعرش؟

أراد بعض الوزراء أن يحثوا الإمبراطور وو على اختيار أمير آخر، لكنهم لم يجرؤوا على تقديم نصيحتهم لأنهم عرفوا أن الإمبراطور يحب ابنه تشونغ كثيراً. ذات يوم، شرب الإمبراطور وو الخمر برفقة الوزير وي قوان، وتظاهر الأخير بأنه سكران، وسقط أمام عرش الإمبراطور وقال: أريد إبلاغكم عن شيء. سأله الإمبراطور: ماذا تريد أن تقول؟ حاول الوزير مواصلة القول لكنه توقف، ولمس العرش وقال بشكل غامض: مع الأسف لهذا العرش.

فهم الإمبراطور معنى كلام الوزير على الفور، لكنه تظاهر بعدم فهمه، وقال: إنك سكران حقاً. ثم أمر الحراس بإرساله إلى البيت. منذ ذلك الحين، لم يجرؤ أحد على ذكر مسألة تغيير الوريث أمام الإمبراطور.

ومع ذلك شكّ الإمبراطور في كفاءة ابنه قليلاً، لذلك أراد اختباره في كيفية التعامل مع الشؤون السياسية بشكل طبيعي. في أحد الأيام، أرسل إلى ابنه مجموعة من التقارير. لم يعرف سيما تشونغ كيفية التعامل معها، لكن زوجته جيا نانفنغ ذكية للغاية واستنجدت بالآخرين للإجابة على التقارير.

كانت الإجابة رائعة جدًّا واستشهد بالعديد من النصوص الجميلة. لكن المسؤول بجانب جيا نانفنغ حذرها قائلاً: يعرف جلالة الإمبراطور أن الأمير ليس جيداً في المعرفة والعلم، فمن المؤكد أن هذه الإجابة الرائعة سوف تثير شكوكه. ومن الأفضل للأمير الإجابة بشكل مباشر. لذلك طلبت جيا نانفنغ منه تقديم إجابة عادية، ثم نسخها سيما تشونغ ورفعها إلى الإمبراطور.

كان الإمبراطور راضياً جدًّا وقال: من قال إن ابني غير متمكن؟ هو ابني على كل الأحوال.

تفاقم مرض الإمبراطور وو في عام 290، وما زال غير مطمئن إلى ابنه، وأمر في مرسومه الأخير والد زوجته يانغ جون وعمه سيما ليانغ بمساعدة ابنه على الحكم سوياً. ولكن لم يتمكن سيما ليانغ من الرجوع إلى العاصمة قبل وفاة الإمبراطور، حيث أمسك يانغ جون بالسلطة بمفرده، وتواطأ مع ابنته لإصدار مرسوم مزيف ورد فيه مساعدة يانغ جون الإمبراطور الجديد على الحكم بمفرده.

بعد وفاة الإمبراطور وو، وصل الأمير سيما تشونغ أي الإمبراطور هوي إلى سدة الحكم، لكن هذا الإمبراطور الأحمق لم يفهم كيفية إدارة شؤون الدولة على الإطلاق ولم يفهم شدائد الشعب.

وقعت كارثة ذات سنة، أبلغ مسؤولون في مختلف الأماكن الإمبراطور عن حالات القتلى بسبب المجاعة، لكنه سأل: لماذا مات هؤلاء جوعاً؟

أجاب الوزراء أنه لا توجد محاصيل للأكل.

فكّر الإمبراطور للحظة وسأل: لا توجد محاصيل، لماذا لا يأكلون عصيدة اللحوم؟

تفاجأ الوزراء بهذا الكلام، حيث لم يجد الناس المحاصيل، فمن أين جاءت اللحوم وهي أغلى وأثمن من المحاصيل؟ لكن الإمبراطور الأحمق الذي يعيش في القصر لم يتمكن من فهم هذه الحقيقة البسيطة. في العصور القديمة، يعتبر العرش أعلى سلطة في الدولة، ومن المستحيل لسيما تشونغ حمايته، حتى بدأ العديد من الناس توجيه نظراتهم نحوه، مما يعني إمكانية وقوع الفوضى والاضطراب في أسرة جين الغربية بعد فترة وجيزة من تأسيسها.

# 92
# فوضى ثمانية أمراء الحرب

بدأت أن تنتشر أغنية للأطفال في مدينة لويانغ ذات سنة، وكان أولئك الذين سمعوها يدركون معناها جيداً.

ألمحت الأغنية إلى مقتل الأمير الوريث سيما يو في يد الإمبراطورة جيا نانفنغ. لم يحتضن القصر الإمبراطوري إمبراطوراً أحمق فحسب، بل أيضاً إمبراطورة قبيحة وشريرة أطلقت عواصف ضخمة قلبت السفينة الكبيرة لأسرة جين الغربية التي انطلقت للتو.

ذكرنا من قبل أن جيا نانفنغ هي زوجة الإمبراطور سيما تشونغ، وسبق لها أن طلبت من شخص ما للإجابة على أسئلة الإمبراطور الراحل. إنها امرأة قصيرة وقبيحة وحاسدة، وهي ظلت مستاءة من انفراد يانغ جون في مساعدة الإمبراطور على الحكم.

ولكن كيف يمكنها الاستيلاء على السلطة من يد يانغ جون؟

استعملت جيا نانفنغ قوى أمراء الحرب، حيث عرفت أنهم غير راضين في الواقع عن يانغ جون، ولم يجدوا أي فرصة للقضاء عليه. لذلك، اتصلت جيا نانفنغ بأمير سيما ليانغ لمنطقة رونان وأمير سيما وي بمنطقة تشو سرًّا، وطلبت منهما القدوم إلى العاصمة لقتل يانغ جون.

بعد مقتل يانغ جون، بدأ الأمير سيما ليانغ لمنطقة رونان مساعدة الإمبراطور على الحكم.

أراد سيما ليانغ الاستيلاء على مجمل السلطات، لكن القوة العسكرية كانت في يد سيما سوي أمير منطقة تشو. أما الإمبراطورة جيا نانفنغ فهي وجدت أنها ما زالت غير قادرة على السيطرة على السلطة، ثم خرجت بخطة سامة للقضاء على سيما ليانغ وسيما وي.

إذن ماذا فعلت؟

أصدرت مرسوماً سرياً باسم الإمبراطور لاستدعاء سيما وي إلى العاصمة لقتل سيما ليانغ بشكل سرّي. ثم أعلنت أن سيما وي اصطنع المرسوم الإمبراطوري في محاولة لقتل سيما ليانغ في ليلة مقتل الأخير، لذلك فهي بطبيعة الحال يمكنها قتل سيما وي.

أصبح الوقت متأخراً عندما وجد سيما وي أنه وقع في فخ الإمبراطورة.

قتلت الإمبراطورة هدفيها بسهم واحد، ولم يعد هناك وزراء يعارضونها في البلاط الإمبراطوري، وبدأت الإمبراطورة حكمها لما يقرب الـ 8 سنوات، حيث عيّنت تشانغ هوا وغيره من الموهوبين حتى استقر الوضع السياسي لبعض الوقت. لكن الإمبراطورة الشريرة والقاسية لم تكتف بذلك، حيث وجهت نظرتها نحو الأمير الوريث سيما يو.

كان سيما يو ذكياً منذ الطفولة. اندلع حريق في القصر في الخامسة من عمره، وصعد الإمبراطور وو إلى برج المراقبة، أما حفيده سيما يو فطلب منه الاختباء في الظلال قائلاً: يجب الاحتراس من سوء الحظ في هذه الليلة، وإنكم كإمبراطور يجب الوقوف في الظلال.

كان الإمبراطور وو مغرماً جداً بحفيده، وسبق له الإشادة به أمام الوزراء وقال إنه مثل سيما يي، لذلك كان الجميع قد احترم وقدر سيما يو كثيراً، وهذا سبب من أسباب تسليم الإمبراطور وو العرش لسيما تشونغ، ورغم أن الأخير أحمق قليلاً، له ابن ذكي جدًّا. في الواقع، بعد سيطرة الإمبراطورة جيا نانفنغ على الحكم وبسبب توجيهها المتعمد، قد أصبح سيما يو منغمساً في المتعة واللعب، ولم يكن ذكياً جدًّا عندما كان صغيراً.

إن سيما يو ليس الابن البيولوجي للإمبراطورة جيا نانفنغ، وهي ظلت غير مطمئنة ولم تثق به، وقد تطمئن في حال القضاء عليه، ولكن كيف يمكن القضاء عليه؟

تبنّت الإمبراطورة خطة شريرة وقاسية، حيث أعدت رسالة باسم الأمير سيما يو، وكان مضمونها إجبار الإمبراطور على التنازل عن العرش. في وقت لاحق، دعت الأمير إلى حضور المأدبة وشرب الخمر، عندما أصبح سكراناً، دعته إلى نسخ الرسالة. في اليوم التالي، أعلنت الإمبراطورة تمرد الأمير أمام الوزراء بتلك الرسالة.

شكّ الوزراء في أن الرسالة مكتوبة من قبل الآخرون، وطلبت الإمبراطورة التحقق من خط اليد للأمير، والنتيجة هي حقاً أن الخط للأمير.

ألغت الإمبراطورة صفة الأمير ووضعته في الإقامة الجبرية في قصر جينتشنغ.

حققت الإمبراطورة غرضها الخاص، لكنها أثارت كراهية الوزراء، حيث حاول سيما لون أمير منطقة جاو التي يسيطر على القوات المحظورة التمرد ضد الإمبراطورة، لكنه خشي أن الأمير سيما يو سيكون الرابح النهائي إذا قتل الإمبراطورة. فكيف القضاء على الأمير؟ خطّط سيما لون قتله باستعمال سيف الآخرين، حيث نشر شائعات في مدينة لويانغ قالت إن وزراء في قيد التخطيط السرّي لدعم استعادة سلطة الأمير سيما يو. عرفت الإمبراطورة فقتلت سيما يو بسموم مباشرة. انتهز سيما لون هذه الفرصة وقاد القوات على الفور لإلقاء القبض على الإمبراطورة في القصر. لم يكن في حسبان الإمبراطورة التي ظلت تتلاعب مع السلطة أنها وقعت في فخ الآخرين.

استولى سيما لون على السلطة بعد مقتل الإمبراطورة، وبدأ طموحه في الانتفاخ حتى لم يكتف بمنصب رئيس الوزراء.

في العام التالي، ألقى سيما لون الإمبراطور هوي في الإقامة الجبرية وأعلن نفسه إمبراطوراً، مما أثار تنافس أمراء الحرب في كافة الأماكن على العرش، ووقع قتال متكرر بينهم، وكان هناك مجموعة من ثمانية أمراء شاركوا في القتال، مما يسمى فوضى ثمانية أمراء الحرب.

في الواقع، كان السبب الأساسي لحدوث «فوضى ثمانية أمراء الحرب» يرجع إلى الإمبراطور وو الذي عيّن 27 أميراً من عائلة سيما بعد وصوله إلى سدّة الحكم، معتقداً أنه لن يتم عزل العائلة المالكة بتلك الطريقة. ولكن لم يكن في حسبانه أن الأمراء أخذوا المصالح والأجندات الخاصة في عين الاعتبار فقط بعد الاستيلاء على السلطة العسكرية المحلية. لذلك استمرت «فوضى ثمانية أمراء الحرب» لمدة ستة عشر عاماً. وانتهت عندما بقي أمير واحد منهم أي سيما يوي بحلول عام 306. قتل سيما يوي الإمبراطور هوي بسموم، وقرّر تسليم العرش إلى سيما تشي الشقيق الصغير للإمبراطور هوي، ليكون الإمبراطور هواي.

كانت فوضى ثمانية أمراء الحرب بمثابة محراث حديدي يتدحرج ذهاباً وإياباً عبر أراضي أسرة جين الغربية، أما الشعب فهو مثل العشب الناعم تحت المحراث وتحول إلى الطمي في النهاية.

ولكن هناك بعض الناس غامروا في فتح عالم جديد في الفوضى. في عام 304، أعلن لي شيونغ نفسه إمبراطوراً في مدينة تشنغدو، وأعلن ليو يوان زعيم قبائل الهون نفسه إمبراطوراً أيضاً في الشمال في العام نفسه، حيث تلت فوضى ثمانية أمراء الحرب فوضى أخرى.

# 93

# ليو يوان زعيم قبائل الهون
# أعلن نفسه إمبراطوراً

ما هي عملية الاندماج؟

إن الاندماج في البداية نوع من التقارب، مثل تدفّق وتقارب الجداول إلى نهر واحد بعد الأمطار الغزيرة، ومثل تراكم التربة لتشكيل الجبل. لكن الاندماج يعني أكثر من مجرد التقارب، وإنما يعني التلاحم. لأن التباين سوف يختفي في عملية الاندماج مع مرور الوقت.

هذا هو اندماج الماء والتربة.

كما هو الحال مع البشرية، لكن اندماجها ليس هادئاً مثل الماء والتربة، بل يرافقه الدم والاضطرابات بين حين وآخر. في نهاية حكم الإمبراطور هوي، بدأت عملية كبرى من الاندماج العرقي تسمى «فوضى القبائل الخمس»، وهي الهون وشيانبي ويي وشي وتشيانغ. اضطرت هذه القبائل إلى التصادم والاندماج في نهر التاريخ، وكانت هذه العملية مؤلمة ودموية، ولكن هدأت مع مرور الوقت في النهاية.

كان الحدث الذي دشّن «فوضى القبائل الخمس» هو إعلان ليو يوان نفسه إمبراطوراً.

قلنا إن لي شيونغ أعلن نفسه إمبراطوراً في مدينة تشنغدو وأعلن ليو يوان زعيم قبائل الهون نفسه إمبراطوراً في الشمال في عام 304، وقد تحدثنا مراراً عن قبائل الهون في تاريخ أسرة هان الغربية. مع التراجع التدريجي لقبائل الهون، بدأ بعض الهون يعيشون في المقاطعات النائية في الحدود الشمالية مع قومية هان (أكبر قومية في الماضي والحاضر) منذ نهاية عهد أسرة هان

الغربية، وبدأوا قبول ثقافة قومية هان تدريجياً، حيث تحول اسم العائلة لقبائل الهون إلى اسم لقومية هان «ليو».

قام تساو تساو بتقسيم قبائل الهون البالغ عددها 30 ألف إلى خمس كتائب بعد توحيد شمال الدولة، وكان ليو باو زعيم إحدى الكتائب الخمس. بعد حدوث فوضى ثمانية أمراء الحرب، حاولت قبائل الهون التي تمّ قمعها لفترة طويلة انتهاز الفرصة لاستعادة مجدها السابق، وقال أحد زعمائها ليو شوان: إن القبائل قد أصبحت اسمية ولم تكن تمتلك أي أراض بعد انهيار أسرة هان، وأصبح زعماؤها وأمراؤها مثل المدنيين. ولكن رغم تراجع قبائلنا، لا يزال هناك أكثر من 20 ألف شخص، فكيف يمكننا الخضوع أمام قمع الآخرين؟

تمّ الاتفاق على خطاب ليو شوان بالإجماع.

لكن القبائل في حاجة إلى قائد لتحقيق ذلك، اختار الجميع ليو يوان ابن ليو باو، وهو ليس رائعاً فحسب في الكفاءة والقدرة منذ الطفولة، بل أيضاً قوي جدًّا لدرجة فتح القوس الكبير. تولى ليو يوان منصب ليو باو بعد وفاة الأخير، ثم عمل لسيما ين أمير أسرة جين بمنطقة تشنغدو للإشراف على جيش الكتائب الخمس لقبائل الهون.

عرف ليو يوان طموح قبائل الهون من أحد عناصر القبائل عندما كان يعمل في تشنغدو.

أصبح ليو يوان سعيداً للغاية، وقال لسيما ين إنه سيرجع إلى مسقط رأسه لإقامة الجنازة لوالده على أمل الاعتذار والمغادرة لبعض الوقت. لكن سيما ين لم يوافق. في وقت لاحق، تعرّض سيما ين لمهاجمة سيما تنغ والجنرال وانغ جون وقبائل شيانبي وفشل. انتهز ليو يوان الفرصة وقال إنه يأمل الرجوع إلى مسقط رأسه لإحضار تعزيزات قبائل الهون، وحظي بموافقة سيما ين.

عاد ليو يوان إلى مدينة تسوقو عام 304 وتولى الزعيم الكبير لقبائل الهون بإقبال الجميع، وقد جمع 50 ألف جندي تحت رايته.

أعلن ليو يوان اختيار مدينة تسوقو عاصمةً ونقل إليها بعد فترة وجيزة، حيث لجأ إليه العديد من أهل القبائل الخمس وسكان أسرة جين. قال ليو يوان للوزراء إن سبب تمكن أسرة هان من حكم

الدولة لفترة طويلة هو التعامل مع الشعب بالرحمة والأخلاق. أنا كخلف لعائلة ليو لأسرة هان، أليس من الممكن أن أتوارث العرش؟

لذلك أعلن ليو يوان نفسه ملكاً وإقامة أسرة هان، اقترح الوزراء عليه استخدام لقب الإمبراطور، لكنه قال: إن الوضع في الدولة ما زال غير مستقر، فلأستخدم لقب الملك في الوقت الحاضر.

استولى ليو يوان على مناطق شانغدانغ وتايوان وخهدونغ وبينغيوان وغيرها من المناطق في وقت قصير وازداد نفوذه باستمرار، وانضمت إليه بعض القوى المناهضة لأسرة جين. في عام 308، رأى ليو يوان أن الوقت قد حان له فأعلن نفسه إمبراطوراً لأسرة هان، ونقل العاصمة إلى مدينة بينغيانغ في العام التالي التي هي الآن جنوب غرب مدينة لينفن بمقاطعة شانشي.

جمع ليو يوان قواته لمهاجمة مدينة لويانغ، لكنه تعرّض للمقاومة الشرسة من جيش وسكان المدينة، فاضطر إلى الانسحاب. بعد وفاة ليو يوان، تولى ابنه ليو تسونغ العرش، ثم أرسل الجنرال ليو ياو والجنرال شي لو لمهاجمة لويانغ مرة أخرى. سقطت المدينة في عام 311، وتمّ القبض على الإمبراطور هواي لأسرة جين. ما زال الوزراء يكنون بمشاعر عميقة جدًّا تجاه الإمبراطور هواي، لذلك قرّر ليو تسونغ قتله بعد التعذيب القاسي خوفاً من استعادة أسرة جين في يوم ما. بعد وفاة الإمبراطور هواي، تلقى ابن أخته سيما يي دعم وزراء أسرة جين في مدينة تشانغآن ليتولى العرش ويكون الإمبراطور مين.

هاجم وسيطر ليو تسونغ على مدينة تشانغآن في عام 316.

على غرار الإمبراطور هواي، تعرّض الإمبراطور مين لنفس التعذيب والإهانة قبل وفاته، مما أعلن انتهاء أسرة جين الغربية التي استمرت 52 عاماً. بعد سقوط أسرة جين، حقّق أهالي قبائل الهون وشيانبي ويي وشي وتشيانغ في الشمال الاستقلال الذاتي وأسسوا 16 سلطة خاصة بهم، وعرفت تلك الفترة في تاريخ الصين «فترة الممالك الـ 16».

# 94

# تشارك سيما روي وعائلة وانغ في الحكم

في عام 318، توفي آخر إمبراطور مين لأسرة جين الغربية إهانةً.

قبل القبض عليه أسيراً، أصدر الإمبراطور مين مرسوماً لتسليم العرش إلى سيما روي أمير منطقة جيانكانغ البعيدة. كفرع جانبي للعائلة المالكة، لم يتمتع سيما روي بسمعة بارزة، فهل نجح في مواصلة أسرة جين الغربية بعد تولي العرش؟

في بداية وصول سيما روي إلى مدينة جيانكانغ، لم يهتم به النبلاء والمسؤولون المحليون، لم يزوروه أبداً. بدون تأييدهم، كان من المستحيل لسيما روي الاستقرار في منطقة جيانغدونغ، فما كان العمل؟

كان الأمر يقلق سيما روي كثيراً، ولكن لحسن الحظ، هناك وزير معروف وحكيم إلى جانبه يدعى وانغ داو ساعده على إنجاز الحكم. كانت فكرة وانغ داو بسيطة للغاية في الواقع وهي التخادع، حيث من السهل للناس التأثر بالتخادع، وكان كل ما يريد وانغ داو عرضه هو تنظيم رحلة ضخمة.

وفقاً للعادات المحلية لمدينة جيانكانغ، يتم عبادة الأسلاف وطلب البركة عند الأنهار في عيد الثالث من مارس.

غالباً ما يعني فصل الربيع نمو المواليد والأشجار والزهور، حيث يأمل الجميع في التخلص من الغبار والإرهاق في الأيام القديمة والحصول على الحظ الحسن في السنة القادمة. في عيد الثالث من مارس، يتوافد عامة الشعب وكبار المسؤولين والنبلاء إلى جانب النهر لتنظيف أنفسهم، سعياً وراء الحصول على البركة والفرح والتخلص من الكوارث.

اختار وانغ داو عيد الثالث من مارس لتنظيم رحلة ضخمة ورائعة.

دعا وانغ داو شقيقه وانغ دون مسؤول في مقاطعة يانغتشو إلى مساعدته على التحضير. في عيد الثالث من مارس، جلس سيما روي في حمالة كرسي فاخر جدًّا، ورافقه فريق ضخم للمراسم والموسيقى، ووراءه كبار المسؤولين من شمال الدولة على رأسهم وانغ داو ووانغ دون.

لفت هذا المشهد أنظار الحشود بجانب النهر.

بعد معرفة الخبر، قام كبار المسؤولين والنبلاء في منطقة جيانغدونغ مثل قو رونغ وجي جان بمراقبة الوضع من وراء أبواب منازلهم، حيث رأوا احترام وتقدير وانغ داو ووانغ دون لسيما روي الذي بدا نبيلاً وفاخراً جدًّا. تفاجأ هؤلاء كثيراً، وخرجوا من منازلهم على الفور وانحنوا أمام سيما روي لاستقباله.

وبهذه الطريقة، برزت سمعة سيما روي في صفوف النبلاء في منطقة جيانغدونغ مثل تدفق تيار الربيع.

أشار وانغ داو إلى أن قو رونغ وخه شون هما من المشاهير والنبلاء في منطقة جيانغدونغ، لن نواجه أي مشكلة طالما تمّ الحصول على دعم هذين الرجلين. وافق ذلك سيما روي بطبيعة الحال، وأرسل وانغ داو على الفور لزيارة قو رونغ وخه شون وتوفير مناصب هامة لهم. قبل الرجلان هذه المهام، مما يعني حصول سيما روي على دعم المسؤولين والنبلاء في منطقة جيانغدونغ.

منذ ذلك الحين، استقر سيما روي في مدينة جيانكانغ. أثناء فوضى القبائل الخمس، فرّ العديد من المسؤولين والنبلاء من الشمال إلى منطقة جيانغدونغ هروباً من نيران الحرب، قبلهم سيما روي جميعاً وكان لهم 106 شخصاً، وقام بذلك بالاستماع إلى مقترح وانغ داو. ازدهرت مدينة جيانكانغ بعد ذلك خلال وقت قصير جدًّا.

كان وانغ داو مشكوراً جدًّا لدى سيما روي، حيث شبّهه سيما روي بشياوخه، وازدادت العلاقات بينهما بشكل وثيق. أسس سيما روي أسرة جين من جديد عام 317 ليكون الإمبراطور يوان. من أجل التمييز مع أسرة جين الغربية التي أسسها سيما يان، تعرف أسرة جين التي أسسها سيما روي أسرة جين الشرقية في تاريخ الصين.

في اليوم الذي تولى فيه الإمبراطور يوان العرش، انحنى أمامه مئات المسؤولين لتقديم التهاني. وقف الإمبراطور من عرشه على الفور بعد رؤية وانغ داو، وأمسك بقبضته ودعاه إلى الجلوس معه في العرش. في العصور القديمة، لم يتم السماح مطلقاً لمثل هذه التصرفات، لذلك رفض وانغ داو قائلاً: إذا أصبحت الشمس مثل الأشياء على الأرض، فكيف يتمتع الناس بضوئها؟

لم يصر الإمبراطور بدعوته، لكنه لن ينسى كيف صعد إلى عرشه بثبات. في وقت لاحق، عيّن وانغ داو وزيراً للوزراء للإشراف على السلطة الكبيرة في البلاط الإمبراطوري، أما وانغ دون أشرف على الشؤون العسكرية، مما تعاظمت قوة عائلة وانغ في منطقة جيانغدونغ كثيراً، حيث انتشر في صفوف الجماهير قول «تشارك سيما روي وعائلة وانغ في الحكم».

## 95
## شي لو تعلّم من قومية هان بصدق

دعونا نحوّل أعيننا مرة أخرى إلى السهول الوسطى.

في العام التالي من وصول الإمبراطور يوان إلى سدّة الحكم أي عام 319، ظهر اثنين من «الأمير جاو» في السهول الوسطى. لماذا هناك اثنان؟ يجب أن نبدأ بوفاة ليو تسونغ، زعيم قبائل الهون لأسرة هان.

بعد وفاة ليو تسونغ، اعتلى ابن أخيه ليو ياو العرش وغيّر لقب الحكم من هان إلى جاو. كان هناك جنرال كبير يدعى شي لو الذي لم يعد يريد التقيّد من قبل ليو ياو، لذلك أعلن نفسه الأمير جاو، وهو من أهل قومية يي، وكان رجلاً طموحاً وشجاعاً منذ الطفولة وأجاد الرمي على ظهر الخيل، وله مصداقية بارزة في صفوف أهل قوميته.

يقال إن شي لو ذهب إلى مدينة لويانغ لبيع البضائع في سنّ الرابعة عشرة. وفي وقت فراغه، صاح عند البوابة الشرقية للمدينة، حينما مرّ به رئيس الوزراء اليساري وانغ ين، الذي فوجئ كثيراً وقال للحراس إن هذا المراهق طموح جدًّا وقد يسيطر على الدولة في المستقبل، ثم أمر بالقبض عليه، لكن شي لو قد غادر بالفعل قبل ذلك.

ربما هذه هي قصة مجاملة بعد أن أصبح شي لو مشهوراً لاحقاً.

حدثت مجاعة في مقاطعة بينغتشو ذات سنة، قبل أمير سيما تنغ بالمنطقة مقترحاً الجنرال جيانوو وقام بالقبض على أهل القبائل والقوميات الأقلية وبيعهم في مقابل الإمدادات الغذائية. تشرد شي لو مع قبائله وتمّ القبض عليه. كان في الطريق مرت مجموعة من الغزلان، حيث استعجل الجنود لمطاردتها، وانتهز شي لو الفرصة للفرار. ثم استنجد بأسرة فلاحية كعبد ومُني بالمعاناة

الشاقة. في وقت لاحق، لم يكن قادراً عن تحمل كل ذلك وقام بتعبئة مجموعة من النازحين لتشكيل فريق من القوات. عندما تمرد ليو يوان، لجأ شي لو إليه وعمل كجنرال تحت رايته.

بعد أن أصبح جنرالاً، علم شي لو تدريجياً أنه لن ينجز القضايا الهامة دون الثقافة والآداب. كانت قبائله يي متخلفة ثقافياً مقارنة مع قومية هان، ولم يكن شي لو متعلماً جيداً وهو كان أمياً منذ طفولته، لكنه لم يكن مقيداً بالتمييز بين القبائل المختلفة، بل وجّه نظرته نحو أحد علماء قومية هان يدعى تشانغ بين وكان مستشاراً مشهوراً اعتمد شي لو عليه كثيراً، وتبنّى العديد من أفكاره. وفي الوقت نفسه، قام أيضاً بإيواء علماء فقراء لقومية هان من شمال الدول وشكل «فريق الرجال المحترمين».

بهذه الطريقة، تعظم نفوذ شي لو بشجاعته وحكمته وتخطيط عدد من مستشاريه، وقضى على ليو ياو في عام 328. وأسس أسرة جاو في عام 330 ليكون الإمبراطور. من أجل التمييز، تعرف أسرة جاو التي أسستها عائلة ليو «أسرة جاو المبكرة»، وتعرف أسرة جاو التي أسسها شي لو «أسرة جاو المتأخرة».

كانت أسرة جاو المتأخرة منفتحة سياسياً في بداية تأسيسها، وبرز فيها زخم تطور وازدهار. أدرك شي لو أنه ليس جيداً في المعرفة والعلوم، لذلك أولى اهتماماً خاصاً بأصحاب الكفاءة، حيث طرح ثلاثة مبادئ أولها منع قتل المثقفين إذا تمّ القبض عليهم وضرورة إحالتهم إليه للتعامل معهم، وثانيها بناء مدارس وتعليم أبناء المسؤولين وضباط الجيش، وثالثها إنشاء نظام الترشيح والامتحان، وتعيين المؤهلين في الاختبار والتقييم.

على الرغم من أن شي لو أُمي، يحب الاستماع إلى قراءة الكتب. وكثيراً ما طلب من المثقفين قراءة الكتب له وقدّم آراءه حول القصص في الكتب. استمع إلى قراءة «سجلات أسرة هان» بشأن تعيين الإمبراطور قاوزو لأسرة هان أمراء الدويلات الست، لم يكن بوسعه إلا أن يتنهد قائلاً: كيف يمكن له تبنّي هذه الممارسة الخاطئة؟

أخبره المثقف الذي قرأ الكتاب على الفور أنه تمّ إيقاف الإمبراطور قاوزو من قبل تشانغ ليانغ ولم يفعل ذلك. أكّد شي لو «نعم، هذا صحيح».

حظر شي لو الإشارة إلى كلمة «قبيلة هو» أو «قبيلة يي»، ولكن من أجل استرضاء علماء قومية هان، تجاهل شي لو هذا الحظر في بعض الأحيان. ذات مرة، زاره مسؤول من قومية هان بالملابس الممزقة في القصر الإمبراطوري.

سأله شي لو بفضول لماذا ملابسك ممزقة؟

اشتكى هذا المسؤول قائلاً: رأيت للتو مجموعة من لصوص قبيلة يي وسلبوني من المال والملابس. فور تكلم كلمة «قبيلة يي»، أدرك المسؤول أنه انتهك الحظر وارتجف من الخوف وسرعان ما طلب من شلي لو العفو. ابتسم الأخير قائلاً: يتطابق هذا الحظر مع الناس العاديين فقط، ليس المثقفين مثلك.

أمر شي لو بتوفير هذا المسؤول ببعض المال والملابس وكافأه بعربة وخيل.

# 96
# الخطاط الكبير وانغ شيجي

اجتمع واحد وأربعون من المشاهير في كشك لانتينغ بجبل كوايجي في عيد الثالث من مارس في السنة التاسعة من حكم الإمبراطور مو لأسرة جين الشرقية.

في ضوء الربيع المشمس، جاء هؤلاء المشاهير إلى جانب النهر لطلب البركة وشرب الخمر وإعداد القصائد والمحادثة. وكان الطقس منعشاً ونقياً ومريحاً، والجبال والأشجار والغابات خصبة ومزدهرة، والخيزران طويلة ونحيلة، والجداول صافية ومنحنية، حيث انجرفت كؤوس الخمر على سطحها ببطء، حيث شرب بعض الناس الخمر في كأسه بين حين وآخر. على الرغم من عدم وجود مشهد تداول الموسيقى الرائعة، كان شرب الخمر وإعداد القصائد والمحادثة كافية للتعبير عن الشعور السعيد.

كان مضيف الاجتماع وانغ شيجي، عمدة مدينة كوايجي، حيث أعدّ قصيدة «كشك لانتينغ»، وكان خطه لكتابة هذه القصيدة خالداً في تاريخ الخط الصيني. في هذا الوقت، قد مضت أكثر من 40 عاماً على احتفال الإمبراطور يوان لأسرة جان لعيد الثالث من مارس الذي برزت فيه سمعته ومكانته كثيراً، وقد فارق هذا الاحتفال في أذهان الناس تدريجياً، لكن احتفال وانغ شيجي لهذا العيد تمّ ذكره مراراً وتكراراً لدى الناس.

دعونا نتحدث عن بعض القصص عن وانغ شيجي.

ولد وانغ شيجي في عائلة للمثقفين ولديه كفاءة بارزة جدًّا حيث كان موصى به بشكل متكرر كمسؤول، وقد تولى مناصب عديدة مثل عمدة المدينة والجنرال اليميني، لذلك يسمى أيضاً «وانغ يوجون» (الجنرال اليميني). كان وانغ شيجي منغمساً بالخط الصيني منذ الطفولة. نعم، إنه مجنون

في إعجابه للخط الصيني. يقال إنه قام بإيماء أصابعه على الطيّة لممارسة فن الخط عندما سار على الطريق، لذلك أصبحت بعض ملابسه مخدوشة.

إن سبب كفاءته البارزة في فن الخط هو افتتانه ومثابرته في الممارسة الجادة على وجه التحديد.

كما أن المثل الصيني «الصهر السريع على سرير الغرفة الشرقية» يرتبط أيضاً بحبه للخط، والذي قال إن وانغ شيجي ما زال يتمسك بممارسة فن الخط عند اختياره صهراً. عندما جاء الوزير شي جيان إلى عائلته لاختيار الصهر، جلس أشقاء وانغ شيجي بانتظام، لكنه رقد على سريره في الغرفة الشرقية عاري البطن. في الواقع، لم يكن من قبيل اللامبالاة لوانغ شيجي لهذا الأمر، وإنما نسي ذلك لأنه كان منغمساً في الخط المنقوش على النصب القديم للخطاط الشهير تساي يونغ من أسرة هان الشرقية. ولكن لم يكن في حسبان الجميع أن الوزير اختار وانغ شيجي صهراً له أخيراً بسبب حبه وبساطته ومثابرته.

أجاد وانغ شيجي العديد من أنماط الخط الصيني خاصة نمط لي، حيث يستمتع بشرف الرجل الأروع في خط لي عبر التاريخ الصيني القديم والحديث، لذلك، يعرف لدى الناس «قديس الخط».

كانت أعمال الخط لوانغ شيجي معتزاً بها كثيراً، وهو أيضاً فخور بنفسه، ومن غير السهل الحصول على أعماله. ومع ذلك، كان وانغ شيجي يحب الإوز كثيراً وعندما سمع أن شخصاً ما لديه إوزة جيدة، أصبح سعيداً للذهاب إليه وشرائها بأسعار مرتفعة. سمع وانغ شيجي ذات مرة أن هناك كاهن طاوي لديه إوز جميلة في منطقة شانين، فذهب لمشاهدتها حيث رأى مجموعة من الإوز بالريشة البيضاء الطويلة في البركة، وشعر بسعادة غامرة.

كان وانغ شيجي يريد شراء كل هذه الإوز، لكن الكاهن قال بابتسامة: بما أنك مغرم جداً بالإوز، فمن الطبيعي أن أعطيها إياك، ولكن لديّ طلب صغير، وهو أن أطلب منك أن تكتب لي نسخة من «سجلات الأخلاق».

لذلك، لم يتردد وانغ شيجي في ذلك، ثم سُرّ بإحضار الإوز إلى البيت. وفي وقت لاحق، علم أن الكاهن قد علم أنه يحب الإوز كثيراً، لذلك ربّى مجموعة من الإوز سعياً وراء الحصول على عمل الخط الأصلي له.

على الرغم من أن وانغ شيجي فخور بنفسه ولا يرغب في الكتابة للآخرين بسهولة، إلا أن هناك استثناء أيضاً. كان وانغ شيجي مهتماً بمعاناة الناس كمسؤول محلي. رأى ذات مرة عجوزاً تبيع المراوح الخيزرانية ولم تنجح في بيع حتى واحدة لفترة طويلة. ثم تحدث معها وعرف أنه تمّ تجنيد ابنها لبناء سدّ نهر تشيانتانغ، وهي اضطرت إلى بيع المراوح الخيزرانية من أجل الحصول على الرزق. شعر وانغ شيجي بالأسف والحزن، وكان مصمماً على رفع تقرير إلى الإمبراطور لإبلاغه عن معاناة الشعب وضرورة تخفيف عبئه. بعد ذلك، كتب بعض الكلمات على المراوح للعجوز، واستعجل الناس إلى شرائها بعد معرفة أن الكتابة هي أصلية لوانغ شيجي.

كان وانغ شيجي عمدة مدينة كوايجي، حيث معجب بالمناظر الطبيعية الجميلة هناك، وغالباً ما دعا أصدقاءه للاستمتاع بالمناظر الجميلة بين الجبال والأنهار. ودعا العديد من أصدقائه في عيد الثالث من مارس في السنة التاسعة من حكم الإمبراطور مو لأسرة جين الشرقية للاجتماع في كشك لانتينغ في جبل كوايجي لاحتفال العيد وشرب الخمر وإعداد القصائد.

أخيراً، تجدر الإشارة إلى وانغ شيجي كتب قصيدة «كشك لانتينغ» المشهورة، وهي عمل رائع للخط الصيني، لكن العمل الأصلي قد فُقد منذ فترة طويلة، وهذا أمر مؤسف.

# 97

# فتوحات ((هنغ ون)) إلى الشمال

مما تتكون الحياة، هل فكرت فيه؟

لخلاصة القول، فإنها تتكون من الأوقات. أو بالأحرى، تتكون من أفعالك وأقوالك في هذه الأوقات. ما مائة سنة إلا ست وثلاثون ألف يوم ولا غير على حساب التقدير. هل تعرف إن كانت حياتك ذات مغزى؟ إذا لا، فراجع أفعالك وأقوالك في الماضي بدقة. كيف ترفع جودة حياتك؟ يتعين عليك أن تنفض التوافه عن حياتك وتفضي الهوام عليها. على كل إنسان أن يفعل أشياء ذات مغزى في عمره حتى لا يعاوده الإحساس بالضياع حين تستعيد حياته.

في فترة ((جين الشرقية)) كان جنرال يطلق زفرة لمرور الوقت. كان في ذلك الوقت في طريق فتوحاته إلى الشمال. عندما مرّ بمدينة ((جين))، وجد أن الصفصافة التي كان قد غرسها في شبابه أصبح عرضها عشرة وياً[1]. سجلت الصفصافة بجلاء آثار الوقت. استعرض الجنرال حياته فتدفقت إليه شتى المشاعر. قطع فرعاً منها وهو يغرورق بالدموع. ما من أحد يقدر على تجنب طعن السنّ، فلنتساءل: ماذا أنجزنا خلال مرور الوقت، مما جدير بالتذكر؟

اسم الجنرال خانغ وان. هل كانت حياته مثلما يتنهد؟

كانت أوضاع السهول الوسطى مضطربة. بعد وفاة ((شي له)) تولى ابنه ((شي هونغ)) عرشه. ثم اغتاله شقيق أخيه ((شي هو)) ونصّب نفسه ملكاً. على إثر وفاته أسس ((ران مين)) مملكة ((ران وي)) التي أبادها ((مو رونغ هوانغ)) أرستقراطي قومية ((شيآن بي)) قبل تأسيسه مملكة يان السابقة. في نفس العام أي عام 253، أسس ((فو جيان)) أرستقراطي قومية ((دي)) مملكة ((تشين السابقة)).

ففي تعاقب الأسر مثل دوران دوامة الخيول، سادت السهول الوسطى المواقع والمعارك.

إنما وفّر اضطراب السهول الوسطى فرصة سانحة لمملكة ((جين الشرقية)). فرفع الجنرال الأول ((هنغ ون)) طلباً أن يقود الجيش لفتوحات إلى الشمال. لكنه رفض من قبل الملك ((جين مو))، الملك الخامس لمملكة جين الشرقية. اختار ((يين هاو)) الملك الجنرال الثاني ومشرف مدينة ((يانغ تشو)) كقائد للفتوحات وهو زيف الشهرة وقليل القدرة. انهزم مرات في أثناء السنوات من الفتوحات حتى نفدت الأقوات والأسلحة بأكملها.

فانتشرت الشكاوى في البلاط. اغتنم هنغ ونذلك لرفع رسالته حيث راجع ما ارتكب يين هاو من الجرائم واحدة واحدة ويطالب بعزله عن منصبه. اضطر الملك جين مو دي إلى إقالته وأقصاه إلى بلدة ((دونغ يانغ)) التابعة لمحافظة ((شين آن)). فتسلم ((هنغ ون)) مقاليد الحكم من الوقت فصاعداً. في عام 354، انطلق جيش يضم 40 ألف جندي بقيادة هنغ ون من مدينة ((جيانغ لينغ)) للهجوم على مدينة ((تشانغ آن)). لم يقابل عقبات كثيرة حتى وصل إلى ((با شانغ)) خارج مدينة تشانغ آن. توافر أهل أكناف المدينة إلى الاستسلام له. سرّ هنغ ون فعلق على الجدران إعلاناً فيها يقول للأهل أن يعيشوا في السلام والطمأنينة فلن يتعرضون لآلام الحرب أبداً. فعمدوا إلى المعسكرات مع هم الأبقار والأغنام ودنان الخمر للقادة والجنود.

أمر هنغ ون جيشه بالتخييم عند با شانغ مستعداً لحصاد القمح الخريفي بعد أن ينضج لتزويد المؤونة به. لكن لم يخطر على باله أن حاكم مملكة تشين السابقة أمكر منه فقطع القمح قبل نضوجه. لم يحصد جيش هنغ ون ولو حبة واحدة. لم تمر إلا فترة قصيرة حتى أُجبر على الانسحاب بسبب نفاد الأقوات.

كان الملك جين مو دي ملكاً عادلاً ولم يعاقبه جزاء تراجعه، إنما رقاه ليكون جنرال الفتوحات الكبير مكافأة لانتصار فتوحاته هذه إلى الشمال.

في حقيقة الأمر، لم يرضَ هنغ وان بنتيجة هذه الفتوحات. قام بالفتوحات إلى الشمال مرتين بعد ذلك لكن كلتاهما باءت بالفشل. على الرغم من سلسلة من الفشل، تولى السلطة العسكرية خلال الفتوحات لمدة طويلة. ناتجاً عن ذلك، بدأت مطامعه تتعاظم. سبق أن يقول لنفسه: لا بدّ أن يسجل سمعته في التاريخ، سواء أكانت حسنة أم فظيعة!

استعجل هنغ ونفي رفع سلطته حتى صار يطمع بالعرش. قدم أحد تابعيه له حيلة أن يسقط الملك الحالي ثم ينصّب ملكاً جديداً كما فعل ((هوه قوانغ)) في أسرة هان الغربية. تأثر هنغ ون بهذه الحيلة كثيراً. لقد توفي الملك جين مو دي وقتها وكان الملك هو الملك ((جين في دي)) – ((سي ما يي)). قاد هنغ ون جيشه إلى مدينة ((جيان كانغ)) حيث خلع سي ما يي عن عرشه ونصّب سي مايو ملكاً يسمى بالملك ((جين جيا نون دي)).

عين هنغ ون كبير الوزراء يحرس مدينة ((قو تشي)) (المعروفة اليوم بمدينة دانغ تو بمقاطعة آن هوي) ليتحكم في أمور البلاط عن بعد.

فارق الملك جين جيان ون دي الدنيا بسبب المرض بعد اعتلاء العرش لسنتين فقط. أوصى بأن يولي ابنه ((سي ما ياو)) عرشه والذي يعرف بالملك ((جين شياو وو دي)). لم يخطر ببال هنغ ون أن الملك جيا ون لم يتنازل عن العرش له بل نقله لابنه. اجتاحته الحفيظة فقاد جيشه إلى مدينة جيان كانغ. اضطرب الوزراء في البلاط واحتاروا. انتشرت في المدينة شائعات أن هنغ ون يبتغي قتل ((شيه آن)) و((وانغ تان تشي)) وهما من عائلات المثقفين المشهورة لاغتصاب العرش. بعد وصول هنغ ون، زاره شيه آن ووانغ تان تشي في منزله.

اكتشف وانغ تان تشي الكمائن وراء الحوائط والأسلحة في أيديهم. تصبب بالعرق البارد تخوفاً بينما امتلك شيه آن رابطة جأشه. جلس بهوادة قائلاً لهنغ ون: سمعت أن الأمراء الحكام المستقيمين يرتبون جيوشهم في الحدود للدرء عن غزوات الأعداء من الخارج، فلم تكمن جنود حضرتكم وراء الجدار؟

قال هنغ ون مبتسماً: أنا مرغم على ذلك. ثم أومأ إلى الجنود كي ينصرفوا.

إن هدوء شيه آن اكتسب إعجاب هنغ ون، الأمر الذي جعله ترك خطته. سحب جيشه وبقي في منصبه ككبير الوزراء. توفي بعد فترة قصيرة. عين الملك جين شياو وو دي شيه آن ليكون كبير الوزراء و((هنغ تشونغ)) ليكون مشرف مدينة جينغ تشو. كلاهما مستقيم السلوك وكبير القلب. تضافر الجهد لإنقاذ مملكة جين الشرقية من المخاطر إلى الأمن والاستقرار حتى سادها الرخاء والازدهار.

# 98

## يتحدث ((وانغ منغ)) عن أوضاع البلاد

خلال فترة وي جين التي شهدت تعاقب الأسر وضوضاء السهول الوسطى، بدأ موضع جديد من ملامح الحياة يتشكل.

ألا وهو «أساليب وي جين».

كان نفر من الناس الذين تحرروا من قيود التقاليد الكونفوشيوسية للانضمام إلى مذهب ((لو تسي)) و((تشوانغ تشي)). تحدثوا عن الغيبة وشربوا الخمر وتناولوا مسحوق ((وو شي))[2]. تصرفوا بطباعهم الأصدق والأهوس. لخص السيد ((لو شيون)) في مقالته المشهورة بعنوان «علاقة أساليب وي جين والمقالات بالدواء والخمر» أساليب وي جين بوصفه أنها بمثابة الدواء والخمر والملامح والمعنويات.

مما فيها الحكماء السبعة وهو أجدر بالتذوق.

منهم ((روان جيه)) الذي حاول مجابهة الظلم بالتفاخر. تعمد أن يتصرف بشكل متهور ومنحرف. ارتضى بمنصبه المتدني كرئيس فرقة الجنود الصغيرة مجرداً للإشراف في الشراب؛ وسبق له أن ثمل لمدة ستين يوماً رافضاً طلب القران من قبل ((سي ما شي)) الرجل ذو الشأن في البلاط؛ حتى حدث أن مات في البكاء حداداً على الرحيل المبكر لبنت جارة لا يعرفها بتاتاً.

منهم ((جي كانغ)) الذي وسمات وجهه بديعة وقامته مهيبة. كان صديقه ((شان تاو)) يمتدحه ويشبهه بالصنوبر الانعزالي والجبل اليشمي. لم يبال قط بجزئيات الحياة. كان يتصرف كما يشاء متحرراً من التقاليد الكونفوشيوسية أكبر التحرر، كما يندمج مع الطبيعة أعمق الاندماج. انتقد وعاب

بنبرة قاطعة تلك الشخصيات التي تلاقي العبادة الأكبر من المدرسة الكونفوشيوسية ابتداء من ((الملك شانغ تانغ وانغ)) والملك ((تشو وانغ)) إلى ((تشو قونغ دان)) وكونفوشيوس.

أغاظ كلامه اللافح من عاصره من الناس حتى عرّضه للقتل. في ساحة الإعدام بشرقي مدينة لوه يانغ لقي منونه بالهدوء، إثر فروغه من عزف لحنه الأخير «قوانغ لينغ سان».

منهم أيضاً ((ليو لينغ)) الذي كان ينغمس في الخمر. كلما خرج على العربة المجرورة بالأيل، أخذ معه غلاماً حاملاً المعول وأوصاه قائلاً: ادفني فور موتي!

كان وانغ منغ من أصحاب أساليب وي جين، وهو آخرهم.

تميّز وانغ منغ بسعة الصدر والغرور. من الصعب على الكثير تجاوز إنجازاته، ومن الأصعب الاحتذاء بتمرده. فلنلقِ لمحة عن قصة وانغ منغ فيما يلي.

ولد وانغ منغ في منطقة ((بي هاي)) في أسرة فقيرة. إنه مولع بالقراءة رغم فقر أسرته. كان لا يعبأ بالصغائر ولديه مثل رفيعة. استخف به كثير من الناس بسبب منشأه الحقير، واستخف بهم أيضاً وهو يعيش زاهداً عن الحياة على جبل هواه يين.

كان معجباً بروح هنغ ون فزاره في معسكره عندما قام بالفتوحات.

إن هنغ ون رجل لا يجود العصر بأمثاله، إنما حظي وانغ منغ ببالغ تقديره. شرح وانغ منغ أوضاع البلاد بذلك وضوح في حديثه وأدلى بآرائه الفريدة. لذلك احترمه هنغ ون كثيراً. أثناء تجاذب وانغ منغ أطراف حديثه مع الحضور، فإذا به غرز يده إلى ياقة لباسه. لم تمر إلا برهة حتى أخرج منها قملة فسحقها وقتلها. لم يتمالك تابعو هنغ ون أنفسهم عن الضحك، بينما أغفلهم وانع مانغ واستمر في حديثه.

ربما لم يكن وانغ منغ مقيداً في أي وقت من الأوقات. تعالى عن أي رجل ذي نسب وسلطة بصلفه وغروره. حدث أن سأله هنغ ون لماذا لم ينل التأييد من الوجهاء المحليين وهو يقود جيشاً لإقلاع الأعداء من الخارج تحت أمر الملك. ابتسم وانغ منغ ثم أجاب قائلاً: قطعت ألوف الليات[3] واقتحمت عمق أرض الأعداء. الآن تكون مدينة تشانغ آن في متناول يدك لكنك تتوقف وتبقى عند ((با شوي)). يتشكك هؤلاء الوجهاء المحليون بنيتك فمن الطبيعي ألا يريدوا مقابلتك.

وترك كلامه هنغ ون في وجومه.

في حقيقة الأمر، كانت بواعث فتوحات هنغ ون إلى الشمال مشوبة بنيته الشخصية ألا وهي إقامة مهابته في مملكة جين الشرقية. أمر جيشه بالمرابطة عند با شانغ دون أن يستعجل في السيطرة على مدينة تشانغ آن لأنه كان يود الحفاظ على قوته. وجد وانغ منغ كفئاً نادراً فدعاه إلى مشاركته لكنه رفض إذ لم يرد أن يتورط في اضطراب بلاط مملكة جين الشرقية والمكيدات القاسية فيه.

رجع إلى زهده في جبل ((هواه يين)) من جديد. لكن كفاءته التي ظهرت في حديثه قد أكسبته تقديراً هائلاً من أبناء جيله.

فيا ترى متى سوف يخرج لتحقيق إنجازاته الجبارة؟

أخيراً سنحت الفرصة. بعد وفاة فو جيان حاكم مملكة تشين السابق تولى ((فو شنغ)) عرشه. لكنه كان بغاية الفظاظة والقسوة فلم يمر على توليه العرش إلا فترة قصيرة حتى أسقطه ابن عمه قو جيان. ظلّ في البحث عن الأكفاء ليساعدوه في حلم المملكة حين تلقى ترشيح وانغ منغ. عندما قابله، شعر كأنه قابل صديقه القديم. قال فو جيان مغتبطاً: إن وانغ منغ له المستشار الحكيم ((تشانغ ليانغ)). ادعى فو جيان بأنه الملك السماوي لمملكة تشين الكبرى بعد اعتلاء عرشه، وأصبح وانغ منغ أقرب مسؤول منه ارتقى بمنصبه خمس مرات خلال أقل من سنة. إن حاله نادر الحدوث في التاريخ.

عندما فاز بالإعجاب غير المسبوق به من فو جيان كان عمره ستة وثلاثين فقط وهو من قومية هان، الأمر الذي أثار حسوداً وغضباً بين المسؤولين القدامى من قومية دي لمملكة تشين السابقة. ذات مرة شتمه ((فان شي)) المسؤول من قومية دي قائلاً: نزرع الحقول وتأكل الثمار. يا لك من قليل الحياء! إنما أجاب هذا الكلام بالاحتقار والاستفزاز قائلاً: لا تزرعون لي الحقول وحسب، بل تعدون لي الطعام!

احترق غضب فان شي فقال مهدداً: بحياتي سوف أقطع رأسك وأعلقه على جدران مدينة تشانغ آن!

تصادفا الاثنان من جديد بعد بضعة أيام. قبض فو شي على وانغ منغ يكاد يضربه في وجه فو جيان. تلظى فو جيان بالحنق فأمر بحكم فان شي بالإعدام. إن أحداً لم يتجاسر على تشهير وانغ منغ أمام فو جيان.

فمن الشكل الطبيعي أن يساعد فو جيان على إدارة وحكم المملكة بما أنه كان ينحاز له إلى هذه الدرجة. وقتما كان يتبوأ منصب «جينغ تشاو يين»[4] كان عادلاً ومستقيماً يساوي جميع مرتكبي الجرائم مهما كانوا. اندهش مسؤولو المملكة غاية الاندهاش ولم يعودوا يجرؤون على العبث والفساد.

أكد فو جيان بتأثر عميق على أهمية القانون للبلاد. هكذا بفضل جهود فو جيان ووانغ منغ المشتركة تعاظمت قوة مملكة تشين السابقة يوماً بعد آخر. أبادت ممالك ((يان السابقة)) و((داي)) و((ليانغ السابقة)) فوحدت حوض النهر الأصفر. لكن لسوء الطالع أُصيب وانغ منغ بمرض شديد عام 375 الميلادي. حذّر فو جيان على فراش الموت من قوميات شيان بي و((تشانغ)) بكونهما أخطر عدوين لمملكة تشين السابقة. كما نبهه بعدم الهجوم على مملكة جين الشرقية في كل حال من الأحوال.

فهل فعل فو جيان بما أوصاه به وانغ منغ؟

# 99
# إصرار فو جيان على رأيه

ربما لم يتوقع وانغ منغ قط أن فو جيان الذي كان قد قبل كل نصائحه لم يتبع كلماته الأخيرة، مما أدى إلى انهدام مملكة تشين السابقة دفعة واحدة.

فكلّف فو جيان على ((فو بي)) و((مو رونغ تشوي)) و((ياو تشانغ)) بقيادة جيش يضم مائة ألف جندي للهجوم على مملكة جين الشرقية بعد ثلاث سنوات من وفاة وانغ منغ. علّق عليهما فو جيان ثقة بالغة بينما كانا يتآمران على استيلاء السلطة في حفاناهما بصرف النظر عن خضوعهما في الظاهر. فمو رونغ تشوي أرستقراطي من قومية شيان بي وياو تشانغ أرستقراطي من قومية تشانغ.

قابل جيش تشين السابق في مدينة ((شيانغ يانغ)) مقاومة شديدة من قبل الحراس بقيادة ((تشو شوي)) جنرال لمملكة جين الشرقية. فلم يحتل المدينة.

أما تشو شوي فأرسله فو بي أسيراً إلى مدينة تشانغ آن حيث صفح فو جيان عنه وجعله مسؤولاً في بلاطه. تقبل كل ذلك بصمت وكتم خطته السرية في قلبه. بعث فو جيان جيشاً للهجوم على مدينة هواي نان بعد أخذ السيطرة على مدينة شيانغ يانغ ولكن هزمه ((شيه شي)) و((شيه شيوان)) قائدا المدينة. كيف يرتضي فو جيان بذلك؟

وطّد عزمه لشنّ الهجوم العام الواسع على مملكة جين الشرقية. قال للمسؤولين بلهجة طموحة: لقد اعتلى عرشه لحوالى ثلاثين عاماً حيث قمعت القوات إلا مملكة جين الشرقية في جنوب شرقي السهول الوسطى. فحزمت على الهجوم عليها بكل ما تمتلك من القوات فما رأيكم؟

اقترحوه المسؤولون على عدم فعل ذلك.

قال ((تشون يو)): يتضامن جميع أبناء شعب مملكة جين من الأمير إلى الغفير رغم ضعفها. يعمل شيه آن و((هوان تشونغ)) وغيرهما من المسؤولين المدنيين والعسكريين كرجل واحد، ولا عيب لملكهم. فقد لا يفيدنا الهجوم على جين. كما قال ((شي يوه)) قائد فريق حرس الأمير الأيسر إن موقعي المشتري وزحل على خارطة النجوم ينذران بالحظ والنعمة لصالح مملكة جين، فإذا نغزوها تعاقبنا السماء. علاوة على ذلك، فإن مشاعر شعبها لمقاومة العدوان على ذروتها. كما يشكل نهر يانغتسي مجناً طبيعياً لها. كل ذلك قد يفضي إلى فشلنا.

أغضب كلامهما فو جيان بعض الشيء. قال بنبرة بطولية: إن أسرار السماء خفية ومن الصعب أن نعرفها. عندما شنّ الملك تشو وو الهجوم على الملك شانغ تشو الطاغي، لم يهمل نتيجة التنجيم بتاتاً. ولِمَ نخاف نهر يانغتسي؟ ألم ينتهز الملك ((فو تشاي)) والملك ((سن هاو)) وتفنى مملكة وو على الرغم من حماية نهر يانغتسي؟ إن حجم قواتنا عظيمة إلى درجة أنه إذا يرمي كل جندي سوطه إلى نهر يانغتسي فسوف ينسد.

طال نقاش المسؤولين حول الهجوم على جين وانتهى برفض هذه الفكرة. زعل فو جيان فطرد جميع المسؤولين. لكن أخاه الصغير ((فو رونغ)) بقي في مكانه، الأمر الذي سرّ فو جيان ظناً منه بأن أخاه يؤيده. أسرع بشدّ أخيه إلى جانبه وقال له: لا يقدر على حسم شؤون الدولة إلا شخص واحد أو شخصين وذلك منذ القدم. فلنتخذ القرار الكبير.

ولكن قال فو رونغ مثقلاً بالهوم: لم تؤت فرصة مواتية للهجوم على جين. لقد شهدنا سنوات من الحروب وقد أصبح الجنود منهكي القوة غير راغبين في القتال. فكل من عارضوا جلالتكم اليوم أخلصوا لكم. فأرجوا منكم التأمل والتفكر وعدم التصرف بانفعال.

ارتسمت على وجه فو جيان علامات الغم وهو يقول: نمتلك الآن الملايين من الجنود والجبال من الأقوات فسننتصر دون أدنى جهد. ثابر فو رونغ على نصحه قائلاً: من المرجح أن تتمرد قوميات شيان بي وتشانغ و((جيه)) في العاصمة إذا نهاجم مملكة جين الآن. كيف نسمع مقترحات هذه القوميات وهي أعداؤنا؟ أسوأ من ذلك فمعظم القادة في جيشنا أبناء العائلات الغنية الذين لا يعرفون أي شيء سوى مجاملتكم. إذا تعتمد عليكم في الحرب فذلك قد يؤدي إلى أضرار كثيرة في المستقبل، ناهيك عن إحراز الانتصار! في ذلك الوقت لا تنفعكم الندامة!

أخيراً نبّهه: أتنسى جلالتكم توصية وانغ منغ في آخر حياته؟

لكن مهما كان ينصحه لم يعبأ فو جيان به. بالعكس أثلج كلام مو رونغ تشوي صدره كثيراً. قال مو رونغ تشوي: من الحتمي أن يضم البلد الكبير أرض البلد الصغير إلى أراضيه ويبيد البلد القوي البلد الضعيف. فإن إبادة دويلة جين الصغيرة أمر بسيط بالنسبة إلى الملك الحكيم مثل جلالتكم. تمتلك جلالتكم الملايين من كتائب الجنود الجرارة، فيكفي أن تتخذوا القرار وحدكم دون تدخّل الغير.

كان كلامه هو ما أراد فو جيان أن يسمعه بالضبط. رأى مو رونغ تشوي الشخص الوحيد ليساعده في توحيد البلاد. لما تناهى الخبر أن غالبية المسؤولين يعارضون الهجوم على ((تشانغ شي)) حظية فو جيان نصحته بقبول نصائحهم بلهجة ليّنة. إنما أوقفها فو جيان قائلاً: لا دخل لك في الشؤون العسكرية. حتى حين سأله ((فو شيان)) أحب ابن إليه لِمَ لَمْ تسمع كلام فو رونغ، ردّ عليه رداً بارداً: أنت أصغر من أن تفهم الأمر.

هكذا عقد العزم على الهجوم على مملكة جين الشرقية، على نوبات من الأصوات المعارضة.

# 100

# تدبير شيه آن وتخطيطه

تطرق منشيوس في كتابه «إظهار حنان القلب كاملاً» إلى أنه في الفقر، كان الناس قديماً يحاولون تحسين ظروفهم وتهذيب ذاتهم. أما في السلطة، فكانوا يحاولون تحسين ظروف كل العالم.

إن هذا القول بسيط في الظاهر، لكن في أعين المثقفين، يحتوي على معانٍ عميقة.

أشار منشيوس في قوله إلى مسارين للحياة: الأول بمثابة الحفاظ على النّقاء الذاتي وعدم اللهث وراء الثروة والشهرة وعدم سلوك سبل الرذيلة والانحطاط والرضى بحاله القائمة عندما يكون الإنسان في الظروف المعاكسة. الثاني بمثابة توظيف كفاءته لجلب الخير لشعبه إذا أتيحت له الفرصة. انطلاقاً من قول منشيوس هذا، سلك المثقفون في قديم الزمان مسلكين متباينين للحياة: الانشغال في البلاط، والنساكة عن الحياة.

كان عدد كبير من المنشغلين في البلاط القادرين على تحسين ظروف البلاد، كما كان عدد غير صغير من النساك عن الحياة القادرين على تهذيب ذاتهم. ولكن نادر ما نرى من يستطيع وضع نفسه على أي المسلكين ببداعة. كان رجل تمتع بالحرية في زهده، وحقّق إنجازات جبارة في منصبه. كان زاهد الزهاد ومسؤول المسؤولين. إن الرجل هو شيه آن.

تحدثنا في الفصل السابق حيث قرّر فو جيان الهجوم على مملكة جين الشرقية رغم معارضة مسؤوليه. عيّن فو رونغ ومو رونغ تشوي قائدي وحدات الطليعة وياو تشانغ «جنرال رونغ شيانغ» القائد للجيوش المعسكرة في مدينتي ((يي تشو)) و((ليانغ تشو)). في أغسطس عام 383 الميلادي، قاد جيشاً يشمل حوالى ثمانمائة عسكرياً بنفسه، منطلقاً من مدينة تشانغ آن إلى جيانغ دونغ (شرقي حوض نهر يانغتسي) عن الطرق البرية والبحرية.

لما وصل هذا الخبر إلى مدينة جيان كانغ، فوجئ الملك جين شياو وو دي والمسؤولين في بلاطه غاية المفاجأة.

فلجأوا إلى شيه آن جميعاً. كان شيه آن من مواليد ((يانغ شيه)) التابعة لمحافظة ((تشان)) والمعروف اليوم بمحافظة ((تاي كانغ)) بمقاطعة ((خه نان)) في عائلة ذات حسب ونسب. لكن كان في بادئ الأمر يأبى أن يكون مسؤولاً. لذلك استنكف من طلبات البلاط لتوظيفه مرات. كان يعيش آنذاك زاهداً في الجبل الشرقي.

هل تذكر أيها القارئ العزيز لقاء أربعين من كبار المثقفين في جوسق ((لان تينغ))؟

كان شيه آن واحداً منهم. كان المثقفون يقدرونه تقديراً عالياً على أنه كان يؤثر الزهادة على الانشغال في البلاط. قالوا له مؤسفين: إذا لم تشغل منصباً في البلاط فمن يسع تجلب النعمة والسعادة للدنيا مثلك؟

لاحقاً، بعد أن استدعاه هنغ ون الذي كان «جنرال تشنغ شي»، خرج من الجبل وتولى منصب سي ما[5].

سبق لشيه آن أن رشح ابن أخيه «شيه شوان» للملك جين شياو وو دي بغضّ النظر عن الشكوك حينما تحرش فو جيان بالحدود الشرقية لمملكة جين الشرقية. عيّن الملك شيه شوان قائداً لحرس مدينة «قوانغ لينغ» (المعروفة اليوم بمدينة يانغ تشو بمقاطعة جيانغ سو). كان لشيه شوان كفاءة عسكرية نادرة. قام بالتجنيد وشراء الأسلحة والخيول على إثر وصوله إلى قوانغ لينغ حيث كوّن جيشاً غلاّباً يعرف باسم» جيش بي فو».

ماذا سوف يفعل شيه آن هذه المرة في وجه قوات فو جيان القوية؟

يمكن تخليص مبادئ شيه شوان في عمله بكلمة واحدة: الاتزان. كتب «سو شيون» المثقف الشهير في أسرة سونغ في مؤلفه بعنوان «تصفية القلب» أنه يتعين على القائد صقل إرادته حتى لا يضطرب ولو انهار جبل تاي بين يديه ولا يغمض عينيه ولو يقفز أيل مي لو بجانبه. لا يقدر على استيعاب أوضاع ساحة القتال ومواجهة العدو إلا بعد تحقيق ما ذكر سابقاً.

ها هو معنى الاتزان بالتفصيل.

عندما تلاطم جيش فو جيان إلى شيه آن، حافظ على هذا الاتزان.

في وجه العدو، قرّر شيه قيادة الجيش إلى حرس مدينة جيان كانغ بنفسه، وعيّن شيه شي أخاه الصغير وشيه شيوان ليقودا ثمانمائة ألف عسكري إلى شمال نهر يانغتسي باعتبارهما جنرال الفتح وقائد جيش الطليعة، كما أمر هو بين بقيادة خمسة آلاف عسكري بحري إلى شو يانغ مساندة لهما.

كان شيه آن هادئاً ومتزناً، بينما شعر شيه شيوان بشيء من القلق. كان جيش تشين السابق يضاعف جيش جين عشرة أضعاف على الرغم من بسالة جيش بي فو. لذا زار منزل شيه آن قبل الانطلاق خصوصاً لمعرفة كيفية مواجهة العدو. لكن لم يجبه شيه إلا بقول بسيط: لديّ خطتي.

طال انتظاره لكن دون جدوى.

لم يطمئن بعد عودته إلى جيشه. في اليوم التالي، طلب من صديقه ((تشانغ شويان)) لزيارة شيه مرة ثانية كي يحصل على نصائحه.

لكن دعاه شيه آن فور رؤيته إلى فيلا حيث كانا يلعبان الشطرنج ويتمتعان بالمناظر الجبلية. فلم يجد فرصة ليستشيره.

لما أتت الليلة استدعى شيه آن جميع القادة بمن فيهم شيه شي وشيه شيوان إلى منزله لشرح مهماته بجلاء ووضوح. إن هدوءه منح قادة جين الشرقية قوة وطيدة بأنفسهم. في ذلك الحين، وصل الجنود الثلاثة آلاف الذين اختارهم هوان تشونغ في مدينة ((جينغ تشو)) لمساعدة شيه آن بعد أن عرف أوضاع جيان كانغ الخطيرة. لكن قال شيه آن لهم: من المستحسن أن تعودوا إلى جينغ تشو. لقد رتبت كل الأمور على أحسن وجه هنا. عندما عرف هوان ون ذلك قال قلقاً: إن اتزان السيد شيه جدير بالتقدير، لكنه يجهل قواعد القيادة والحرب. العدو الآن على الأبواب، لكنه ما زال خالياً من الهموم ويعين قادة عديمي الخبرة.

كانت علامات الغم والهم بادية على وجه هوان تشونغ، في حين أوشكت أن تظهر أزمة خطيرة في تاريخ جين الشرقية على شيه آن. هل انتصر. أكان قلق هوان حقيقياً أم لا؟

هكذا دقّت طبول الحرب التي غيّرت مسيرة السهول الوسطى بين مملكة جين الشرقية ومملكة تشين السابقة في نهر ((في شوي)).

# 101

# معركة نهر في شوي

ضحك فو جيان بمرارة. لقد انهزم هو! لقد انهزم جيشه الذي ضمّ الملايين من العسكريين انهزاماً تاماً!

كان يتألم في كتفه الذي أُصيب بسهم قصير وتسرب الدم منه قطرة قطرة حتى صبغ درعه باللون الأحمر. لكنه لم يجرؤ على التوقف عن الفرار لمعالجة جراحه قليلاً. خيل إليه أن أمواجاً من الصياح تأتي من بعيد. أهو أصوات جنود جين الشرقية؟ أم خشخشة أوراق الأشجار التي تحركها الريح العليلة؟ أم تغريد الكراكي؟ لم يعد يتسع الوقت له لتمييز هذه الأصوات. كان الشيء الوحيد له هو الفرار، الفرار بعيداً عن أرض الحسرة هذه.

لم يمر على ذلك إلا وقت قصير حتى وصل خبر الانتصار إلى شيه آن الذي كان يلعب الشطرنج مع ضيفه في مدينة جيان كانغ. أخذ إعلان الانتصار من الحاشية وألقى إليه لمحة سريعة، ثم وضعها جانباً فاستمر في اللعب كالمعتاد، بينما لم يعد الضيف يملك نفسه، توقف عن لعب الشطرنج وسأله: ما نتيجة المعركة؟

تلفظ شيه آن على مهل: النتيجة أن شبابنا هزموا الغزاة.

لما سمع الضيف هذا الكلام لم يعد يرغب في لعب الشطرنج. استأذن شيه آن على عجل لإبلاغ هذا الخبر السار لأصدقائه. بعد وداع الضيف، حتى شيه آن الهادئ القلب لم يقدر على كبح سروره العارم. مشى مهرولاً إلى غرفته على غفلة من وجود العتبة تحت قدميه، صدم قبقابه العتبة انكسرت أسنان القبقاب.

لم يخطر ببال الكثير أن فو جيان ملك مملكة تشين السابقة القوية تعرض للهزيمة النكراء في حربه على مملكة جين الشرقية الضعيفة. فلنلقِ نظرة على مسيرة التاريخ لنجد ماذا حدث في تلك المعركة.

كان ((هو بين)) يعمد إلى مدينة ((شو يانغ)). في منتصف الطريق، وصل إليه الخبر أن فو رونغ كان قد احتل مدينة شو يانغ، فرجع إلى مدينة ((شيا شي)) المعروفة اليوم بمدينة ((فانغ تاي)) بمقاطعة ((آن هوي)) لكي يجتمع مع جيوش شيه شي وشيه شيوان. أرسل فو رونغ بعد احتلال شو يانغ لينغ تشانغ لقطع طريق تراجع الجيش البحري بقيادة هو بين. على هذا النحو تناقصت أقوات للجيش في مدينة شيا شي في الانحصار يوماً بعد يوم حتى اشتد الوضع عليه. اضطر هو بين إلى إرسال رسالة لشيه شي طلباً للمساعدة. كتب في رسالته أن أقوات جيشه على وشك الانتهاء، وإذا كان الأمر استمر كذلك فمن الصعب أن يصمد إلى يوم التجمع مع الجيوش الأخرى. اختطف جيش تشين السابقة جندياً حاملاً الرسالة. أعلم فو رونغ ظروف هو بين فو جيان الذي كان يعسكر في مدينة شيانغ بعد معرفة مضمون الرسالة.

أسكرته فو جيان نشوة النصر.

أبقى جيشه في مدينة ((شيانغ تشنغ)) وقاد ثمانية آلاف فارس خفيف الدرع إلى شو يانغ. بعد التشاور مع فو رونغ، قرّر إرسال مبعوث إلى مخيمات جيش جين لإقناعه بالاستسلام. إن المبعوث تشان هو جو شويي. سرّ جو شوي بقرار فو جيان في الخفية. حالما رأى شيه شي وشيه شيوان قال لهما أحوال جين بكل تفصيل ودقة، ثم انصرف.

توصل شيه شي وشيه شيوان بعد النقاش إلى قرار تكليف ((ليو لاو تشي)) الجنرال الشهير بقيادة خمسة آلاف جند منتخب من جيش بي فو لمباغتة جيش جين المرابط في وادي لوه. كان هذا الفريق من جنود بي فو مقداماً في ساحة القتال مثلما تناقلت الأخبار. سرعان ما انتصر جيش جين، مما رفع معنويات جيش جين بشكل كبير. بعد ذلك قاد شيه شي وشيه شيوان جيشهما الكبير قدماً منتهزين الانتصار السابق حتى وصلا الشط العربي لنهر في وخيم الجيش عند سفح جبل با قونغ شان ليواجه جيش جين الذي كان معسكراً في الشط المقابل.

انتظر أن يستسلم جيش جين ليجد أن وادي ((لوه جيان)) سقط، الأمر الذي أزعجه بعض الشيء.

صعد فو رونغ وفو جيان إلى برج المراقبة على أسوار المدينة ليجيلا النظر إلى الشاطئ المقابل، فرآ أن جيش جين منظم ومخيماته مرتبة. استمر فو جيان في المراقبة والرياح الخفيفة تمر به. وجد أن النباتات كثيفة مثل الأشباح المتحركة على جبل ((با قونغ شان)) وخيل إليه أن على الجبل توارى جنود جين المجهول عددهم. ركبه الهول فجأة. قال لفو رونغ: إن هذا عدونا القوي! ليس عدده قليلاً على الإطلاق! سرعان ما أمر فو جيان جيشه بتوطيد الدفاع بعد فروغه من قوله. في حقيقة الأمر، لم يكن جيش جين على جبل با قونغ شان ولا جندياً واحداً. كان فو جيان متوجساً إلى درجة أنه كان قد جعل النباتات المتحركة في النسيم جنود جيش جين.

انتشر جيش تشين السابقة على جانب نهر في شوي استعداداً للمعركة، مما حال جيش جين الشرقية عبور النهر. هلع شيه شي وشيه شيوان على العلم بأنه إذا تماطلا هكذا، فسيكون الوضع خطيراً عليهما بعد تجمع جميع الفروع من جيش تشين. أوجد شيوان حلاً بعد قليل. أرسل مبعوثاً حاملاً رسالته إلى فو رونغ أمير ((بينغ يشانغ)) والتي فيها كتب: قُد جيشك إلى العمق وانشره على شاطئ نهر في شوي. ذلك يعني أنك تشاء حرباً طويلة الأمد وليس معركة خاطفة. لِمَ لا تأمر جيشك بالتراجع قليلاً حتى يعبر جيشنا النهر فنشن معركة خاطفة حاسمة؟ أهذا أفضل؟

رفض جميع قادة جيش تشين السابقة هذا التحري، بينما وافق عليه فو جيان قائلاً: نتراجع أولاً، وعندما يعبرون أقلع قدمه نسف النهر نهاجمهم بفرساننا. سننتصر بالتأكيد. فبدأ قادة جيش تشين السابقة بالتراجع. لم يتوقعوا أبداً أن توطيد الدفاع سيسفر عن انهزامهم.

حان موعد عبور جيش جين الشرقية للنهر. أملى فو جيان أمره فراح فو رونغ يقود جيش تشين السابقة للتراجع. كانا قد اعتزما التراجع قليلاً ثم العودة إلى المعركة، لكن لم يخطر على بالهما أن جنود جيشهما أطلقوا سيقانهم للريح فور سماع أمر فو لكراهيتهم على الحرب وخوفهم من جيش جين. حاول فو جيان استرجاعهم سدى.

في حين قاد شيه شيوان ثمانية ألف فارس. عبروا النهر سريعاً هاجمين على جيش تيشن. في الوقت نفسه صاح بين جيش تشين بغتة: خسرنا! خسر نواح الرياح نا! لم يعرف الجنود في المؤخرة

ماذا حدث في مقدمة الجيش، بل رأوا جيشهم ينسحب باطراد. بدا كأن جيشهم انهزم حقاً، فبدأوا هم أيضاً بالفرار خوفاً.

كان انسحاب الجيش مثل انهيار الجبل، فلم يقدر أحد على إيقافه.

لوّح فو رونغ بسيفه بلهفة بنيّة منع جيشه من الانسحاب بلا جدوى. كان الجيش في هروبه مثل أمواج البحر حتى سقط فو رونغ في وسطه على غفلة. بذل جهده ليقف من جديد، في حين أدركه جندي جين وقتله بسيفه ضربة واحدة. أسرع جنود جين في الفرار بعد رؤية موت قائدهم الرئيس.

أما فو جيان فقفز على خيل سريع للهروب بعد تقدير وضع المعركة. فإذا بسهم أصابه في كتفه. استمر في الهروب دون مراعاة الألم حتى وصل منطقة هواي بي. هكذا طارد جيش جين عدوهم على أجنحة النصر. سحق جيش تشين وأثناء فرار جنوده سقط من سقط، ديس من ديس، ومات من مات. لما سمع الهاربون خشخشة الأوراق في النسيم وصياح الكراكي جعلوها صراخ جنود يطاردونهم فلم يقدم على البقاء.

وهناك مثل صيني نبع من المعركة: أصوات الرياح وصياح الكراكي.

خسر فو جيان وجيشه العظيم عند نهر في شوي. أضعفت معركة نهر في شوي قوة مملكة تشين السابقة التي كانت على أوج القوة والازدهار إضعافاً شديداً، حتى تجزأت إلى عدة دويلات، أقواها مملكة يان اللاحقة ومملكة تشين اللاحقة اللتين أسسهما مو رونغ تشوي وياو تشانغ على التوالي. سبق لكلاهما أن حثّ فو جيان على الهجوم على مملكة جين الشرقية. أما فو جيان فانتحر في حصار جيش ياو تشانغ عليه. هكذا حصد الشوك الذي زرعه بنفسه.

# 102

## ((ليو يوي)) و«تشكيله تشيوه يوه» القتالي

عادت السهول الوسطى إلى الفوضى والاضطراب تزامناً مع تجزؤ مملكة تشين السابقة. في الوقت نفسه، أخذت المملكة جين الشرقية التي نجت من الأزمة، تخطو إلى نهايتها خطوة بعد أخرى.

كان شيه آن يريد أن يستغل نصر معركة نهر في شوي لاستعادة الأراضي المحتلة الواسعة في حوض النهر الأصفر. لكن الملك جين شياو وو دي تشكك فيه وأقصاه، الأمر الذي قيّد كفاءته. بعد وفاة شيه آن تسلم ((سي ما داو تسي)) الغبي والفاسق السلطة. أصبح البلاط أشدّ فساداً ناتجاً عن ذلك.

أخذ قصاص في عام 399 الميلادي خلال حكم ملك ((جين آن دي)) اندلعت ثورة ((سون أن)) التي أُخمدت بعد عامين. لكن وقعت المملكة في بلبلة من جديد في أثنائها خلع هوان شيوان ابن هوان ون العرش عن الملك جين آن دي ونصّب نفسه ملكاً. لم تمر عليه إلا بضعة شهور حتى هزمه ليو يوي قائد جيش بي فو فرحّب بالملك جين آن دي ليعود إلى عرشه.

أصبحت مملكة جين الشرقية أثراً بعد ذلك.

فبعد عودة الملك جين آن دي إلى عرشه أمسك ليو يو بزمام السلطة. آنذاك ليست مكانة عالية عائلات المثقفين الكبرى بسبب منشأه الحقير. فقرّر القيام بالفتوحات إلى الشمال لرفع مكانته في البلاط من ناحية وتوسيع دائرة نفوذه من ناحية أخرى. ففي عام 409 انطلق جيش ليو يو من جيا كانغ لحصار مدينة ((قوانغ قو)) التي تقع في شمال غربي مدينة ((يي دو)) بمقاطعة ((شان دونغ)) اليوم وهي عاصمة مملكة يان الجنوبية – مملكة من الممالك الست عشرة. التمست النجدة من مملكة تشين اللاحقة التي أرسل ملكها ((ياو شينغ)) مبعوثاً إلى ليو يو يهدده قائلاً: إن مملكة يان جارنا

الصديق. يعسكر عشرة آلاف عسكرياً في مدينة ((لوه يانغ)) الآن. إذا أصررت على الهجوم على اوه يانغ فلن نقف على الجانب مكتوفي الأيدي.

ردّ ليو يو عليه بابتسامة باردة قائلاً: عُدْ وقُل لياو سينغ، كنت أودّ أن أستريح وأُعيد تنظيم الجيش لعدة سنوات بعد إبادة مملكة يان، ثم أُبيدكم. إذا فضّلتم التبادر إلى الهلاك، فتفضّلوا.

خشي أتباع ليو يو أن يُغضب قوله مملكة تشين اللاحقة، فسألوه على أثر انصراف المبعوث ماذا يفعلون في حال الهجوم.

قال ليو يو بثقة: ما ذلك إلا التظاهر بالقوة ولا غير. إذا كان بودهم الهجوم علينا فلِمَ نبهونا مسبقاً؟ أراهم عاجزين عن إنقاذ أنفسهم، فكيف ينقذون غيرهم؟

أبادت مملكة تشين اللاحقة دويلة في الوقت اللاحق كما توقع ليو يو. أما هو فأباد مملكة يان الجنوبية.

بعد سنوات عدة قام ليو يو بالفتوحات إلى الشمال مرة ثانية. كانت مملكة وي الشمالية التي أسستها قومية شيان بي في الشمال قد أصبحت قوية وبلغ نفوذها إلى الشاطئ الشمالي للنهر الأصفر. كان جيش ليو يو البحري يتقدم بمحاذاة النهر الأصفر. في حال عصفت الرياح وهدرت المياه انساقت سفن جيش ليو يو إلى الشاطئ الشمالي حيث انقضّ عليها جنود وي. أما في حال أرسل ليو يو جيشاً إلى الشاطئ الشمالي للهجوم عليهم فتراجعوا. لما عاد جيش ليو يو إلى السفن، أعادوا تحرشه، مما أبطأ سرعة تقدم جيش ليو يو بشكل كبير. أخيراً أوجد ليو يو حيلة.

في أبريل من موسم الصيف، أمر ليو يو ((دينغ هو)) بقيادة سبعمائة حارس ومائة عربة لصعود الشاطئ الشمالي ثم تكوين قوات تشكيل تشوه يوه القتالية، بعيداً عن الشاطئ الشمالي بحوالى مائة خطوة. التشكيل «تشوه يوه»، أو «مثل الهلال»، كان طرفاه يلازمان الشاطئين ووسطه يبرز كأنه هلال. كان على كل عربة سبعة جنود، وأقيمت راية بريش أبيض على العربة في متوسط التشكيل كلما تمّ تنظيم عربة. راقب وي بجنون كل ذلك عن بعد بدون دراية له. لم يجرؤوا على التصرف البطيء.

بعد وقت يسير رأوا جندياً يرفع الراية بالريش على العربة في متوسط التشكيل وكثيراً من الجنود الحاملين الأقواس الكبيرة يظهرون من كنفيها. لم يأخذ جيش وي ذلك على محمل الجدّ. تجمع ثلاثين ألف فارس وانقضوا على الشاطئ بشكل عنيف. أطلقت السهام من العربات المائة في التشكيل ولكنها لم توقف هجوم الفرسان. اغتبط جنود وي بذلك في سرّهم، لكنهم لم يتوقعوا تواجد ألف رمح في خلف التشكيل. كانت الرماح تركب على الأقواس الكبيرة، وطولها حوالى ثلاثة أو أربعة تشيات[6]. كان حدّ الرمح مرهفاً إلى درجة أنه يمكن له خرق ثلاثة أو أربعة جنود لجيش وي في آنٍ واحد. لما أطلقت الرماح، قتل الآلاف من جنود وي بين غمضة عين وأخرى. كان جنود وي الآخرون على دراية بوجود هذا النوع من السلاح فلم يعودوا يجرؤون على التقدم، بل هربوا مثل الفئران. استغل جيش وي النصر ليطاردهم فألحق بهم الخسارة الذريعة.

صدّ ليو يو جيش وي وشقّ الطريق لتقدم الجيش إلى الغرب بمحاذاة النهر الأصفر. ثم تقدم جيشه إلى الغرب بلا أي عائق وأباد مملكة تشين اللاحقة سريعاً. مضت سنوات أخرى حتى توفي الملك جين آن دي. اعتقد ليو يو أن وقته قد حان، فأرسل مبعوثاً لإقناع الملك الجديد الملك ((جين قونغ دي)) بالتنازل عن العرش لليو يو. في عام 420 الميلادي نصّب ليو يو نفسه ملكاً وغيّر تسمية المملكة إلى مملكة ((سونغ)). يُعرف ليو يو بالملك ((سونغ وو دي)). أما مملكة جين الشرقية فقد حان أجلها بعد أن دامت 104 سنة.

## 103
## صدّ ((تان دو جي)) جيش وي بالحيلة

كما نعرف، جنّد الإمبراطور ((تشين شي هونغ)) مئات الآلاف من العمال لتشييد سور الصين العظيم لمقاومة عدوان شيونغنو.

لكن إذا تأملنا بجدّ، وجدنا في الواقع أن السور بطوله عشرة آلاف لي[7] أقلّ نفعاً بكثير من العسكريين الحارسين في الحدود. سبق للي ((ليو بانغ)) الإمبراطور ((هان قاو تسو)) أن أنشد أغنية: أين سأجد رجالي الشجعاء، لحرس كل بلادي جمعاء! في عين ليو بانغ إن الرجال هم السور الحقيقي العظيم للدفاع عن الوطن.

لكن للأسف الشديد، لا يخلو التاريخ من التشاكي بين الأملاك وكبار القيادات من أجل السلطة. حينما أسقطت القيادات الجبارة إنجازات أملاكهم، وحينما قتل الطغاة قاداتهم. في هذه الانقلابات وذبح الكثير من الأبرياء وسفك دمائهم حتى فقد بعضهم حياتهم، كان بطل قصتنا التالية – تان داو جي، واحداً منهم.

بعد إبادة مملكة جين الشرقية، دخلت الصين عهد الأسر الملكية الجنوبية والشمالية.

شملت الأسر الجنوبية أربعة أُسر، أُسر ((سونغ)) و((تشي)) و((ليانغ)) و((تشان)) على الترتيب. أما في الأُسر الشمالية فانقسمت مملكة ((وي الشمالية)) إلى مملكة ((وي الغربية)) ومملكة ((وي الشرقية)). ثم بعد إبادتهما تعاقبت مملكة ((تشي الشمالية)) ومملكة ((تشو الشمالي)).

إن ذلك عبارة عن جزر ومدّ للتاريخ.

توفي الملك سونغ وو دي بعد اعتلاء العرش بعامين فقط، وتولى ابنه العرش ويعرف بالملك ((سونغ ون دي)). بعد ذلك شنّت مملكة وي الشمالية هجوماً واسعاً على إمبراطورية سونغ واحتلت

رقاعاً كثيرة من أراض جنوب النهر الأصفر. أمر الملك سونغ ون دي بقيادة جيش كبير بصدّ جيش وي.

قاد تان دو جي جيشه إلى نهر ((جي شوي)). ثم اشتبك جيشه بثلاثين معركة تقريباً مع جيش وي خلال عشرين يوماً وانتصر في كلٍّ منها. طارد عدوه حتى مدينة ((لي تشنغ)). إن سلسلة الانتصارات جعلت تان داو جي متعجرفاً بعض الشيء حتى استرخى في الحذر. اغتنم جيش وي الفرصة لمباغتة فريقين من الفرسان. أحرق أقوات جيش وي وأسلحته، الأمر الذي أرغم تان داو جي على الانسحاب. في ذلك الوقت فرّ جندي من جيش سونغ إلى مخيمات جيش وي للاستسلام وأعلم جيش وي بحال جيش سونغ. علم بافتقار جيش سونغ إلى الأقوات، قاد قائد وي جيشه لمطاردة تان داو جي قاصداً حصاره. خاف عسكريو جيش يونغ من ذلك، وهرب عدد غير قليل منهم.

فكيف يتعامل تان داو جي مع هذه الحال؟

أمر بأناة ورفق جيشه بالتخييم في الموقع للراحة. لما أقبل الليل بهرت قناديل مخيمات جيش سونغ حيث قاد تان داو جي فريقاً من الجنود لمراجعة مقدار الأقوات. بنظرة عن بعد ظهر أن بعض الجنود يأخذون أعواد خيزرانية للتسجيل، والبعض الآخر يحملون دوات المكيال[8] لقياس الأرز. لما اختلس مراقب جيش وي النظر إلى المخيمات أبصر أكياساً لا تُعد وتحصى من الأرز الناصع البياض. بعد وصول هذا الخبر إلى قائد جيش وي ظنّ أن استسلام الجندي السابق قد كان مزيفاً ومدبراً فقتله غاضباً. لكنه لم يعرف أنه وقع في الشرك. كان ما يتراكم في مخيمات جيش سونغ ليس الأرز، بل رمال على سطحها طبق خفيف من الأرز.

في فجر اليوم التالي أمر تان داو جي بارتداء الدروع والخوذات بينما استقل عربة مجرورة بالخيل مرتدياً اللباس العادي. انتقل الجيش إلى الشمال بهيكل مغرور ومزهو. برؤية انسحاب جيش وي على مهل وبرفق استنبط قائد جيش وي بتواجد الكمين فلم يقدم على مطاردته. هكذا سلم جيش سونغ من الخطر بفضل حيلة تان داو جي وانسحب بنجاح.

لكن مآثره قد أثارت خشية الملك عليه. حيث سجّل مآثر عسكرية مرموقة خلال حكم الملك سونغ وو دي وحكم الملك سونغ ون دي، مما أتى عليه بوابل من الشكوك فيه. ذات مرة مرض

الملك سونغ ون دي، فتآمر شقيقه ((ليو يي كانغ)) وأتباعه على إزاحة تان داو جي، أصدروا مرسوماً ملكياً باسم سون فون ألصقوا به تهمة الخيانة. فألقي القبض على تان داو جي وحكم عليه بالإعدام. عند القبضة جحظت عيناه مشتعلتان بلهيب الحنق. رمى غطاء رأسه أرضاً بقوة وقال: أتهدمون سور بلدكم العظيم بأنفسكم؟

لما انتقل خبر مصرع تان داو جي إلى مملكة وي الشمالية عمّ السرور العسكريين وهم يقولون: لا أحد نخافه الآن في الجنوب بما أن تان داو جي قد مات!

عادت مملكة وي الشمالي تهاجم مملكة سونغ التي لم يعد لديها من يقدر على تصدي الهجوم. تغلغل جيش وي في أراضي سونغ حتى مدينة ((قواه بو)) شمال نهر يانغتسي المعروفة اليوم بمدينة ((ليو خه)) بمقاطعة ((جيانغ سو)). عندما كان الملك سونغ ون دي يقف على برج سور مدينة جيان كانغ يطل على جيش العدو، تذكر تان داو جي أسطوانة القادة وتنهّد: لو كان تان داو جي موجوداً لما استطاع العدو الرديء أن يصل إلى هنا؟

ولكن، بما أن «سور بلاده» قد انهار، فمن الطبيعي أن يدق العدو أبواب العاصمة يوماً ما.

# 104
# ((فان تشن)) الملحد

بعض الأقوال لها صدى في حياة الإنسان.

إن ((هو شي))، أحد رواد حملة الثقافة الجديدة ونواة حملة رابع مايو، تناول في كتابه «إيماني» قولاً له تأثير عليه. عندما كان هو شي في الحادي عشر من عمره، اعتنق المفاهيم الدينية القديمة وتعوّد على تلك الأساطير عن الجنة والجحيم والمتناقلة على الألسن، ويخاف سجن الآلهة القبيحة والمخيفة. لكن في الكتاب التاريخي «تسي تشي تونغ جيان» بمعنى «المرآة الشامل للمساعدة على الإدارة الحكومية»، قرأ القول الذي غيّر مفاهيمه الدينية تماماً، حرّره من قيود الجنة والجحيم، أزاح مظاهر الآلهة المهيبة عن ذهنه وجعله ملحداً.

فما هذا القول؟ ومن قاله؟

كتب هو تشي: إن تشبيه فان تشان أطلق زمام خيالي لأتحرر من القانون السببي المطلق الكابوسي. ففي تشبيه فان تشان شعرت بالصراع بين القانون العرضي والقانون القدري، ووقفت إلى الجانب الآخر. لم أتكلّف بالاستنتاج عندما كنت طفلاً، إنما انقدت بطبيعتي.

فالآن نعرف أن القول الذي أثر على هو تشي تأثيراً عميقاً صدر من فم فو تشان من مملكة ((تشي الجنوبية)). فما هو القول بحدّ ذاته؟ الجواب فيما يلي.

في عام 479 الميلادي أسقط ((شاو داو تشانغ)) المسيطر على حراس القصر الملكي مملكة سونغ ون دي، نصّب نفسه ملكاً وأسس مملكة تشي الجنوبية. يعرف بالملك ((تشي قاو دي)). كان في بلاط تشي الجنوبية مجموعة من الأرستقراطيين على رأسهم ((تشاو تسي ليانغ)) ((أمير مدينة

جينغ لينغ))، تكرس البوذية. كانوا يعتقدون بالكرما والتقمّص اللذين توجدان في البوذية. آنذاك كان فان تشان مثقفاً، بادر في معارضتهم.

إن فان تشان واسع الاطلاع، مستقيم ونزيه غير خائف من السلطة. دائماً ما طرح ملاحظات مرشدة وأَشعر العدو وجود البوذا في الدنيا. ذات مرة أقام شياو تسي ليانغ حفلة للاحتفاء بالضيوف وساعده فان تشان بضيافتهم.

كان فان جيان يسهب في الحديث مع شياو تسي ليانغ الذي كان يعتقد بالبوذية بينما كان فان جيان يدعو بكل ما لديه من سعة إلى عدم وجود الآلهة والبوذا. فسأل الأول الآخر: لو لم يوجد الكرما فلماذا يكون بعض الناس أثرياء والبعض الآخر فقراء؟

أجاب فان جيان قائلاً: كان كل الناس في لحظة الولادة مثل أزهار على شجرة واحدة. نشأت من تغذية الجذور نفسها وترعرعت من نسف الأعناق. ثم نزلت جميعاً على أنحاء الأرض بهبات الرياح. هوى بعضها من الستار على الحصيرة الحشية الحريرية والحصيرة الخيزرانية، إنما البعض الآخر هوى من السياج والسور في حفر الوحل والمياه. فأنت مثل زهرة من البعض الأول، وأنا مثل زهرة من البعض الثاني. هكذا ظهر الأثرياء والفقراء. فما صلة الكرما بذلك؟

لم يستطع شياو تسي يانغ إقناع فان جيان بوجهة نظره، بل عاب عليه بشدة.

لما رجع فان جيان إلى بيته أثبت نظريته بالتفصيل وكتب «الدليل على عدم وجود الآلهة». الزهور التي كانت تتفتح على فروع الشجر عندما سقطت على الأرض، بات مصيرها مختلف. بمثل هذه العرضية فسّر فان جيان ظهور الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة في المجتمع. مع أنه لم يحلل الموضوع بشكل أعمق من الزاوية الاجتماعية مقيداً بظروف عصره، فإنه جدير بالثناء عليه إذ إنه حاول معارضة الكرما والتقمّص في البوذية بنظريته على الرغم من انتشارهما في الأسرة الجنوبية. بالإضافة إلى الإشارة إلى عرضية القدر، تناول كتاب «الدليل على عدم وجود الآلهة» أيضاً أن روح الإنسان ونفسه تختفيا بعد وفاته، لذا لا يوجد أشباح وآلهة.

اهتزّ كل البلاد بصدور هذا الكتاب وأمطر البوذيون انتقاداً عليه. سأله ((وانغ يان)) محترقاً من الغضب: أتظن أن أرواح أسلافك غير موجودة؟! أجابه فان جيان صاعاً بصاع: فاقتل نفسك لعودة أجدادك وأنت تعرف أن أرواحهم موجودة!

خشي شياو تسي ليانغ على أن تزعزع وجهات نظر فان جيان اعتقادهم بالبوذا فكلّف وانغ رونغ بحثّ فان جيان على التخلي عن المطروحات في كتابه. قال وانغ رونغ لفان جيان: سوف ترتقي بكفاءتك إلى «تشانغ شو لانغ»[9] بكل تأكيد. فلم تلح برأيك على مستقبلك الزاهر؟ أجابه ضاحكاً: لو أترك رأيي سعياً وراء منصب لأشغل منصباً أكبر ولن يكفيني ما قلت من تشانغ سو لانغ.

ظلّ فان جيان يواظب ويتشبث بوجهات نظره ولم يتراجع قط، حتى في ظلال الاستبداد عليه.

لكن في الواقع، لم تغيّر مفاهيمه التي جاوزت عصره اعتقاد معظم الشعب في عصره بالبوذية. قال دو مو الشاعر في أسرة تانغ في شعره «ربيع جيان نان (بمعنى جنوب نهر يانغ تسي)»: في الرذاذ الضبابي كم من الأبراج تقف/ وكلها خلفتها الأسرة الجنوبية». نعم، تحت ضوء شمس الربيع، كانت الأعشاب تنبت، والبلابل تطير، والزهور تتفتح على الأشجار المنتشرة، والأعلام ترفرف أمام أبواب الخانات. ما أجمل معالم جيان نان! لكن ما يكمن وراء المعالم الجميلة هو المعابد الكثيرة، التي عليها علّق الشعب أملهم إلى لقمة العيش، في عصرهم المضطرب.

# 105
# إصلاحات الملك ((وي شياو ون دي))

سلطنا الضوء على الأسر الجنوبية ومعابدها. فما أحوال مملكة وي الشمالية في وقتها؟

طبقاً لما ورد في باب «شي لاو» لـ «كتاب وي»، بلغ عدد المعابد في فترة حكم الملك شياو ون حوالى 6,000، وذلك العدد وصل إلى أكثر من 30,000 في نهاية أسرة وي الجنوبية. كان الحال في مملكة وي الجنوبية أسوأ مما كان في الأسرة الجنوبية.

علاوة على تشييد المعابد، كان كبراء مملكة وي الشمالية يسخرون من الأيدي العاملة وينفقون كثيراً من الأموال لحفر كهوف صخرية وبناء تماثيل البوذا. صرفوا حوالى ستين عاماً لحفر مجموعة من الكهوف الصخرية في جبل ((يون قانغ)) المعروف اليوم بجبل ((وو تشو)) الواقع في مدينة ((دا تونغ)) بمقاطعة ((شان شي)) حيث حوالى 50,000 من تماثيل البوذا الكبيرة والصغيرة الحجم. يصح القول إن هذه الكهوف والتماثيل تعكس مستوى الشعب الصيني القديم العالي في النقش والنحت من ناحية، غير أنها من ناحية أخرى شكلت ثقلاً ثقيلاً على كاهل الناس في ذلك العصر وعادت عليهم بمصيبة لا نهاية لها.

فانقضت الأعوام الستون في دقات المعاول والمطارق التي كان العمال يحفرون جبل يون قانغ بها. يمكن القول إن عجلة تاريخ مملكة وي الشمالية تقدمت ببطء على أنغام الدقات. فلنروي قصص وي الشمالية مع هذه الدقات.

في عام 471 الميلادي تولى الملك ((وي شياو ون دي)) العرش في ظلّ السياسة الفاسدة. ووطّد العزم على إصلاحها.

أولاً وقبل كل شيء حدّد رواتب المسؤولين وعاقب فاسدوها معاقبة صارمة. كما اعتمد نظام توزيع الأراضي على أبناء الشعب على قدم المساواة. وزّع أربعين هكتاراً من الأرض القاحلة لكل رجل بالغ وعشرين هكتاراً لكل امرأة ليزرعوا الحبوب عليها، إلى جانب منحهم أراضٍ لزرع أشجار التوت وعليهم إعادة الأراضي إلى الحكومة بعد وفاة أصحابها باستثناء أراضي أشجار التوت. بالمقابل يلزم الشعب أن يدفع الضريبة ويقدم السخرة للحكومة. إن هذه الإصلاحات نجحت في تشجيع الناس على الإنتاج، بفضلها استقرت حياة أهل المملكة كما تزايدت إيرادات الحكومة.

لم يتوقف الملك وي ون دي عن إصلاحاته.

كان واعياً بأهمية امتصاص ثقافة السهول الوسطى المتقدمة لتوطيد حكمه، كما وجد ضرورة إصلاح بعض تقاليد بلاده القديمة. فبدأ سلسلة جديدة من الإصلاحات مع بعض الصعوبات.

رأى أن العاصمة الحالية – مدينة بينغ تشانغ غير ملائمة لتكون مسرح إصلاحه، إذ إن المناخ فيها بارد في معظم الأوقات حتى كادت السماء أن تثلج في يونيو، ودائماً ما تعصف العاصفة الرملية، فضلاً عن الروح العسكرية التي سادت كل العاصمة. قرّر تحويل مدينة لو يانغ عاصمة جديدة. لكن كيف كسب تأييد المسؤولين لقراره؟ خطرت على باله فكرة. ادعى في أول الأمر بحسمه على الهجوم على مملكة تشي الجنوبية وكان قد عرف سلفاً أن ذلك سيجذب اعتراض المسؤولين، كان ((توه با تشانغ)) أمير ((رن)) أشدهم معارضة.

تظاهر الملك شياو ون بالغضب قائلاً: الدولة دولتي! ما شأنك في التدخّل بقراري!

كان توه با تشانغ يضع مصير المملكة على المقام الأول فثابر على اعتراضه بغضّ النظر إلى غضب الملك. قال: المملكة ملككم، لكني خادمها، فكيف أراكم تقع في الخطر مكتوف اليدين؟

لتفادي الحيرة، اختتم الملك اجتماع البلاط.

بعد عودته إلى القصر الملكي استدعى توه با تشانغ بانفراده وقال له بصدق: كنت أتكلّف بالزعل عليك. ما أريد أن أقول في الحقيقة إن عاصمتنا الحالية غير مناسبة للقيام بإصلاح السياسات فيها. لقد قررت الإصلاح، فمن اللازم اللازب نقل العاصمة. أخطط أن أقود المسؤولين المدنيين

والعسكريين باسم فتوح مملكة تشن الجنوبية، وفي منتصف الطريق أنقل العاصمة إلى السهول الوسطى. ما رأيك؟

لم يفهم نيّة الملك الحقيقية حتى ذلك الحين. أبدى تأييده فوراً.

ففي عام 493 الميلادي قاد الملك وي حوالى ثلاثمائة ألف من شياو ون المشاة والفرسان ليتقدموا باتجاه الجنوب.

عندما وصلوا مدينة لوه يانغ، أقبل موسم المطر الخريفي المتتالي. استمر المطر تمام الشهر، ومن الصعب أن يسير الجيش على الطرق الموحلة، غير أن الملك أمر بمواصلة التقدم. كان المسؤولون يأبون أصلاً الهجوم على مملكة تشي الجنوبية، فانتهزوا المطر الغزير لإقناع الملك بالتوقف. قال الملك: نقود جيشاً كبيراً إلى الجنوب في هذه المرة. إذا تقاعسنا في منتصف الطريق أصبحنا أضحوكة للدنيا. إذا تأبون فعلاً الاستمرار في التقدم فمن رأيي من الممكن أن نجعل مدينة لوه يانغ عاصمتنا الجديدة. ما رأيكم؟

تبادل المسؤولون النظرات الحائرة بوجوم.

أردف الملك وي شياو ون دي: لا تترددوا! من يوافق يقف على اليسار، من يعارض يقف على اليمين. في حين قال أحد المسؤولين من الأرستقراطيين: طالما توافقون جلالتكم على وقف الفتوح إلى الشمال، نوافق على نقل العاصمة إلى لون يانغ.

هكذا نجح الملك وي شياو ون دي في نقل العاصمة. بعد إتمام ترتيب الأمور في لوت يانغ، كلّف توه با تشانغ بالرجوع إلى مدينة بينغ تشانغ لدعاية فوائد نقل العاصمة للمسؤولين والأرستقراطيين. عاد لاحقاً إلى مدينة ((بينغ تشانغ)) للتشاور معهم حول نقل العاصمة. كان بعض المسؤولين المتقدمين في السن عنيداً ودعا إلى اتخاذ القرار على نقل العاصمة أم لا حسب نتيجة التنجيم. زعل الملك وي ون بعض الشيء وقال: لا نقوم بالتنجيم إلا لحلّ مشاكل متعلقة لا نقدر على كيفية تسويتها. الآن لقد حسمت القرار على نقل العاصمة، فلا حاجة إلى التنجيم. فبالنسبة إلى الحاكم يكون كل الدنيا بيته. لِمَ لا يمكنني نقل العاصمة؟ ألم ينقل أجدادنا عاصمتهم؟

لم يعودوا قادرين على مناهضته. هكذا تمّ القرار على نقل العاصمة في نهاية المطاف.

اتخذ الملك وي شياو ون دي إجراءات جديدة للإصلاح بعد تحوّل مدينة لوه يانغ إلى العاصمة الجديدة. أعلن بجعل اللغة الصينية اللغة الرسمية. ألزم المسؤولين دون الثلاثين سنة في البلاط بالتكلم بالصينية. إذا خالفوا نزّل رتبهم حتى عزلهم عن منصبهم. أما المسؤولون فوق الثلاثين سنة أعطاهم مهلة بحكم الصعوبة عليهم لتعلم اللغة العربية. كما طلب من المسؤولين والناس العاديين لبس ملابس قومية هان وشجع على التصاهر بين قومية هان وقومية شيان بي مما أسهم إسهاماً بارزاً في التلاقح القومي.

حوّل الملك وي شياو ون دي الاسم العائلي للعائلة الملكية من ((توه با)) إلى ((يوان))، وجعل ((يوان هونغ)) اسمه الجديد. حفّزت تلك الإصلاحات التطور السياسي والاقتصادي لمملكة وي الجنوبية بشكل ملحوظ، كما عزّز التلاقح بين قوميتي هان وشيان بي، مما سجل مساهمة كبيرة للاندماج القومي.

# 106
## تنافس وجهاء وي الشمالية على إظهار الثروات

شهدت مملكة وي الشمالية رخاء وازدهاراً غير مسبوق بفضل إصلاحات الملك وي شياو ون دي.

لكن بدأت قوة المملكة بالانحطاط في أواخر حكم الملك وي شياو ون دي حيث قام بفتوحات مملكة تشي مرتين دون جدوى، حتى عبر جيش مملكة تشي نهر يانغتسي عام 499 الميلادي للهجوم المعاكس على مملكة وي الشمالية، فاضطر الملك وي شياو ون دي إلى قيادة جيشه لصدّ العدو رغم مرضه. لم يمض على ذلك وقت طويل حتى توفي، اعتلى بعده العرش الملك ((وي شيوان وو دي)) وهو قاصر. كانت أمه الإمبراطورة ((هو)) تتمسك بزمام الحكم على أرض الواقع.

كانت الإمبراطورة الأم هو طاغية منغمسة في الفخفخة والبذخ ومعتنقة البوذية على يقين أنها ستخفف الخطايا. ذات عام بنت معبد يونغ نينغ الضخم والمهيب بجانب القصر الملكي، ومعبد شي كو عند مأزق يي تشيوه وغيرهما من المعابد الباهرة. كان معبد يونغ نينغ أجملها حيث يقام تمثال ذهبي للبوذا بارتفاع ثمانية تشانغات[10]، إضافة إلى عشرة تماثيل ذهبية بالحجم المتوسط وتمثالين من اليشم. إن جميعها مترفة للغاية. بنت باغودا ذات تسعة طوابق بجانب معبد يونغ آن. كانت قاعدتها تضرب في الأرض بشكل عميق إلى درجة أنه عندما قام العمال بحفر الأرض، نبعت المياه الجوفية منها. بلغ ارتفاع الباغودا تسعين تشانغاً عليها أسطوانات بارتفاع عشرة تشانغات. كانت على الباغودا أجراس ترن رنيناً رقيقاً يمكن سماعه على بعد عشرة ليات عندما تهب بها الريح في الليل. كان في المعبد ألف منزل للرهبان وكلها مزخرفة بالمجوهرات والحرير تبهر الأنظار. لم يكن بعد مثل هذه المعابد الجميلة والباغودات العظيمة في الصين منذ دخلت البوذية إليها.

إلى جانب بناء المعابد، سخّر أملاك مملكة وي الشمالية كثيراً من العمال وأنفقوا مبلغاً طائلاً من الأموال لحفر الكهوف الصخرية بما فيها كهف ((يون قانغ)) وكهف ((وي)) من كهوف ((لونغ مانغ))، وتماثيل البوذا. زِدْ على ذلك إسراف المال على عبادتهم للبوذا، كانوا ينغمسون في البذخ والترف.

كانت خزانة مملكة وي الشمالية تمتلئ بالنفائس والفوارد التي اختطفها الحكماء من الشعب. ذات يوم، عندما كانت الإمبراطورة الأم هو تنظر إلى الحرائر المتراكمة في الخزانة خطرت ببالها فكرة. أعلنت أنه يمكن للمسؤولين أن يأخذوا أي شيء من الخزانة كما يشاؤون على شرط أن يحملوه بأنفسهم. يا للضحك المضحك! فإن الذين يرفلون في البحبوحة من العيش عاجزون على الحمل مطلقاً. حمل ((لي تشونغ)) «الشانغشولينغ» ((ووانغ يوان رونغ)) «التشاغنوو»[11] كلاهما كوما من الحرير ليجدا أنفسهما متصببين بالعرق. ما لبث أن سارا عدة خطوات حتى سقطا على الأرض. جُرح أحدهما في الخصر والآخر في القدم فاستلقيا على الأرض يتأوهان ألماً.

تنافس الرجال ذو السلطة والجاه في بلاط وي الشمالية على إظهار ثرواتهم على رأسهم الإمبراطورة الأم هو. استخدم ((وانغ يوان تشان)) ولي مدينة ((خه جيان)) أدوات الأكل المصنوعة من الكريستال والعقيق. كانت خزانة حكومته مملوءة بالذهب والفضة والحرائر حتى المذود كان مصنوع من الفضة. لما يون رونغ عاد إلى منزله، وجد أن منزله لا يضاهي منزل يون تشان في الترف فانزعج كثيراً. كان الأرستقراطيون يعيشون عيشة باذخة على حساب معيشة الشعب، الذي لم يعد يسدّ رمق العيش فاضطر إلى التمرد.

عام 523 الميلادي، اشتعلت نيران الثورة في بلدة ((واه يه)) وغيرها من البلدات الست.

لكن الثورات أُخمدت بشكل قاسٍ. أُرسل كل ما يناهز مائتي ألف من الجنود الثوار تحت الحراسة إلى مدن ((جي تشو)) و((دينغ تشو)) و((يينغ تشو)) الثلاثة بمقاطعة ((خه بي)). كان الثوار لا يستطيعون إيجاد الطعام بسبب الجفاف والسيول التي اجتاحت مقاطعة خه بي، كما لم يرتضوا باستبداد حكماء وي الشمالية، فعادوا يقومون بالثورة في مدينة جي تشو. قرعوا طبول الهجوم على مدينة يينغ تشو تحت قيادة ((قه رونغ)) من قومية شيان بي. استعجل بلاط وي الشمالية في تعيين ((يوان رونغ)) «داسيما» – كبير المستشارين العسكريين و((يوان تشان)) «دادودو» –

كبير القادة، وإرسال جيش كبير لقهر الجيش الثائر. لكن لم يعرف هؤلاء المعتوهون إلا الإسراف في الأكل والشراب والفرح والمرح، ناهيك عن قيادة الجيش.

ما لبث أن بدأ القتال حتى قتل يوان رونغ وأُسر يوان تشان.

جمع قاه رونغ فروعاً من جيش الثورة ليقوده إلى مدينة لوه يانغ. عهد البلاط إلى ((أر جو رونغ)) الذي اشتهر ببسالته وحكمته في ساحة القتال بتصدي قاه رونغ وجيشه. قمع الثورة وقُتل قاه رونغ. لكن لم يطل ذلك حتى دبّ النزاع الداخلي في مملكة وي الشمالية. انتهى النزاع بتولي ((قاو هوان)) و((يو ون تاى)) الجنرالين السلطة. عام 535 اغتال يو ون تاي الملك وي شياو وو ونصّب ملكاً جديداً معلوماً بالملك ((ون دي)) وأسس مملكة وي الغربية. أما قاو هوان فنصّب الملك ((وي شياو جينغ دي)) ونقل العاصمة إلى مدينة يه تشانغ وأسس مملكة وي الشرقية.

هكذا انقسمت مملكة وي الشمالية التي كانت قوية ومزدهرة إلى قسمين.

كانت أحوال الأسرة الجنوبية كذلك. عام 502 الميلادي أنهى ((شياو يان)) مملكة ((تشي)) وأسس مملكة ((ليانغ)). يعرف بالملك ((ليانغ وو دي)).

# 107
# ترهب الملك ليانغ وو دي

وردت في كلاسيكية مذهب زن من البوذية أسطورة «قصص الحجر الأحمر».

ذات عام وصل ((بودهيدهارما)) إلى مملكة ليانغ الجنوبية من جنوب الهند عبوراً للبحر وقابل الملك ليانغ وو. في لقائهما الأول سأله الملك المعتقد بالبوذية متفاخراً: بنيت معابد بوذية ونسخت الكتب المقدّسة البوذية وشجعت كثيراً من الناس على الترهب منذ اعتلاء العرش. فكم مأثرة عملت في رأيكم؟

كان الملك ليانغ وو دي متطلعاً إلى تقدير بودهيدهارما، الذي قال ببطء: لا مأثرة لك.

خيّب كلام بودهيدهارما أمل الملك مثلما أطفأ الماء النار الملتهب. في رأي بودهيدهارما كان كل ما فعل الملك ليانغ وو دي هو من نيّته الشخصية. ما فتئ اعتقاده بالبوذية على المستوى السطحي ولم ينفذ إلى بواطنها وأصولها. حاول بودهيدهارما أن يقنعه أثناء الحوار ببواطن الديانة لكن سدى.

شعر بودهيدهارما بشيءٍ من الخيبة، فقرر مغادرة مملكة ليانغ الجنوبية. لم يود الملك مغادرته مع أنه لم يستوعب مغزى كلامه. أرسل فريقاً من أتباعه الذي أدركوه على شاطئ النهر. قيل إن بودهيدهارما قطع قصباً ورماه إلى سطح الماء ثم سافر إلى مملكة وي الشمالية على متن القصب. في آخر الأمر استكن في معبد شاو لين على جبل سونغ شان والذي فيه تأمل أمام الجدار لمدة تسعة أعوام حتى نزل عليه الوحي السماوي. مستنيراً بذلك، أسس مذهب زن البوذية.

الآن لنترك الأسطورة ولننتقل إلى مسيرة الملك ليانغ وو دي المكتشف ماذا فعل خلال حياته؟

قامت مملكة ليانغ الجنوبية بالفتوحات إلى الشمال عندما كان الاضطراب يكتسح مملكة وي الشمالية. لكن لم يستعد جيش ليانغ أراضيها المحتلة لسوء قيادة الملك ليانغ وو دي. أسوأ من ذلك، قُتل وأُصيب ما لا يُحصى ولا يُعد من جنود ليانغ. لم تدخل مملكة ليانغ الجنوبية مرحلة مستقرة للتنمية إلا بعد انقسام مملكة وي الشمالية. فمن هو الملك ليانغ وو دي؟ ما هي شخصياته؟

أولاً، هو بوذي متديّن. كلما أمر بإعدام مجرم استاء ليوم تام ظنّاً منه أن الإعدام يخالف مبدأ الرحمة. بنى معبداً ضخماً في مدينة جيان كانغ وسماه معبد ((تونغ تاي)). كل يوم يعمد إلى المعبد للقيام بعبادة البوذا وحرق البخور في الصباح والمساء. كان يتدين البوذية إلى درجة الهوس، سبق أن تهرب أربع مرات بعد أن أدركته الشيخوخة.

عندما ترهّب في معبد تونغ تاي لأول مرة، فإن أحداً لم يصده. فترهّب الملك في ظلّ انتشار البوذية في المجتمع كله، أليس ذلك دليل قاطع على إيمانه؟ هذا خبر سار للجميع. غير أن المسؤولين اضطروا إلى استرجاعه مباشرة بعد أربعة أيام من ترهبه. أحسّ الملك بالضيق، إذ إنه كان على جري العادة أن يدفع الراهب مبلغاً تعويضياً للمعبد قبل العودة إلى الحياة العلمانية. فكيف يمكن له أن يكون مستثنياً؟

فعاد ثانية إلى معبد تونغ تاي. لكن هذه المرة عندما زاره المسؤولون في المعبد لإقناعه بالعودة، أصرّ بالرفض. لم يكن أمامهم من خيار إلا دفع مائة مليون تشان[12] للمعبد مقابل الملك.

في المرة الثالثة أوجد الملك ليانغ وو دي حيلة جديدة. لما ترهّب في معبد تونغ تاي، لم يتربع بجسمه للمعبد فحسب، بل بأراضي المملكة أيضاً. بعد شهرين استرجعه المسؤولون من المعبد بمائتي مليون تشان. لم يضعوا في حسبانهم أن الملك ترهّب لاحقاً للمرة الرابعة بعد عام، فلا حول ولا قوة لهم سوى دفع مائة مليون تشان للمعبد لاسترجاع الملك مجدداً.

فعلاً إن الملك كان متديناً كما قال لبودهيدهارما، بما أنه بنى المعابد، نسخ الكتب المقدّسة البوذية وشجع كثيراً من الناس على الترهّب، حتى هو نفسه ترهّب أربع مرات.

كان الملك معروفاً بالتسامح مع أقاربه فضلاً عن التدين بالبوذية. علم أن مملكة سونغ ومملكة تشي كلتاهما هلكت بسبب الصراعات بين العائلات الملكية عازماً بعدم تكرير مصيرهما. في حال ارتكب أفراد العائلة الملكية جريمة، كان ينصحهم باللين بدلاً من معاقبتهم بصرامة.

كان ((شياو هونغ)) أمير ((لين تشوان))، شقيق الملك، جشعاً أيما شراهة لا يألُ جهداً في جمع الثروات. كان في منزله عشرات الخزائن التي تغلق عادة بإحكام، مما أثار شكوك البعض فيما إذا كان يخبئ الأسلحة فيها استعداداً للانقلاب، فأخبروا الملك ليانغ وو دي بذلك.

فوجئ الملك بالخبر فذهب إلى منزله مع حراسه للتفتيش. تبيّن أن الخزائن زاخرة بما لا يُحصى من الحرائر والمجوهرات وغيرهما من النفائس. كان شياو هونغ يقف جنب الملك ويرتعش خوفاً من عقوبة الملك عليه، لكن بعد أن تمّ التفتيش التفت الملك إليه يناديه باسمه الطفولي «أخي السادس» برقّة وحبور، وقال مثنياً عليه أنه يبدع في كسب الأموال.

عرف الملك أن شياو هونغ لن يدبر المؤامرة الانقلابية أبداً، فازدادت ثقته به.

تعامل الملك مع أقاربه والمسؤولين بكل تسامح، غير أنه يسيء معاملة الشعب. من خالف القانون جازاه بقسوة، إذا هرب عاقب كل عائلته ليكونوا عتالين.

كان المسؤول ((خه تشان)) مستقيماً وعادلاً يتذمر من تصرفات الملك، فرفع رسالة إليه وأشار فيها إلى أربع نواقص لأسلوب إدارة الملك للمملكة. أولاً: إسراف المسؤولين على مختلف المستويات في نهب عامة الشعب. ثانياً: انغماس المسؤولين في البذخ وحدة التبذير. ثالثاً: إساءة استخدام الغدارين والأشرار السلطة وتلفيقهم تهمة ضد الأبرياء. رابعاً: تشييد مباني الحكومة باطراد وبالتالي تسخير الشعب طوال العام وعدم منحهم الراحة.

كان خه تشان يتخيل أن يصحح الملك نفسه بعد قراءة رسالته، لكن كان الأمر بالعكس. حالما قرأ الملك رسالته علاه الغضب. أملى مرسوماً له حيث وصف نفسه بمن لا تجد الدنيا من الملك الحكيم، وعاتب خه بشدة.

ولع الملك الليانغ وو دي بما يتعلق بالبوذية وأحب كل ما هو رقيق وأنيق ورأى نفسه رحيماً، بينما يغفل عن صيانة القانون الجنائي، الأمر الذي أدى إلى إهمال المسؤولين على كافة المستويات عن القضايا الجنائية. نتيجة ذلك، بدأ المسؤولون الأشرار يعبثون بالقانون ويسيئون إلى السلطة ويرتشون بدون أدنى خشية. كان السجن ممتلئاً بالأبرياء. فكيف تتمتع مملكة ليانغ بالاستقرار في ظلّ هذا؟ من الذي أشعل شرارة الثورة فيها؟

اسمه ((هو جينغ)).

# 108
# فتنة هو جينغ

حين كان الملك ليانغ وو دي في السادسة والثمانين من عمره، فُرضت عليه الإقامة الجبرية في قصر جينغ جو بمدينة تاي تشانغ.

ذات يوم تألم في حلقه بسبب مرضه. توسل قليلاً من العسل لترطيب حنجرته، لكن أحداً لم يستمع إليه. حشرج الملك محزوناً، وفارق حياته. لماذا مات موتاً حقيراً بكونه الملك الكريم؟ الجواب: فتنة هو جينغ.

كان هو جينغ جنرالاً لدى قاو هون حاكم مملكة وي الشرقية ويحرس مناطق جنوب النهر الأصفر. استدعاه قاو هوان وهو على فراش الموت إلى لوه يانغ لكنه رفض. ما لبث أن سمع بخبر وفاة قاو هوان حتى استسلم مع جيشه لمملكة وي الغربية. كان يو ون تاي ملك مملكة وي الغربية يتخذ الحيطة والحذر منه. قبل الأراضي التي أهداه إياه هاو، وفي الوقت نفسه، دبّر على خلعه عن السلطة العسكرية.

أدرك هاو جينغ نيّة يو ون تاي، فتحول للاستسلام إلى مملكة ليانغ الجنوبية. كان الملك ليانغ وو دي يرى أن هو جينغ يساعده على استعادة الأراضي المحتلة في السهول الوسطى. وقبل بضعة أيام من ذلك رأى في حلمه جميع المسؤولين والولاء من مملكة وي الشمالية يستسلمون له، مما جعله يعتقد أن استسلام هو جينغ يعني عون البوذا له. فقبله بصرف النظر عن تحذير مسؤوليه له. أرسل خمسين ألف جندي على رأسهم ((شياو يوان مينغ)) ابن أخيه لاستقبال هو جينغ.

لم يضع في اعتباره أن جياو يوان مينغ هجوم جيش وي الشرقية في منتصف الطريق. أُسر شياو يوان مينغ وبالكاد خسر جميع الجنود. ثم هزم جيش وي هو جينغ الذي فرّ إلى مدينة ((شياو يانغ)) التابعة لمملكة ليانغ الجنوبية بصحبة المئات من أتباعه.

لكن لم تفضّل مملكة وي الشرقية معاداة مملكة ليانغ الجنوبية فأرسلت مبعوثاً إليها للمصالحة معبراً عن قابلية مملكة وي الشرقية على إعادة شياو يوان مينغ. لما سمع هو على منوال جينغ ذلك خشي بعض الشيء فأراد كشف موقف الملك ليانغ وو دي منه. لذا أرسل شخصاً إلى الملك ليانغ وو دي متظاهراً بأنه مبعوث من مملكة وي الشرقية يطرح للملك أن يستبدل هو جينغ بشياو يوان مينغ. قَبِل الملك هذا الشرط بلا تردد. على الأثر تعرف هو جينغ على قول الملك هذا، فعاد يفكر في الخيانة وهو لم يخلص للملك على الإطلاق. مع أنه خسر أمام جيش وي الشرقية خسارة ذريعة، فإنه لا بأس به أن يحارب جيش مملكة ليانغ الجنوبية الفاسدة.

أعاد تنظيم بقية جنوده وشنّ الحرب على مملكة ليانغ الجنوبية. سرعان ما وصل الشاطئ الشمالي لنهر يانغتسي، عيّن الملك لينغ وو ابن أخيه ((شياو تشانغ ده)) قائداً لردّ الجيش العدو. كذب عليه هو جينغ بأن ينصّبه ملكاً بعد إسقاط الملك ليانغ وو دي طالما ساعده شياو تشانغ ده، الذي خضع للمغريات. لم يساعده على عبور النهر فحسب، بل على دخول مدينة جيان كانغ حتى فرض هو جينغ حصاراً على مدينة ((تاي تشانغ)) حيث كان الملك يسكن.

لكن عندما بدأ هو جينغ الهجوم على متقلد حكم مدينة تاي، لم يجر الأمر على ما يرام.

تعرض للمقاومة الشديدة من قبل أهل المدينة وحراسها. وانقضى أكثر من مائة يوم على حصاره بلا نجاح. لكن مع مرور الوقت، تناقص عدد أهل المدينة وحراسها من جراء المرض والجوع والتضحية إلى أقل من أربعة آلاف. أما الأمراء الذين جاؤوا من ولايات مملكة ليانغ الجنوبية لإنقاذ الوضع فرحلوا المسؤولية بعضهم للبعض وعسكروا على أكناف مدينة جيان كانغ حتى لزم بعضهم منازلهم مسرفين في الخمر.

كان الملك ليانغ وو دي يتخيل أن يغلب الأمراء هو جينغ، إنما حطّم خياله أحد المسؤولين قائلاً: كل أمراؤكم غير بارين ومخلصين فكيف تعلقون الأمل عليهم؟

فلم تعد للملك حيلة وقوة. دخل جيش هو جيانغ المتمرد مدينة تاي تشانغ أخيراً.

كان الشاو تشانغ ده الذي توهم بتولي العرش، أول من قتله هو جينغ بعد تقلّده الحكم. أما الملك ليانغ وو دي فحاله ما ذكر في بداية هذا الباب. توسّل قليلاً من العسل لترطيب حنجرته غير أن أحداً لم يهتم به، ثم فارق الحياة في التعاسة. بعد وفاة الملك لياغ وو نصّب هو جينغ ملكين دميين،

ثم نصّب نفسه ملكاً عام 551 ميلادي. سيب أتباعه أحرق وذبح ونهب وخطف أينما ذهبوا، مما أثار حفيظة شهب المستعرة ضدهم. في نهاية المطاف فرّ هو جينغ في غاية الحرج تحت مهاجمة جنرالي مملكة ليانغ الجنوبية ((تشان با شيان)) و((وانغ سنغ بيان)) حتى اغتيل من قبل أتباعه في منتصف الهروب.

ناجماً عن فتنة هو جينغ تشظت مملكة ليانغ الجنوبية.

أسس تشان با شيان مملكة ((تشان)) في أراضي مملكة ليانغ الجنوبية الآفل نجمها عام 227 ميلادي وهو معروف بملك ((تشان وو دي))، في حين تمّ إبادة مملكتي وي الشرقية والغربية في الشمال وتأسيس مملكة تشي الشمالية ومملكة ((تشو الشمالية)) على التوالي. كانتا تتحاربان بلا توقف حتى أباد الملك ((بي تشو وو دي)) مملكة تشي الشمالية فتمّ توحيد الشمال. كان الملك ((بي تشو وو دي)) ملكاً عظيماً لكن كان الملك ((تشو شيوان دي)) الذي اعتلى العرش بعده جاهلاً وطاغياً. خطف أبو خاله ((يانغ جيان)) العرش بعد وفاته.

عام 581 توّج يانغ جيان وأسس مملكة سوي وهو معروف بالملك ((سوي ون دي)). منذ الوقت فصاعداً أصبح شمال الصين وجنوبها تحت سيطرة مملكة ((سوي)) ومملكة تشان على التوالي. أوشك أن توحّد الصين بأكملها بعد حوالى أربعمائة سنة من الانقسام. فمملكة سوي ومملكة تشان، أيهما تُبيد الأخرى؟ الجواب: سوي هي المبيدة، وتشان المبادة.

# 109

## الملك ((تشان هو جو)) الماجن وإبادة مملكة تشن

في عشية إبادة مملكة تشن، ما زال الملك تشان هو جو آخر ملك لمملكة تشن غارقاً في اللهو والمجون.

كانت عشية رأس السنة الجديدة وكل البلاد تحتفل بها. كل القصر الملكي معموراً بالإضاءة حيث ترقص الحسناوات. كانت المائدة عامرة بما طاب ولذّ، عليها الكؤوس مملوءة بالخمر الجيد. كان جميع المسؤولين يتحلقون حول المائدة يفرحون ويعربدون. جرع الملك تشان هو جو كأساً إثر آخر حتى سكر تماماً، فعندما أراه حراسه الخبر العسكري الطارئ، لم يولِهِ أدنى اعتبار وتركه تحت سريره.

حلم الملك حلماً حلواً في تلك الليلة.

هل عرف الملك وهو مخمور، أن ((هان تشين هو)) جنرال مملكة سوي قد انطلق للهجوم على ميناء ((تساى شي جي)) بمناسبة الليلة المظلمة؟ هل عرف أن ((خه روه بي)) جنرال مملكة في صبيحة اليوم التالي سوي سيعبر نهر يانغتسي في الخفية ويحتل ميناء ((جينغ كو)) ويتجه إلى مدينة جيان كانغ مستغلاً الضباب الكثيف؟ ربما لم يعرف، وهو ما فتئ ينغمس في ثمله.

كانت مملكته على شفير الهلاك، وأوشك أن توحد مملكة سوي الصين بجملتها. التفاصيل لمسيرة مملكة تشن وإبادتها كما يلي.

شهدت مملكة تشن فترة من الاستقرار والتنمية الاقتصادية في حقبة حكم تشن با شيان الملك المؤسس لمملكة تشن. لكن تدهور الوضع بشكل حاد بعد اعتلاء الملك الخامس تشان هو جو. كان الملك تشان هو جو واسمه الحقيقي ((تشن شو باو)) لم يعلم إدارة الدولة وحكمها ولو حرفاً واحداً،

بل كان ينغمس في العبث والشهوة. قام بالبناء على نطاق واسع وأنشأ لحظاياه ثلاث علالي لغاية الفخارة وسماها بـ «لين تشون» (الإطلال على الربيع)، «جيه يي»(نسج الحرير) و»وانغ شيان» (التطلع إلى الملائكة). بلغ ارتفاع كل منها عشرات التشانغات. قيل إن أُطر نوافذها وجدرانها ودرابيزنها مصنوعة من خشب الصندل ومزينة بالذهب واليشم واللآلئ والزمرد. كما كانت تحت العلالي تزرع مختلف الأنواع من الأشجار والأزهار النادرة. لما أقبل موسم التفتح، حمل النسيم عطر الزهور إلى ما على بعد عشرات الليات.

كان الوزير الأول ((تشانغ زونغ)) و»الشانغشو»[13] ((كونغ فان)) اللذين عينهما الملك هو جيو لا يحسنان إدارة شؤون المملكة، وإنما ينهمكان في نظم الشعر. كان على جري عادتهما أن ينظما الشعر ويشربا الخمر ويتمتعا بالزهور والرقص ليلاً ونهاراً. نظم الملك تشان هو جو شعراً بعنوان «الشجر اليشمي والزهر البهي في الفناء الخلفي» فيها وصف حياته الباذخة والمترفة.

كان الملك تشان هو جو يسرف في التبذير، أما رعاياه فيعانون من التشرد والموت. نصحه أحد مسؤوليه ((فو زانغ)) في رسالته: لقد أغضب سلوك جلالتكم الجميع. إذا استمر الحال كذلك فمن الحتمي أن تهلك مملكتنا.

حفظ الملك كلامه وأرسل تابعه يقول لفو زانغ: إذا اعترفت بذنبك أصفح عنك. غير أن فو زانغ رفض قائلاً: قلبي مثل مظهري. إذا يمكن تغيير الآخر يمكن تغيير الأول.

لذلك قُتل فو زانغ. لم يجرؤ أحد على نصح الملك بعد ذلك. بعد خمسة أعوام، عظمت قوة مملكة سوي التي عزمت على إبادة مملكة تشن. أخذ الملك سوي ون دي باقتراح مستشاره وبدأ القيام بالتحرش بمملكة تشن كلما أقبل الموسم الخريفي للحصاد، حيث حشد قوات وادعى بالهجوم على مملكة تشن.

حينما تنازل جيش تشن عن الحصاد وجمع قواته للتصدي، تراجع جيش سوي.

استمر الحال كذلك عدة سنوات، الأمر الذي أضرّ بالإنتاج الزراعي لمملكة تشن الجنوبية بشكل كبير. كان الشعب يعاني من نقص الغذاء واللباس، في حين تهاون العسكريون بحرس الأمن الحدودي. ما زاد الأمر سوءاً أن جيش سوي دائماً يرسل فرقاً صغيرة لمباغتة أهراء جيش تشن وإحراق الحبوب فيها، مما أصاب مملكة تشن بخسائر جسيمة.

في عام 588 ميلادي صنع الملك سوي ون دي عدداً كبيراً من السفن الحربية. عيّن الأمير ((جين)) – ((يانغ قوانغ)) والوزير الأول – ((يانغ سو)) القائدين الأعليين وعيّن خه رو بي وهان تشين هو جنرالين ليقودوا جيشاً يحتوي على خمسمائة وعشرة آلاف عسكري للهجوم على مملكة تشن من ثماني اتجاهات. أصدر الملك سوي ون دي مرسوماً لفتوح مملكة تشن فيه عدّد عشرين واقعة لجريمة الملك تشان هو جو. كلّف أتباعه بنسخ ثلاثمائة نسخة من مرسومه ونشرها في مناطق جنوب نهر يانغتسي. كان شعب مملكة تشن يبغض ملكه أصلاً، بعد قراءته للمرسوم الصادر عن الملك سوي ون دي، ازداد بغضه وزالت ثقته بمملكته.

قاد يانغ سو الجيش البحري على متن آلاف السفن الضخمة منطلقاً من مدينة يونغ آن باتجاه الشرق بمحاذاة نهر يانغتسي. كانت دروع العسكريين تعكس بريقاً يبهر الأنظار تحت ضوء الشمس. ركب الخوف حراس النهر لمملكة تشن الجنوبية الذين لم يعودوا يقدمون على التصدي. فوصل جيش يانغ سو شاطئ النهر بنجاح وسائر جيش سوي كذلك. استعد جميع جيش سوي للهجوم.

استمر قادة حراس النهر لمملكة تشن في إرسال مدينة جيان كانغ بلاغاً لها للحالة الطارئة. إنما كان الملك تشان هو جو وقتها يتمتع بالغناء والرقص ويحتفل بعشية رأس السنة الجديدة. عندما وصلته رسائل الإنذار، لم يود تضييع وقته لفكّها وقراءتها، فتركها عشوائياً تحت سريره. لم يستيقظ من سباته وحلمه إلا عند وصول جيش سوي بوابة جيانغ كانغ.

ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل بعد يقظته؟ بقي كأنه نعامة تدفن رأسها في رأسه ولا غير. استدعى المسؤولين للنقاش بحيث قال: إن هنا أرض سعيدة تبارك الروح الملكية. سبق أن هجمت عليها مملكة تشي الشمالية ثلاث مرات ومملكة تشو الشمالية مرتين، وكلها باءت بالفشل دون استثناء. فسوف يفشل جيش سوي حتماً!

ردّد تابعه الحميم كونغ فان صداه قائلاً: كلام جلالتكم صحيح مائة بالمائة. إن نهر يانغتس حاجز طبيعي يدافع عن غزوات العدو من الشمال منذ القدم. كيف يتخطاه جيش سوي؟ فبالتأكيد أن قائد الحراس خدعنا بالأخبار المزيفة متوقعاً منا المكافأة! على هذا النحو كان الملك وتابعه أحدهما يصوّت والآخر يصد، لا يأخذ هجوم جيش سوي مأخذ الجد. لم يطل النقاش حتى بدأت جولة جديدة من الاحتفال والرقص والغناء. لكن كم من الوقت يمكنه أن يختبئ مثل النعامة؟ في يناير عام 589

ميلادي عبر جيش خه رو بي نهر يانغتسي، ثم استولى ميناء جينغ كوه. أما جيش هان تشين هو فاستولى ميناء تساي شي جي. بعد ذلك اتجه الجيشان إلى مدينة جيان كانغ.

أخيراً أدرك الملك تشان هو جو خطورة الأمر. كان في المدينة حوالى مائة الآلاف من الجنود الحراس، لكن المسؤولين الذين كانوا يحظون عنده لم يعرفوا القيادة والقتال. هلع الملك خو جو حتى بكى لكن أتجدي الدموع نفعاً؟ احتل جيش سوي مدينة جيان كانغ بسهولة. أُسر من أُسر، استسلم من استسلم. لكن أحداً لم يجد أثر الملك تشان هو جو بعينه في القصر الملكي.

أين ذهب؟

في حقيقة الأمر توارى هو مع حظيتيه ((تشانغ لي هوا)) و((كونغ قوي بين)) تحت البئر خلسة. قبض جنود سوي على حاشية الملك بعد دخول القصر فاستجوبوها، فأرغمت أن ترشدهم إلى البئر.

لم يروا في البئر سوى العتمة، ولم يسمعوا أي ردّ على ندائهم. فرمى بعضهم الحصى إلى البئر، في حين ارتفع صوت طلب العفو. أسدلوا حبلاً لإخراج الملك تشان هو جو متسائلين لماذا يكون الملك ثقيلاً إلى هذا الحد؟ عندما فرغوا من جرّ الحبل وجدوا أن الملك وحظيتيه ثلاثتهم خرجوا معاً.

انفجرت ضحكات جنود سوي.

ويوجد تفسيران لتسمية هذه البئر. الأولى أنها نالت اسمها «بئر المساحيق إذ إن مساحيق الحظية تشانغ لي هوا لمست فتحة البئر عند لحظة خروج الثلاثة. الثانية أن البئر يطلق عليها ببئر العار لأن ما حصل مع الملك تشان هو جو عندها يعتبر عاراً كبيراً. أما تشان لي هوا فقيل إن جمالها استهوى ((يانغ قوانغ)) أمير ((جين)) الذي أمر ((قاو جيونغ)) في سرّه قبل انطلاق الجيش بعدم مؤاساة تشانغ لي هوا إذا وجدها في مدينة جيان كانغ. لكن استدعاها قاو جيونغ فور دخوله القصر الملكي وقال لها: بعد أن أسقط ((جيانغ تاي قونغ)) الملك ((تشو))، غلّف وجه حظيته ((دا جي)) الجميل والتي أغرت الملك بالتالي أفسدت المملكة ثم قتلها. فكيف أبقيك وأنت مثل دا جي؟

فأمر بإعدامها على الفور.

هكذا، هلكت مملكة تشن الجنوبي، ووحدت مملكة سوي جنوب الصين وشمالها. بعد ردع طويل من الوقت، عندما مرّ دو مو الشاعر في أسرة تانغ بمدينة جيان كانغ في الليل ورسا على ضفة نهر تشين هواي، لاحظ بينتا غانية تغني أغنية الملك تشان هو جو «الشجر اليشمي والزهر البهي في الفناء الخلفي». إذا بالمشاعر عاودته، مما دفعه إلى كتابة البيت الشهير لشعره: واقلباه! لم تعرف الغانية حزن البلاد/ ما زالت الزهور متفتحة في الغناء.

لكن أكان تعاقب الأسر المتتالية يتعلق بغانية بسيطة؟

# 110

# تضحية ((تشاو تشوه)) بنفسه لصيانة القانون

في عام 589 الميلادي أبادت يانغ جيان الإمبراطور سوي ون دي مملكة تشن ووحدت الصين بأكملها.

انتهت الأوضاع الفوضوية وانقسام البلاد التي دامت أكثر من ثلاثمائة سنة. عزم الإمبراطور سوي ون دي على تنمية البلاد وتحقيق إنجازات عظيمة، دفع الإصلاحات بنشاط. كما يقول المثل: من جدّ وجد، فبفضل جهوده المبذولة شهدت إمبراطورية سوي استقراراً وازدهاراً. نظراً لهذا، نظّم الإمبراطور مسؤولين لإصلاح القوانين.

من الجدير بالإشادة به أنه أبطل أنواعاً كثيرة من التعذيب الوحشي وموروثة من الأسر السابقة ابتداء من أسرة تشين.

تجددت القوانين، غير أن الإمبراطور نفسه كان يخالفها دائماً. فكلما غضب أفرط في العقوبات وقتل الناس بشكل اعتيادي. تعددت هذه الأحوال. من حسن الطالع أن بعض المسؤولين تبادروا إلى إيقاف تصرفات الإمبراطور وفقاً للقوانين. كان أبرزهم رئيس ديوان «دا لي سي»[14] الذي ينفذ القانون بالعدالة وأوقف الإمبراطور سوي ون دي عدة مرات.

كان من الصعب أن ينفذ القانون بالعدالة في الصين القديمة إذ إن الإمبراطور دائماً يملك يداً في هذه العملية. عندما يحكم القاضي قضية ما، قد يتدخل الإمبراطور أو أقاربه ويؤثرون على نتيجة الحكم بمجرد مشاعرهم. في مثل ذلك الوقت، يتطلب القاضي الجرأة إذا استقام في الحكم.

إن تشاو تشوه من رجال ذوي الجرأة، أنقذ الأبرياء الكثيرين من الموت بجهده وعدله. قصته كما يلي.

ذات مرة ألقى رجال الشرطة الدورية القبض على شخصين تهمتهما تبديل النقود الزائفة بالنقود الصحيحة عند السوق على مرأى الناس. لما وصل الأمر إلى مسمع الإمبراطور سوي ون دي بلغ غضبه مبلغه وأمر بإعدامهما للتو. لكن تشاو تشوه المنفّذ للإعدام لم يفعل بأمر الإمبراطور، بل سارع إلى الديوان الإمبراطوري لرؤية الإمبراطور سوي ون دي.

قال للإمبراطور: بحسب قوانين إمبراطورية سوي يتعين حكم الشخصين بضربهما بالسوط وغير الإعدام يا جلالتكم.

لم ينحسر غضب الإمبراطور. ردّ عليه بنبرة غاضبة: هذا أمري! لا شأنك لك فيه.

أردف تشاو تشوه بلهجة كأنه مظلوم: برحمة جلالتكم أتشرف أن أشغل منصب رئيس ديوان دا لي سي. فكيف لا أقدر مسؤوليتي ولا أؤدي واجبي في حالة مخالفة القوانين؟

فوجئ الملك بمعارضة تشاو تشوه له فازداد سخطه. رفع صوته صائحاً: أنت تهين مهابتي وأنا الإمبراطور؟ اخرج! لكنه أصرّ على معارضته وعلا غضب الإمبراطور وغيظه. قال بصرامة: أنا مجرد مسؤول وأؤدي مسؤوليتي فأنصح جلالتكم بالتراجع عن قراركم غير الملائم.

رغم أن الإمبراطور يشتعل لم يتخل تشاو تشوه عن رأيه. في النهاية ترخى موقف الإمبراطور. بعد أن وضع نصائح المسؤولين الآخرين في اعتباره، ألغى عقوبتهما.

مرة أخرى، حكم الإمبراطور سوي ون دي على ((شين دان)) نائب رئيس ديوان القضاء بالإعدام لأنه كان قد ارتدى بنطلون باللون الأحمر الذي يرمز إلى «حسن الحظ للمسؤولين». كان الإمبراطور يميل إلى التقشف ويكره الملابس الفاخرة. ذهب تشاو تشوه لرؤيته عقب سماع قرار الإمبراطور كالمعتاد. قال للإمبراطور: لست أوافق على قرار جلالتكم. إن شين دان مذنب، لكن الإعدام أثقل مما يستحق.

انزعج الإمبراطور سوي ون دي عند رؤية تشاو تشوه فقال له متبرماً: حياتك وحياة شين دان، أيهما أثمن إليك؟

لم يتوجس من تهديد الإمبراطور واستطرد بعناد: لا يجوز أن تقتل شين دان يا جلالتكم.

بلغ سخط الإمبراطور ذروته. أمر حراسه بخلع بدلة تشاو تشوه وقطع رأسه. بعد نزعه من بدلته سأله: هل تصر على الشفاعة لشين دان؟

لم يخطر بباله أن تشاو شوه لم يظهر صبغة من الخوف وهو يقول: أنا أنفذ القانون بالإنصاف، فلِمَ أخاف من العقوبة؟

دهش الإمبراطور قليلاً. أعاد التفكير بوعي بإخلاص تشاو تشوه الدفين. إنه نفذ القانون بالعدالة لصالح البلاط، فأطلقه.

ما ذكر قبل قليل من القصتين لتشاو تشوه دليل على استقامته وجرأته على معارضة الإمبراطور لصيانة الظروف القضائية العادلة. في الواقع، فإن الصعوبة لينفذ القانون بالعدالة لم يقتصر على نصح الإمبراطور مباشرة. إذا عرفت أن شخصاً سيئ الطبيعة وسبق أن صنع أموراً ضدك، فعند ارتكابه خطأ، هل يمكنك أن تحكمه بما يستحق دون أن تتأثر بوجدانك؟

لنرى كيف تعامل تشاو تشوه مع مثل ذلك الحال.

كان ((لاي كوانغ)) مسؤولاً يشتغل في ديوان دا لي سي تحت رئاسة تشاو تشوه. لاحظ أن الإمبراطور غضب على تحديات تشاو تشوه عدة مرات، فانتهز الفرصة لرفع شكوى من تشاو تشوه إلى الإمبراطور. ادعى أن تشاو تشوه يسيء للسلطة ويحكم بالتحييز حتى يفرج على المجرمين سرًّا. تشكك الإمبراطور سوي ون دي في صدقية قوله على الرغم من كراهيته لتشاو تشوه. أرسل مسؤولين للتحقيق في الأمر، وتكشف أن لاي كوانغ يكذب.

سخط الإمبراطور سخطاً بالغاً. أمر تشاو تشوه بإعدام لاي كوانغ على الحال.

في مثل هذا الحال، قد يكون بعض الناس مسرورين في بواطنهم. وقع من اتهمني في يدي! من الطبيعي أن أنفذ أمر الإمبراطور. لكن تشاو تشوه بغضّ النظر عن كراهيته على لاي كوانغ راجع القوانين بجد ودقة ثم استخلص أن جريمة لاي كوانع أخف من أن يقتل. فماذا فعل تشاو تشوه؟

عمد إلى رؤية الإمبراطور سوي ون دي. قال له: لاي كوانغ مذنب، لكن ذنبه أخفّ من أن يقتل.

ظلّ تشاو تشوه يصرّ على رأيه مما زاد حنق الإمبراطور. اعتزم الرجوع إلى القصر الداخلي، في حين صاح تشاو تشوه بصوت جهير: يا جلالتكم! لن أبرّر للاي كانغ مجدداً! لكن لديّ أمر آخر لأعلمكم.

أمر الإمبراطور سوي ون دي بإحضاره إلى القصر الداخلي.

لما رأى الإمبراطور ركع لتوه وقبّل الأرض بين يدي الإمبراطور مراراً وتكراراً قائلاً مستعفياً: اقترفت أربع جرائم كبرى! الأولى أني لم أضبط لاي كوانغ لكوني رئيس ديوان دا لي سي فارتكب جريمة؛ الثانية أني لم أنصف في حكم لاي كوانغ فعوقب بالإعدام؛ الثالثة أني اقتحمت القصر الداخلي لجزعي فحسب وأنا أكذب عليكم بأن لدي أمراً آخر.

اختفى غضب الإمبراطور سوي ون دي تماماً بعد فروغ تشاو تشوه من قوله هذا. من باب الصدفة، كانت الإمبراطورة الأم ((دو قو)) في الموقع وأعجبت باستقامته فكافأته بكأسين من الخمر حتى الكأسين الذهبيين بذاتهما. أما لاي كوانغ فلم يقتله الإمبراطور، بل نفاه إلى مدينة قوانغ تشو.

بعد وقوع كل هذه الأحداث، ذاع صيت تشاو تشوه العادل والمستقيم.

# 111

# إفراط الإمبراطور ((سوي يانغ دي)) في البذخ

يظلّ الإنسان مقيداً طيلة حياته.

على سبيل المثال: تحب الحلويات، لكن والديك يمنعانك من الإفراط في أكلها؛ تحب كرة القدم، لكن القواعد تزجرك عن تسديد الأهداف بشكل عشوائي؛ تحب التمشي، لكن نظام المرور يحظر عليك العبور في زحام السيارات. هل توهمت كيف ستكون الدنيا بلا أي قيد؟ حينما تكون العواقب عدم الالتزام بالقيد خفيفة. مثلاً، إذا تفرط في أكل الحلويات، تتألم أسنانك ولا غير. إذا لم تتقيد بقواعد كرة القدم، خرجت من الساحة ولا إلا. حينما تكون العواقب أكثر حدّة، مثلاً في حال عبور الطرق دون مراعاة سير السيارات.

في حال إساءة السلطة بلا قيد، تكون العاقبة أكثر هولاً. فإن السلطة تشبه البهيمة التي تنتهز أي فرصة لمهاجمة الإنسان إن لم تغلق في القفص. ذكرنا في الباب السابق الإمبراطور سوي ون دي الذي دائماً ما يغضب ويزعل. لولا تشاو تشوه وقانون سوي، لقتل ما لا يحصى من الأبرياء.

في هذا الباب نسلّط الضوء على الإمبراطور سوي يانغ دي الذي أساء إلى سلطته دون أدنى قيد. ماذا فعل بالضبط؟ ما نهايته؟ لنبدأ بقصة أبيه الإمبراطور سوي ون دي. كان يتمسك بالاقتصاد والتقشف في حكمه. فرض عقوبات صارمة على المسؤولين المرتشين دون استثناء حتى أولاده. عندما اكتشف بحبوحة ولي العهد السابق ولده ((يانغ يونغ)) أبطله وجعل ولده يانغ قوانغ ولي العهد الجديد. لكنه لم يحسب في حسبانه أن يانغ قوانغ كان يحيى حياة زاخرة من حياة يانغ يونغ.

في عام 604 ميلادي اشتد مرض الإمبراطور سوي ون دي. أرسل يانغ قوانغ أتباعه لاغتيال أبيه في شدة مرضه، فأصبح الإمبراطور الجديد المعروف اليوم بالإمبراطور سوي يانغ

دي الطاغي. كان يغرق في الملذات، أمر بتشييد القصور الشرقية في مدينة لوه يانغ فور اعتلاء العرش.

في عام 605 ميلادي عيّن الإمبراطور سوي يانغ دي ((يو ون كاي)) مشرفاً على مشروع البناء. وبدأت المشاريع الضخمة تحت إشرافه. نقل العمال الأخشاب والصخور راقية الجودة من جنوب نهر يانغتسي وشمال الجبال الخمسة[15]. كانت أحجام الأخشاب المستخدمة لصنع دعامات القصر ضخمة إلى حدّ أنها تتطلب أكثر من ألف عامل لجرّها. إن المشروع ضخم بالفعل، بالتالي تقاضى عدداً كبيراً من العمال. قيل إن المسؤولين عن المشروع سخّروا مليوني عامل جدد كل شهر.

فمن أين سخروا هؤلاء العمال؟

فلا خيار أمامهم سوى إرغام الرعايا على البروح من قرى سكنوها وحقول زرعوها جيلاً بعد جيل ليصبحوا عمال سخرة يعملون ليلاً ونهاراً.

أمر الإمبراطور سوي يانغ دي ببناء حديقة خاصة له بتسمية شي يوان في شرقي ضاحية مدينة لوه يانغ ليتنزه هناك. بلغت مساحتها مائتي لي مربع. كانت فيها بركة محيطها تقريباً عشرة ليات. بنى في البركة عدة جبال أسطورية بما فيها جبال ((بانغ لاي)) و((فانغ تشانغ)) و((يينغ تشاو)). كانت الجبال أرفع من سطح الماء بحوالى مائة تشي. إن الجواسق والأكشاك الجميلة منتشرة على الجبال مثل نجوم السماء والبنادق على رقعة الشطرنج. بدا كأن كل أنحاء جبال الفردوس على الأرض. كان البستانيون يصنعون أوراق الأزهار والبتلات من الحرير، ويربطونها بفروع الأشجار بعد سقوط الأوراق الحقيقية في الخريف والشتاء للحفاظ على منظر التفتح طوال السنة. إذا بهت لونها، استبدلوها بالجديدة حتى يبقى منظر الحديقة مثل الربيع دائماً.

حين جرى مشروع تشييد القصور الشرقية، سخّر الإمبراطور سوي يانغ دي أكثر من مليون عامل من جنوب نهر يانغتسي وشمال نهر ((هواي)) خه لشق قناة تونغ جي التي ربطت بين حديقة شي يوان في مدينة لوه يانغ وبلدة ((شان يانغ)) الواطئة على الشاطئ الجنوبي لنهر ((هواي)). في العام نفسه، سخّر عشرات الآلاف من العمال من جنوب نهر هواي خه لصرف قناة شان يانغ التي امتدت من مدينة ((جيانغ دو)) المعروفة اليوم بمدينة يانغ تشو بمقاطعة جيانغ سو إلى بلدة شان يانغ.

على هذا النحو شقت قناة جديدة خلال أقل من نصف سنة.

في عام 608 ميلادي أمر الإمبراطور سوي يانغ دي بشق قناة ((يونغ جي)) التي امتدت من النهر الأصفر جنوباً إلى محافظة ((تون جون)) شمالاً استغلالاً بالمصارف المائية لأنهار ((تشن شوي)) و((تشي شوي)) و((وي خه)). ثم تمّ شقّ نهر جيانغ نان ابتداء من ميناء جينغ كوة حتى مدينة يوخ انغ بعد عامين من ذلك. هكذا تشكلت قناة كبيرة بطول أكثر من أربعة آلاف لي تمتد من مدينة لو يانغ جنوباً إلى محافظة ((تون جون)) شمالاً وتربط الأنهار الكبيرة الخمسة أي النهر الأصفر ونهر هاي خه ونهر هواي خه ونهر يانغتس ونهر جيان تانغ جيانغ ومحورها العاصمة الشرقية – مدينة لون يانغ.

ها هي ما تعرف بقناة جينغ هانغ الكبرى الشهيرة.

هكذا حوّل الإمبراطور سوي يانغ دي فكرته في ذهنه إلى واقعٍ بلا أي قيد.

يصح القول إن قناة جينغ هانغ الكبرى من ناحية مشروع عظيم في تاريخ الصين القديمة عزّز الرابطة بين الشمال والجنوب مما أسهمت مساهمة للبلاد في الوقت اللاحق، لكن من ناحية أخرى، تمّ بناء القناة على حساب سفك دماء جماهير الشعب ودموعهم. بعد أن تمّ شقّ القناة، همّ الإمبراطور سوي يانغ دي بجولاته الهائلة.

في خريف عام 605 ميلادي لم يمر على تدشين قناة تونغ جي حتى رأس الإمبراطور سوي يانغ دي طابوراً طائلاً من أتباعه للجولة في مدينة جيانغ دو. كانت السفينة التينية التي ركبها الإمبراطور مهيبة ورائعة لغاية الطول والارتفاع. بني عليها قصر متزين بزخارف فاخرة أي فخارة. كانت السفن التي ركبها حظايا الإمبراطور والأرستقراطيون والمسؤولون تلازم سفينة الإمبراطور. كانت هذه السفن تتلاصق بعضها ببعض حتى بلغ طولها بالجملة أكثر من مائتي لي. عندما جنى الليل عليها، أمست السفن مشعشعة بالأنوار في دقات الطبول. يا له من بهاء!

أمر الإمبراطور سوي يانغ دي في أثناء جولته المسؤولين المحليين بإعداد ما طاب ولذّ له. كيف أعدوا الأطعمة؟ ما هو إلا إجبار رعاياهم على ذلك. إن المسؤولين عاجزون عن أكل جميع الأطعمة فجعل أناساً يحفرون حفر كبيرة بشاطئي النهر ليتركوا بقية الأطعمة فيها. فريق الجولات للإمبراطور مثل أسراب الجراد تؤدي العاهات أينما تأتي. تضررت جماهير الشعب منها كثيراً حتى

بعضهم صرفوا جميع ممتلكاتهم من أجل تنفيذ الأوامر. كلما أخذ الإمبراطور سوي يانغ دي جولة في مدينة جيانغ دو، أنفق أموالاً لا تحصى، واشتكى عامة الشعب بمرارة.

لكن لم يبال الإمبراطور المتقلب سوى نفسه.

ذات مرة قرّر القيام بجولة في الشمال عن الطريق البري.

كانت جماهير الشعب تربط لياليها بالنهر في تعبيد الطرق وتشييد السور استعداداً لهذه الجولة، بيد أن الإمبراطور سوي يانغ دي زار الحدود الشمالية برهة، ثم غادر رأساً ومباشرة. كان الحرفي البارع يو ون كاي بنى للإمبراطور سوي يانغ دي قصراً متحركاً مؤقتاً بحكم عدم وجود القصور في المناطق على طول جولة الإمبراطور. يمكن للقصر أن يتحرك بحرية بفضل العجلات المركبة على أسفل القصر والتي قابلة للإزاحة والنقل إذا لزم الأمر، عليه فأطلقوا على القصر بالقصر المتحرك بالرياح. إنه من أقدم المنازل المتحركة في العالم.

لم يكتفِ بالجولات طوال السنة. لكي يظهر قوة جيشه، شنّ ثلاث حروب على مملكة كوريو. غزا جيش سوي مملكة كوريو عام 612 لأول مرة بقيادة إمبراطور سوي يانغ دي. تعرض لهزيمة نكراء من جراء مقاومة جيش كوريو وأهلها. في العامين التاليين اعتدى الإمبراطور سوي يانغ دي على كوريو مرتين لكن انتهى به المطاف إلى وقف الحرب بسبب الاضطراب الداخلي.

قام الإمبراطور سوي يانغ دي في عمره ببناء القصور الشرقية، شقّ القنوات، الجولات في مدينة جيانغ دو ومداهمة كوريو، كلها ألحق بالجماهير كوارث جسيمة، مفضياً إلى تفكك الأسر وموت أفرادها. ها هي سلطة بلا قيود!

صحيح أن كل أفكار الإمبراطور سوي يانغ دي ترجمت إلى الواقع، إنما ذلك على حساب تضحية رعاياه أجمعين.

لو تسعى لتحقيق أحلامك وتلهث وراء رغباتك على حساب سعادة الآخرين فماذا يفعلون رداً عليك؟

النهوض والنضال بالطبع.

أخيراً لم تعد الجماهير تحتمل طغيانه فنهضت لتمرده. اشتعلت أول شرارة الثورة على أودية جبال ((تشانغ باي)) أي منطقة جنوب شرقي مدينة ((تسو بينغ)) بمقاطعة شان دونغ اليوم. ألّف وانغ بوه قائد جيش الثورة أغنية بعنوان «لا تذهبوا إلى لياو دونغ لتضييع حياتكم!» ليحث الناس على ألا يضحوا بأنفسهم لإرضاء رغبات الإمبراطور سوي يانغ دي.

تضرمت نيران الثورة على أغنية وانغ بوه في مقاطعة شان دونغ فمقاطعة خه بي. ثار ((دي ران))، ثار ((لي مي))، ثار ((دو جيان ده))، ثار ((دو فو وي))... سوف تقلب هذه الثورات هذه الإمبراطورية القصيرة تاريخها، فمن سيؤسس إمبراطورية جديدة على أراضيها؟

## 112

## أسس ((لي يوان)) وابنه إمبراطورية ((تانغ))

في عام 614 ميلادي، راحت أغنية شعبية تتداول على ألسنة أهل مدينة لوه يانغ. كان اسم الأغنية «الخوخ والبرقوق»، أو« ذبلت زهور الحور، وتتفتح زهور البرقوق»[16].

كان الأطفال يغنون الأغنية بصوت رقيق وجميل بين الشوارع والأرزاق. عندما سمعها ((لي شوان يينغ)) وهو مثقف عادي في ذلك الوقت، هرب من مدينة لوه يانغ وجاب بين جيوش الثورة في مختلف المناطق ليبحث عن ((لي مي)) رائد جيش الثورة على تل ((وا قانغ تشاي)). لماذا بحث عنه؟

السبب لأنه على يقين بأن أغنية «الخزخ والبرقوق» تنذر بأن لي مي هو الإمبراطور الجديد. لكن في الواقع، فإن من أباد إمبراطورية سوي هو ليس لي مي، بل لي يوان وابنه. لنرى كيف أخذا السيطرة على البلاد فيما يلي.

في عام 617 ميلادي عيّن الإمبراطور سوي يانغ دي لي يوان والي مدينة تاي يوان. ولد لي يوان في عائلة النبلاء وورث لقب أمير تانغ من أبيه، كما ربطت علاقة النسب عائلته بالعائلة الملكية. عندما تمّ تعيينه، كانت الثورات والاضطرابات تعصف بالبلاد. توافد الأبطال الثوار، واتقد لهب الثورة. من المكتوب أن هلكت إمبراطورة سوي، فماذا سيعمل لي يوان بكونه مسؤول لها. الحقيقة أن ابنه ((لي شي مين)) قد وطّد عزمه على الثورة في حين ما زال أبوه يتردد في اتخاذ القرار.

فكيف يقنع أباه؟

كان لي شي مين واسع الدهاء وحاسم القرار يتحلى بالشجاعة الجبارة. في ظلّ الأوضاع الفوضوية، نشأ في ثناياه الطموح في السيطرة على البلاد. كان يحب مصادقة الأصحاب في الأيام العادية، بمن فيهم ((ليو ون جينغ)) ولي محافظة ((جين يانغ)) الذي يمتاز بالذكاء والكفاءة. سبق أن زجّ به في السجن لعلاقة النسب بين ولي مي الرائد لجيش الثورة.

لما علم لي شي مين بهذا الخبر، تسارع إلى الزنزانة لزيارته.

قال ليو ون جينغ: يقود الاضطراب عصرنا هذا، لا يهدئه سوى الأبطال الحقيقين مثل ((ليو بانغ)) الإمبراطور العظيم ((هان قاو تسو)) و((ليو شيو)) الإمبراطور هان قوانغ وو. ردّ عليه لي شي مين: ألا يوجد في عصرنا أمثالهما؟ إنما ما من أحد يعرفهم. جئتك اليوم لأناقشك عن الثورة. ما نصائحك؟

قال ليو ون جينغ: الآن ما زال الإمبراطور سوي يانغ دي في جولاته عند الجنوب، ويحاصر جيش لي مي العاصمة الشرقية، كما ينتشر في البلاد عشرات الآلاف من السراق. إذا كان إمبراطور حكيم يقودهم، فستكون السيطرة على البلاد أمراً بسيطاً. إن أهل مدينة تاي يوان يختبئون في بيوتهم تجنباً للسراق. كان اشتغل والي المحافظة لسنوات وآلف إلى الأبطال منهم. إذا تضمهم إليك بلغ عددهم مائة ألف. لا تنسى عشرات الآلاف من الجنود لجيش أبيك. إن يتجمعوا فمن يقدر على محاربتهم؟ طالما دخل الجيش الكبير شانهايقوان منتهزاً للاسترخاء مما دفع قوات سوي لتتحكم في البلاد جمعاء. لن تمر نصف سنة على ذلك حتى تصبح إمبراطوراً جديداً.

ضحك لي شي مين سورا وقال لصديقه: هذا ما يدور في ذهني!

فبدأ يخطط سرًّا. قام بالتجنيد وشراء الأسلحة والعتاد العسكري. كان ينزعج طويلاً من التردد خشية أن يرفض أبوه الثورة، حين باغتت قومية ((تو جويه)) محافظة ((ما يي)). أرسل لي يوان جيشاً للتصدي لها، وباء بالهزيمة. حينما كان لي يوان يتوجس من عقوبة الإمبراطور سوي يانغ دي اقترح لي شي مين قائلاً: يا أباه! إن الإمبراطور فاسق ومتفتك، بينما الشعب يعاني من الشظف والفقر، لِمَ لا نثور وتتمرد تلبية لنداء الشعب؟

اندهش لي يوان. حدّق إلى ابنه يقول له مهدداً: كيف صدر من فمك هذا القول؟ إنه خيانة الإمبراطورية! سأخبر البلاط فوراً ليقبض عليك! لم يخف لي شي مين أصلاً. قال على مهله: إذا

تود حقاً القبض عليّ فلن أتفادى وأنت أبي.

ما كان للي يوان إلا صبّ غضبه. إن لي شي مين من صلب نفسه. كيف يكون قاسياً إلى هذا الحد؟ سامحه بلين: كيف أتهم بك أمام البلاط وأنت ابني؟ لكن احذر من القول مثله.

فشل لي شي مين في إقناع أبيه. ماذا يفعل بعد ذلك؟

زار أبيه في اليوم التالي ليخاطبه. قال: أمرك الإمبراطور بقمع الثوار وهم منتشرون في كل تل من أراضي البلاد. كيف تنفذ المهمة المستحيلة؟ كيف تبرر نفسك أمام الإمبراطور الشكاك فطرياً؟ أتوقع نفسك في ورطة؟ إن الثورة هي الحل السليم الوحيد فلا تتردد عليه يا أبتاه!

لم يغضب لي يوان هذه المرة. لجأ إلى الصمت لفترة، ثم شدّ نفساً عميقاً. تلفظ ببطء: تفكرت وتبصرت طوال ليلة أمس فوجدت أن كلامك لا يخلو من السواط. فلنتمرد. الآن أعلق حبل مصير عائلتنا عليك أنت يا ابني.

اقتنع بالثورة أخيراً.

فأطلق لي يوان سراح ليو ون جينغ، واستدعى ((لي جيان تشانغ)) ابنه الأكبر و((لي يوان جي)) ابنه الرابع للإعداد لرفع قوات العصيان على إمبراطورية سوي. أزاح نائبي وليي مدينة تاي يوان واللذين كانا مسؤولين عن مراقبته كما اقترحه ليو ون جينغ عليه. ثم أهدى قومية تو جويه هدايا ثمينة لاستعارة جنود منها. بعد أن تمّ كل ذلك، أعلن لي يوان أنه الجنرال الكبير وعيّن لي جيان تشانغ ولي شي مين القائدين الأعليين وليو ون جينغ دا سي ما (المستشار الأول)، فقاد ثلاثين ألف عسكري نحو مدينة ((تشانغ آن)) من اتجاه الغرب. لاقى عقبة في بادئ الأمر.

في محافظة ((هوه يي)) المعروفة اليوم بمحافظة ((هوه شيان)) بمقاطعة ((شان شي)) قابل جيش لي يوان التصدي الشديد من قبل ((سونغ لاو شنغ)) أحد قادة جيش سوي. كان المطر الغزير يعرقل نقل المؤونة لعدة أيام، واغتنم سونغ لاو تشانغ هذه المناسبة لنشر الشائعات أن قومية تو جيوه ستهاجم مدينة جين يانغ، مما هال لي يوان الذي خاف من الفشل فاحتلال هوه بحيث يعجز الجيش عن التقدم، كما خشي من احتلال جيش تو جويه لمدينة جين يانغ بحيث سدّ طريقه للعودة. إذا كان الأمر كذلك، احتار أيما حيرة.

فبدأ بالانسحاب.

لكنه من السخف أن ينسحب في تلك اللحظة. نصح لي شي مين ولي جشان تشانغ أباهما معاً حتى تخلى عن خطة التراجع وصمّم على قهر جيش سونغ لاو شنغ. لكسر تشكيل جيش سوي القتالي، أوجد لي يوان وابناه حيلة: قاد لي يوان جيشه لاستفزاز سونغ لاو شنغ الذي ردّ تحدي لي يوان مستخفاً به، في حين باغته من خلفه فريق من الجنود على رأسه لي شي مين وقتله.

فاستولى لي يوان وابناه على مدينة هوه يي، الأمر الذي عبّد طريقهم إلى مدينة تشانغ آن.

في الوقت نفسه، شكلت ابنة لي يوان جيش النساء للانضمام إلى ركبه. هكذا تعاظم جيشه وسرعان ما أسقطت مدينة تشانغ آن. أبطل السياسات الفظة، نصّب يانغ ييو حفيد الإمبراطور سوي ((يانغ دي)) البالغ عمره الثالثة عشرة فقط إمبراطوراً دمياً، وأبدى بتبجيله للإمبراطور سوي يانغ دي باعتباره جلالة أبي الإمبراطور بلا سلطة حقيقية تحاشياً للتهمة بالخيانة وسعياً لكسب تأييد الشعب. في عام 618 ميلادي خلع لي يوان الإمبراطور الدمي عن عرشه ونصّب نفسه إمبراطوراً واختار مدينة تشانغ آن عاصمة جديدة حالما سمع باغتيال الإمبراطور سوي يانغ دي في مدينة جيانغ دو. أسس إمبراطورية تانغ.

فكيف اغتيل الإمبراطور سوي يانغ دي المتصرف بلا قيود؟ لنبحث عن الجواب معاً في مدينة جيانغ دو.

# 113
# احتلال لي شي مين لمدينة جيانغ دو بحيلة

لقد تنبأ الإمبراطور سوي يانغ بنهايته في مدينة جيانغ دو.

كان يعربد ويغتبط ليلاً ونهاراً بين الحسناوات والشراب وودّ أن يغرق في حلمه السرمدي، غير أنه على دراية بالفوضى والنيران خارج قصره. إن الاضطراب الدفين عذبه ونكّله. كلما كان لديه وقت فارغ، ارتدى الملابس الخفيفة للتمشي بين الأكشاك والجواسيق متكئاً على عكازه حتى خيّم الليل عليه.

كان كل من الجبال والمياه والمباني والجواسق يجمل غاية الجمال، لكن إلى متى سيتمتع بجمالها؟

في بعض الأحيان خفّف عن نفسه، حادث الإمبراطورة ((شياو)): أعرف أن كثيراً من الناس يطمعون في عرشي. لكن لا بأس، فعلي فرض أن أفقد السلطة، ما زلت أحيز ثروتي. فلنشرب ونفرح.

هل يمكنه التمتع بثروته أبداً؟ عرف الإمبراطور سوي يانغ دي نفسه أنه مستحيل. ذات مرة رفع مرآة نحاسية ينظر إليها، ولمس رقبته الملساء والبيضاء ملتفتاً إلى الإمبراطور شياو: ما أجمل الرأس! من سيقطعه؟ فوجئت بكلامه بعض الشيء فسألته لم تحزن هكذا؟ لوّح بيديه متنهداً: قد يجرب الإنسان في حياته كلاً من الشقاء والرفاه، كما قد يذوق كلاً من المرارة والعذوبة. فما لي أحزن؟

من قتل هذا الإمبراطور؟

القاتل ليس لي مي أو دو جيان ده أو دو فو وي. لم تقتله الجيوش الثائرة، بل جيش الحراس الملكي الأقرب منه. كما نعلم، اندلعت الثورات في مختلف المناطق في أواخر أسرة سوي، مما أوقع إمبراطورية سوي على حافة الهلاك. ما زاد الطين بلّة أن لي يوان استولى على مدينة تشانغ آن. كل ذلك ألحق بإمبراطورية سوي ضربة فتاكة. أما الإمبراطور سوي يانغ دي، فلم يعد قادراً على إنقاذ إمبراطوريته، فلجأ برفقة حفاظاه إلى مدينة جيانغ دو حيث عاش حياة فاسدة.

معه فريق من الحراس الذين كانوا يتموجون بالغضب بسبب انغماس الإمبراطور سوي يانغ دي في الشراب والمآدب. كان معظمهم أهل قوان تشانغ يأبون البقاء في مدينة جيانغ دو توقاً إلى مسقط رؤوسهم. اكتشف قائدهم يو ون هوه جي ما يجثم على صدرهم، فقادهم ليلتفوا على الإمبراطور سوي يانغ دي.

تملكه الغضب. سألهم بلهجة ساخطة: ما ذنبي وتعاملوني بهذا الخبث؟

عدد ((ما ون تشوي)) أحد الحراس أعمال الإمبراطورية الإجرامية أمامه مجاهراً: تحب الجولات وتفرط في البحبوحة. تثق بالأشرار وترفض النصائح. قمت بالفتوحات بلا توقف بحيث قتلت الرجال في ساحة القتال والنساء والأطفال في الحفر والخنادق. كل ذلك من جرائمك.

أطلق زفرة طويلة لما سمع كلامه هذا وقال: إن علي دين للشعب. لكم دائماً ما أحسن معاملتكم. من زعيمكم؟

ردّ الحراس عليه باحتقار: لا يبغضك زعيمنا فحسب، بل كلنا نحقد عليك.

لم يعد قادراً على تبرير نفسه. قتل الطاغي مخنوقاً، مما أشهر بنهاية أسرة سوي.

إن التاريخ تمتلئ بالصدفة في بعض الأحيان. قبل حوالى ثلاثين عاماً بذلك، اقتحم جيش سوي بقيادته مدينة جيان كانغ حيث أباد مملكة تشان الجنوبية، أما الآن فتكرر مصير تشان شو باو عليه لأصبح إمبراطوراً مخلوعاً.

لما ذاع خبر موت الإمبراطور سوي يانغ دي نصّب ((وانغ شي تشانغ)) مسؤولاً لإمبراطورية سوي في مدينة لوه يانغ حفيد إمبراطور سوي يان – ((يانغ تونغ)) – إمبراطوراً جديداً لمواصلة التصدي للجيوش الثائرة. لم يمر على ذلك إلا قصير حتى صار متكبراً فنصّب نفسه

ملكاً وأسس مملكة ((تشانغ)). في عام 620 ميلادي هاجم جيش لي شي مين مدينة لوه يانغ. كان لي شي مين وقتها قد حشد مجموعة من الأبطال البسلاء بمن فيهم ((تشين شو باو)) و((تشانغ ياو جين)) و((يو تشي جينغ ده)). ذات يوم عرف وانغ شي تشانغ أن لي شي مين يتجول عند الجبهة الأمامية ومعه خمسمائة فارس فحسب. أرسل عشرة آلاف فارس على الحال لمفاجأته ظناً منه أن ذلك فرصة مواتية لنزعه. في لحظة استعد ((شان شونغ شين)) قائد جيش تشانغ على مداهمة لي شي مين، أطلق يو تشي جينغ ده صراخاً مدوياً فطعن شان شونغ شين الذي سقط عن ظهر حصانه قتيلاً.

استغل جيش تانغ هذه المناسبة لهزم العدو بأكمله.

منذ ذلك الحين تقوقع جيش تشان في مدينة لوه يانغ رافضاً مواجهة جيش تانغ مهما كان استفزازه. مع مرور الأيام، راح عسكريو تانغ يفكرون في العودة. قالوا للي شي مين، طالما هجمنا على مدينة لوه يانغ بلا جدوى، فمن المستحسن أن نرجع إلى مدينة تشانغ آن أولاً، ونعيد الهجوم لاحقاً. إنما رفض لي شي مين بشكل قاطع: إن مدينة لوه يانغ قد أصبحت مدينة معتزلة. إن النصر على الأبواب، فلا تتقاعسوا!

لأجل طمأنة العسكريين أردف: لن نتراجع إلا بعد احتلال مدينة لوه يانغ.

اشتد حصار لي شي مين على ون شي تشانغ الذي اضطر إلى الاستعانة بدوه بجيان ده رائد جيش الثورة في مقاطعة خه بي. كان دوه قد نصّب نفسه ملكاً لمملكة ((شيا)) نفوذه واسع في المنطقة. وافق على مساندة دوه إذ إن بنيته أن يتعاون مع ون شي تشانغ للتغلب على جيش تانغ. أرسل حوالى عشرة آلاف جندي وفارس لإنقاذ مدينة لوه يانغ، كما أرسل لي شي مين اقتراحاً له على الانسحاب.

لما اطلع عسكريو جيش تانغ على قدوم جيش شيا مددا لوانغ شي تشانغ، خيّم عليهم الخوف والروع، فدعوا إلى التراجع بكل مستطاعهم. تأمل لي شي مين طويلاً حتى توصل إلى القرار على سدّ جيش دوه جيان ده الذي جاء من الشمال لئلا يلتقي بجيش تشانغ. عليه، فوكل لي يوان جي على مواصلة الحصار على جيش تشانغ، أما هو، فقاد ثلاثة آلاف فارس متجهاً إلى قلعة وو لاو بحيث استعد على اعتراض جيش شيا.

احتل لي شي مين القلعة التي لم يسقطها جيش شيا بعد محاولات عدة، إنما لم يخب أمل دوه جيان ده وقام بالهجمات بشمل قواته واثقاً من كثرة جنوده ووفرة قواهم، بينما كان لي شي مين المختبر في القيادة قد اكتشف نقطة الضعف لجيش دوه جيان ده. باح لعسكره بأن «دوه تائه في غطرسته. خير خيار لنا أن نبقى ونتركه يستنزف قواته. من ثم سنهزمه سريعاً».

طال استعداد جيش شيا على محاربة جيش تانغ، إنما ظلّ الآخر بالقلعة رافضاً مواجهته.

أنهكت قوة جنود شيا وذبلت معنوياتهم برويدة. أدرك لي شي مين أن آنه قد آن. أمر جيشه بالهجوم مفاجئاً على غفلة جيش شيا الذي انهزم سريعاً وأُسر قائده دوه جيان ده.

لما تناهى خبر هزيمة جيش دوه إلى وانغ تش تشانغ الذي كان في أمس الانتظار إلى المدد، وعي بفشله الحتمي. فبادر إلى الاستسلام لإمبراطورية تانغ، وتابعته كل المحافظات والبلدات بمقاطعة خه بي. في حين استسلمت مناطق ((جيانغ شي)) و((لينغ نان)) لإمبراطورية تانغ، تزعم ((ليو هي دا)) سائر أتباع دوه جيان ده للقيام بالتمرد في منطقة ((تشانغ نان)). أخمدته إمبراطورية تانغ بعد ثلاث سنوات.

فعند هذه اللحظة، حلت إمبراطورية تانغ محل إمبراطورية سوي نهائياً لحكم كل البلاد.

# 114
# انقلاب بوابة ((شوان وو))

أخيراً، رمى لي شي مين السهم خارج بوابة شوان وو.

في ضياء الصباح، بهبات الرياح، اتجه السهم صوب الرجل المذهول على ظهر حصانه، هادراً، وأصابه. زمزم الدم الأحمر من ثوبه، قبل سقوطه على الأرض. ذاع صوت خالياً من صدمة جسمه بالأرض، إلى آذان لي شي مين، الذي ظلّ يحملق بالقتيل – أخوه لي جيان تشانغ.

لم يكن له لينسى المشهد المصبوغ بدم أخيه، أبداً.

لماذا قتل أخاه؟ لنرى فيما يلي. ففي بحر التاريخ ظهرت موجة تلو أخرى. لم تمر على انطفاء نيران الثورات إلا برهة حتى اهتاج الاضطراب داخل العائلة الملكية. وقع انقلاب بوابة شوان وو. فبعد اعتلاء لي يوان الإمبراطور تانغ قاو تسو عيّن لي جيان تشانغ ابنه الأكبر والي العهد، ولي شي مين أمير تشين ولي يوان جي أمير تشي. إن لي جيان تشانغ قديم العهد بأن لي شي مين صاحب المآثر الحربية يخلص له كثير من الأكفاء بما فيهم الأذكياء مثل ((فانغ شوان لينغ)) و((دو رو هوي))، والأبرياء مثل يو تشي جينغ ده وتشين شو باو وتشانغ ياو جين. كان مذعوراً من خطف لي شي مين عرشه في المستقبل. لذا، تآمر مع لي يوان جي لنزع لي شي مين.

بدأ الإخوان يأكلون لحم بعضهم البعض.

لم يذخر لي جيان تشانغ بأمواله على حظايا لي يوان متودداً إليهن، على أمل أن تزكّينه أمام أبيه. أما لي شي مين فلم يفكر في إهدائهن قط. بعد أن احتل مدينة لوه يانغ العاصمة الشرقية طلبت حظايا لي يوان منه المجوهرات والأحجار الكريمة من إمبراطورية سوي. رفضهن رفضاً قاطعاً.

على هذا النحو، تعجبن بلي جيان تشانغ سخائه، بينما كرهن لي شي مين بخله. فبدأن يتحدثن بالسوء عن لي شي مين أمام أبيه لي يوان.

الأسوأ من ذلك، ظلّ ولي العهد وأمير تشي ينتظران فرصة لاغتيال لي شي مين. ذات مرة رافق ثلاثتهم والدهم لي يوان للاصطياد خارج المدينة. ترك لي جيان تشانغ خيلاً عاصي الطبيعة للي تشي مين. ما لبث أن صعد على ظهره حتى سقط على الأرض. لو داسه الخيل بحوافره، لفقد حياته. في مرة أخرى، دعاه لي جيان تشانغ إلى حضور مأدبة في القصر الشرقي حيث وضع سماً في كأس الخمر. بعد أن شرب لي شي مين كؤوساً عدة، أصابه وجع لا يحتمل في بطنه. لما عاد إلى منزله، بصق الدم دون توقف حتى كاد يموت. لحسن الطالع، جاء الطبيب الملكي في أوانه وأشربه الترياق حتى أنقذ حياته.

في ظلال قسوة لي جيان تشانغ، حثّ فانغ شوان لينغ ودو رو هوي وغيرهما من المستشارين أن يسارع لي شي مين في نزع والي العهد وأمير تشي دون التردد متأثراً بأواصرهم، لضمان أمنه في المستقبل. كان فانغ شوان لينغ واسع الذكاء، في حين كان دو رو هوي حاسم القرار. عليه، كان يطلق عليهما بـ «فانغ الذكي، ودو الحاسم». ظلّ لي شي مين يعير ثقة عميقة بكلاهما، لكن بخصوص اقتراحهما هذا، تردد فتردد. أليس أمامه خيار آخر سوى اعتلاء العرش بنفسه وذلك على حساب سفك دماء أخيه؟

ودّ لي شي مين التنازل، لكن أخاه لي جيان تشانغ بالعكس. لما عرف أن الخمر السام لم يقتله، دبّر مكيدة أخرى مع لي يوان جي. كانا يعتقدان أن قادة الجيش الأبطال للي شي مين مفتاح نجاحه، فقررا رشوتهم وكسب تأييدهم بقصد «قطع أجنحة لي شي مين الصقر الكاسر». أهدى لي جيان تشانغ عربة من الفضة والذهب والمجوهرات إلى يو تشي جينغ ده، كما أرسل إليه رسالة راجياً مصادقته. إن يو تشي جينغ ده حري بوصفه المخلص، فلم يرفض الهدايا وحسب، بل صارح حامل الرسالة بصرامة: فضل سمو أمير تشي عليّ مثل جبل شاهق لا أعرف كيف أعوّض عنه. لن أكون خائناً أبداً. أما بالنسبة للهدايا، فمن الأحسن أن تعيدوها لوالي العهد. لم أعمل له، فكيف أقبل جزاء منه؟

فشل لي جيان تشانغ في ارتشائه، فعزم على قتله. لكن ذاع صيته بالبسالة وانتشرت سمعته بالقوة إلى درجة أن القاتل الذي أرسله لي يوان جي أمير تشي لم يجرؤ على دخول غرفة نومه فعاد

خوفاً.

عام 626 ميلادي حينما كان لي جيان تشانغ ولي جوان جي يفكران في نزع لي شي مين عابسي الوجوه، اعتدت قومية تو جيويه على السهول الوسطى. اعتبر لي جيان تشانغ غزوة تو جويه فرصة سانحة لإيهاب قوات لي يون جي، وعيّنه القائد الأعلى، وطلب من الإمبراطور قاو تسو أن يضع الجنرالات الثلاثة – يو تشي جينغ ده وتشين شو ياو وتشانغ ياو جين تحت قيادته.

فقرر والي العهد على وضع كمين لاغتيال لي شي مين عندما يودّع الجيش.

كان الخطر على الأبواب. كيف يتعامل لي شي مين مع ذلك. لقد أدرك أن الوضع قد أصبح للغاية خطر عليه فاستدعى ((تشانغ سون وو جي)) ويو تشي جينغ ده لإيجاد الحل، حيث أجمعا على نزع والي العهد وأمير تشي قبل اتخاذ خطتهما. كان لي شي مين لم يحزم عزمه نظراً لأواصرهم. قال متنهداً: إن التقاتل بين الإخوة أبغض أمر منذ القدم. أعرف أن الخطر على الأبواب، لكن ألا يمكنني أن أعمل بعد قبل أن يعملان؟

نظراً لرأفة أمير تشين، تكلم يو تشي جينغ ده – المحارب بانفعال: أن ملنا ولد بالحب للعيش والخوف من الموت ونحن إنسان. ألا نخاف الموت؟ لكن الآن نتغلب على خوفنا من الموت لنتبعك، إذ نأمل أن ننجز مآثر بمشيئة السماء؟ لقد أصبحت النازلة وشيكة بينما ما زلت لا تتحرك خالياً من الهموم. ممكن ألا تبالي بسلامة نفسك، إنما هل يمكن ألا تبالي بسلامة بلادك؟ إن مضيت في التردد دون قبول نصيحتي، فوداعاً! ستراني أتخفى في خلاء نائية حتى لا أموت هنا ضحية لك.

تابعه تشانغ سون وو جي قائلاً: إذا لم تفعل بنصيحة يو تشي جينغ ده، فارقت عنك معه.

وطّد أمير تشين عزمه أخيراً.

رفع أمير تشين لي شي مين رسالة إلى الإمبراطور قاو تسو في ذات الليلة، فيها يوشي بأن والي العهد وأمير تشي يتآمران على الفتك به. لما قرأ الإمبراطور الرسالة قرّر القيام باجتماع البلاط في الصباح التالي للتدقيق بالأمر مع لي جيان تشانغ ولي يوان جي. حين بزغ الصباح، أرسل لي شي مين بو تشي جينغ ده وتشانغ سون وو جي بأن يكمنا مع فيلقهما في بوابة شوان وو للي جيان تشانغ ولي يوان جي. فإذا يعمدان إلى البلاط، فلا بد أن يمرا ببوابة شوان وو.

كانا يمران بالبوابة على حصانيهما للقاء الإمبراطور كالمعتاد.

فإذا بالإحساس الغريب ركبهما عند وصولهما إلى قصر ((لين هو))، مما جعلهما يعتزمان الرجوع. وقتما همّا بالعودة رأيا أمير تشين يقصدهما على حصانه هاتفاً: يا سمو الأمير، لا تعدو! لما أبصر القوس على ظهره، أخذ أمير تشي قوسه للتو بهلع وأطلق ثلاثة سهام رامياً إلى لي شي مين أمير تشين لكن كلها لم تصبه. كان لي شي مين على تمام الاستعداد للتصدي. شدّ وتر قوسه بسرعة، فطار السهم ليصيب لي جيان تشانغ بدقة، كما ذكرنا في بداية الفصل.

في الوقت نفسه أخذ جو تشي جينغ ده قوسه فقتل لي يوان جي أمير تشي.

تسارع أتباع لي جيان تشانغ إلى الموقع لمحاربة قوات أمير تشين على علم بما حصل. قاومهم لي شي مين عند بوابة شوان وو وأمر يو تشي جينغ ده بإشعار الإمبراطور قاو تسو بحالتهم. لما أبصر الإمبراطور يو تشي جينغ ده يستعجل إليه سأله فعرف بمقتل لي جيان تشانغ ولي يوان جي. لاذ بصمت خانق أمام المشهد الدموي للتقاتل بين أبنائه، في حين نصحه ((شياو يو)) الوزير الأول: لم ينجز ولي العهد وأمير تشي أي شيء في الماضي، بل لم يعملا شيئاً سوى الغيرة من أمير تشي. الآن حان الوقت لتنصيب أمير تشي والي العهد الجديد. لقد أدرك الإمبراطور أن النتيجة قد أصبحت في حكم المقرر، فأجهر بجريمة والي العهد وأمير تشي رغم حسرته المحترقة. سرعان ما تنازل عن عرشه للي شي مين.

على هذا النحو تقلّد لي شي مين العرش على حساب أرواح إخوانه.

لم يتهاون في أداء واجباته كإمبراطور ولو هنيهة طوال عمره. شهدت إمبراطورية تانغ عشرات السنين من الاستقرار والازدهار في حقبة حكمه. ففي أعين الناس العاديين، فطالما يمكنهم أن يعملوا في حقولهم عند المشرق، ويرجعوا إلى بيوتهم عند المغرب، ويناموا نوماً حلواً تحت ضوء القمر في الطمأنينة، فذلك جدير بالاحتفال. لقد عانوا مما لا يحتمل من الحرب والاضطراب!

# 115

# إحراز ((شيوه رن قوي)) بصر معركة جبل ((تيان شان)) بالثلاثة سهام

دائماً ما نشيد بمجتمع تانغ المزدهر، فهل تعرف كيف كانت ملامحه؟

رأينا المسؤولين المستقيمين والرهبان الحكماء من القصص السابقة الذكر، غير أن ذلك ما هو إلا ركن صغير من أركان مجتمع تانغ المزدهر، الذي كان يتمتع بثروة هائلة، يتحلى بالأراضي الشاسعة، ويتسم بالشمول والافتتاح ويتصف بالثقة الحضارية القوية.

إن الثروة الهائلة تنعكس فيما وصفه ((دو يو)) في كتابه «يونغ ديان (كتاب التاريخ)»، حيث تناول أنه في مجتمع تانغ المزدهر، لم يبلغ سعر الأرز إلا أربعة أو خمسة تشيانات بداو[17] واحد. كان قطيع من الأبقار والأفراس منتشر على الحقول والجبال، ومن الممكن أن يترك الناس أبواب منازلهم مفتوحة دون الخشية من السرقة؛ تنعكس فيما تاق الشاعر ((دو فو)) إليه في شعره «الشوق إلى الماضي» حيث كانت بلدة صغيرة تحتضن عشرة أُسر، وكانت أكوام الأرز الناصعة البياض أشبه بسيل الدهن، وإن الخزائن العامة والخاصة كلها مملوءة بالحبوب.

وإن الأراضي الشاسعة تدوّن في الكتاب التاريخي «تسي تشي تونغ جيان» بقلم ((سي ما قوانغ))، حيث امتدت الأراضي 9,510 لي من الشرق إلى الغرب، و10,918 لي من الشمال إلى الجنوب، عليها القصور الملكية الملفوف عليها بالسور بما فيها قصر ((دا مينغ)) الكبير، والحدائق الملكية، والمعامل المائة والثمانية في مدينة تشانغ آن، كما ورد في «رسم ملامح تشانغ آن» بقلم الرسام ((لي هاو ون)).

إن الشمول يتجسد في الكلام البطولي للي شي مين الإمبراطور تانغ تاي تسونغ: كل الدنيا بيتي. في عصر تانغ المزدهر، كان التجار يتوافدون إلى إمبراطورية تانغ من المناطق الغربية

ومممالك ((دا شي))[18] والفارس و((تيان تشو))[19] ، كما كانت اليابان ترسل بعثة إليها للتعلم. سبق لوانغ وي أن أنشد في شاعره مظهر تسليم مبعوثي عشرة آلاف بلد على إمبراطور تانغ احتراماً له، كما وصف ((لي باي)) نفسه في شعره «رحلة الشباب» أنه كان يجري على البتلات الساقطة قاصداً للخانات حيث يشرب ويثمل بصحبة الجاريات الأجنبيات. كل ذلك يدل على أن تسامح إمبراطورية تانغ جميع الناس، مهما كانت مأتاهم وتصرفاتهم.

وإن الانفتاح والثقة يتمثلان في الحبوب ودود القز والشاي والحرير والكتب التي أتت بها أميرة ((ون تشانغ)) إلى ((تو بوه))[20] ، وفي جهود الرهيب ((جيان تشان)) في نقل البوذية إلى اليابان بعد إبحاره ست مرات.

الآن سنرى سيرة قائد أسطوري كان يبهر عصره.

ألا وهو شيوه ران قوي. كان من مواليد ((لونغ من)) بمدينة جيانغ تشو. إنه يشتهر ببسالته في المعارك وذاع صيته مبكراً في حقبة ((تشان قوان)) حيث كان لي شي مين يقود الجيش لفتوح منطقة لياو دونغ. في أثناء الفتوح جند شويه ران قوي الذي سجل مأثرة جليلة رغم انعدام الخبرة السابقة.

عندما كان الجيش يمر بمدينة ((آن دي)) وقع ((ليو جون تشيونغ)) أحد القادة في حصار العدو. كان الجميع يحتار بلا معرفة كيفية انتشاله. لما اشدت حال ليو، تبادر شيوه ران قوي إلى اقتحام في جيش العدو وقتل أحد قادة جيشهم. علق رأسه على سرجه مما هال جنود جيش عدوه حتى استسلموا واحداً تلو الآخر.

وانتشرت سمعته بعد هذه المعركة.

حينما وصل جيش تانغ مدينة ((آن شي)) أرسلت مائتين وخمسين ألف عسكري للتصدي على رأسهم كويانسو (고연수) وكوهيجين (고혜진). أمر الإمبراطور تانغ تاي تسون بالهجوم بأربعة اتجاهات باعتبار أنهم يرابطون على الجبال. كان شويه رن قوي أول من اقتحم إلى القتال وهو حامل رماحاً طويلة ومرتدٍ عباءة بيضاء، والقوس مربوط بحزام خاصرته. كان يلوح برماحه صائحاً مثل شبح أبيض يتنقل في ساحة القتال حتى لو لم يكن أحداً قادراً على مقاتلته. أينما أتى انكسر جيش العدو.

بفضله ألحق جيش تانغ بعدوه خسارة فادحة.

أجال الإمبراطور تانغ تاي تسون عن بعد فرأى البطل الشجاع مثل الشبح الأبيض المتنقل. لم يتمالك نفسه ليسأل مدهوشاً: من هو البطل المرتدي العباءة البيضاء؟

لما عرف أن شويه ران قوي أمطره بإطرائه له، وأهداه بخيلين وأربعين بي[21] من الحرير وارتقى به ليكون جنرال ((يو جي)) وصاحب منزل ((يون تشان)). على إثر رجوع الجيش، استدعاه وقال له: لقد تقدم أتباعي القدامى في السن، فظللت أختار القادة الشباب ذي الشجاعة والبسالة، وأنت أبرزهم. لا أحتفل بحصولي على أراضي ((لياو دونغ))، بل بحصولي عليك أنت!

ما لبث أن ارتقى به لشغل منصب القائد الأعلى للجيش اليمين. منذ ذلك بدأ جهاده في المعارك وحقّق إنجازات متعددة، أكثرها تناقلاً بين الناس هو استيلاؤه على جبل تيان شان بالثلاثة سهام.

عام 661 ميلادي طفقت القوميات الشمالية التسعة تتحرش أمن تخوم إمبراطورية تانغ التي كانت تحافظ على العلاقة الودية معها. في وقتها لقد توفي لي شي مين واعتلى العرش بعده إمبراطور ((تانغ قاو تسونغ)) الذي أصدر مرسوم تعيين ((تشانغ رن تاي)) بالقائد الأعلى وشويه ران قوي بنائب القائد الأعلى ليقمعا غزوات القويات التسعة.

أقام الإمبراطور تانغ مأدبة في قصره الداخلي توديعاً لهما، حيث قال لشويه ران قوي: قيل إن البارع في الرمي في قديم الزمان يقدر على نفاذ سبع طبقات دروع. فهيا إلى نفاذ خمس الطبقات بسهمك.

نهض شويه ران قوي وأخذ قوسه. انطلق السهم مع هزّة وتر القوس فخرق الدرع ذي خمس طبقات. فوجئ الإمبراطور بذلك وسرّ سروراً كبيراً، ومنح شويه ران قوي طقماً من الدروع الصلدة على الحال.

قاد تشانغ ران تاي وشويه ران قوي الجيش إلى جبل تيان شان حيث واجتههم القوميات التسع بجيش يشمل حوالى عشرة آلاف جندي. أرسلت عشرات الفرسان المختارين للتحدي. مجابهة

بهم، أطلق شويه ران قوي ثلاثة سهام أصاب ثلاثة فرسان أعداء بلا الأخطاء. تحجر سائر الفرسان في الروع والهول أمام كبريائه فاستسلموا واحداً تلو الآخر.

وشنّ جيش شويه الهجوم بمناسبة استسلام الفرسان وعرّض القوميات التسع لهزيمة ذريعة. طارد شويه ران قوي الجنون الهاربين عبور منطقة ((تشي بي)) الواقعة في شمال غربي هضبة منغوليا لاقتلاع جذور المتاعب المستقبلية حتى قبض على رئيسهم. لما رجع، لاقى وابلاً من تبجيل وتقدير من قادة الجيش والجنود، الذين كانوا يتناقلون مقالاً: أحرز شيوه بصر معركة جبل تيان شان بالثلاثة سهام.

تضاءلت قوة القوميات التسعة منذ ذلك الوقت، فتوقف تحرشهم على الحدود.

# 116
# إمبراطورة ((وو تس تيان))

كيف تسلس قيادة حصان شكس؟

قد تكون لدى الناس طرق مختلفة. هنا توجد طريقة واحدة: إخضاعه بالكرباج، المطرق أو الخنجر.

ربما ستتساءل في نفسك: كيف تستخدم الثلاثة لترويض الحصان؟ في الواقع، جاءت هذه الطريقة من امرأة مميزة في أسرة تانغ، وما يميزها أنها اقتحمت دائرة السلطة البطريركية وشقت طريقها بحيث أنجزت ما فعلته لا مثيل له قبلها وبعدها.

إنها أول مرة وآخرها فيها بلغت امرأة ذروة السلطة واعتلت عرش الإمبراطور في الصين. فلنروي سيرتها الفريدة.

إن هذه المرأة وو تس تيان واسمها الحقيقي ((وو تشاو)). من الجدير بالذكر أن الرمز الصيني «تشاو» الذي جزء من اسمها اخترع من قبل وو تس تيان بنفسها. بعبارة أخرى، لم يوجد هذا الرمز الصيني قبلها. إنما بسبب تأثيرها العميق، قد أصبح رمزاً صينياً لازم أن يعرفه بالنسبة إلى الباحثين في تاريخ تانغ. عندما كانت وو تس تيان في الرابعة عشرة من عمرها اختير ليكون «تساي رن» وتخدم الإمبراطور تانغ تاي تسونغ بجانبه بفضل رواء وجهها.

«تساي رن» بمثابة رتبة من رتب الحظايا في القصر الملكي.

امتلك الإمبراطور تانغ تاي تسونغ حصان يلقب بـ «خيل الأسد». كان قوي البنية، جميل الشكل، شكس الفطرة وصعب تطويعه. ذات مرة هازل الإمبراطور حظاياه: من طوعت الحصان منحته إياها مكافأة. لم يقدمن على الردّ المطروح من قبل الإمبراطور سوى وو تس تيان التي

تلفظت: أعطوني ثلاثة أشياء فبها أخضعه. سألها: فما هي الأشياء الثلاثة. ردت: الكرباج، المطرق والخنجر.

اندهش الإمبراطور من جوابها، فردّد قولها: تقدرين على تطويعه بالأشياء الثلاثة فقط؟

هزت رأسها مؤكدة وقالت بلهجة قاطعة: إن لم يخضع لي سطته بالكرباج؛ إن أصرّ على عصيانه ضربته بالمطرق؛ في حال لا يزال يتمرد أقطع رقبته بالخنجر.

لم يتمالك الإمبراطور عن الابتسامة. يا لها من بنت صريحة!

عام 649 ميلادي توفي الإمبراطور تانغ تاي تسونغ، أما وو تس تيان فأرسلت إلى معبد ((قان يه)) بمدينة تشانغ آن لتصبح راهبة هناك وفقاً لأعراف البلاط في عصرها. أتكتفي بقضاء بقية حياتها مع الشمعات وتمثال البوذا؟

في الحقيقة، كان الإمبراطور الجديد تانغ قاو تسونغ قد وقع في حب وو تس تيان الشابة والجميلة في حداثته. فبعد عامين من اعتلائه العرش فيها كان يتحرق في حنينه إليها طوال الوقت، استرجعها من المعبد، ما يعد نقطة التحول في مصيرها. جعلها «تشاو يي»[22] في الوهلة الأولى، وسرعان ما تمّ القران بينهما في أمواج من الأصوات المعارضة من المسؤولين القدامى. لما صارت وو تس تيان ملكة، بدأت تنتقم. خفضت مناصب هؤلاء المسؤولين القدامى ونفتهم واحداً واحداً، حتى تشانغ سون وو جي خال الإمبراطور تانغ قاو تسونغ اضطر إلى الانتحار.

بعد ذلك، تسلمت أكثر فأكثر من السلطة من الإمبراطور قاو تسونغ الذي كان يعجز عن معاملة شؤون الإمبراطورية بما يعاوده من الدوران والدوخة ناتجاً عن سكتته. كلما تذوقت مذاق السلطة، صغرت الإمبراطور. على إثر وفاته عام 683 نصب ابنيها ملكين على ترتيب وهما ((لي شيان)) الإمبراطور ((تشونغ تسونغ)) و((لي دان)) الإمبراطور ((روي تسونغ)). من البديهي أنهما قد عاقا أمهما عن التمسك بالسلطة، فأبطلت تشونغ تسونغ واحتجزت روي تسونغ، ثم تحكمت في شؤون الإمبراطورية في البلاط باسم الإمبراطورية الأم.

لا تنس أن الرجل سيد عصرها. كيف يمكن لامرأة أن تجشع في العرش؟ يتعين عليها البقاء في القصر الداخلي.

سبباً لذاك، لاقت وو تس تيان بعد تولي السلطة العليا السبات المتدفق من قبل كبار الوزراء والعائلات الملكية. قررت أن تخمد هذا السبات والشتيمة بقسوتها القارسة. كانت تأمل أن تواصل في ترقي السلطة. في عام 660 ميلادي أخذت تتدبر على خطف العرش تدريجياً. تفهم رهيب نواياها فزورت كتاباً كلاسيكياً بوذياً بعنوان «كتاب دا يون» فيه ادعى أنها تجسيد متر ايا في الدنيا وسوف تكون صاحبها جمعاء.

سرت بكل ذلك في ثناياها.

سرعان ما أصدرت «كتاب دا يون» في كل الإمبراطورية فبنت معابد دا يون في مدينة تشانغ آن ومدينة لوه يانغ. إلى هذا الحين أصبحت نيتها واضحة وضوح الشمس. فبدأ بعض المسؤولين يتوددون إليها سعياً للسلطة، وكان ((فو يو يي)) أحد مسؤولي «يو شي تاي» (بمثابة النيابة العليا اليوم) واحداً منها. رأس تسعمائة من عامة الشعب في منطقة قوان تشونغ لرفع رسالة إلى وو تس تيان فيها طالبوا باعتلاء العرش وتحويل تسمية الإمبراطورية إلى ((تشو)).

تظاهرت بالتنازل هذه المرة، لكنها ارتقت بمنصب فو يو يي فوراً. جاء نتاجاً عن ذلك أن مزيداً من المسؤولين طالبوا باعتلائها في رسائلهم لها حتى بلغ عددهم ستة عشر ألفاً. أخيراً لم تعد تتنازل. في سبتمبر عام 690 ميلادي نصّبت نفسها إمبراطورة ((شانغ شان)) وحولت تسمية الإمبراطورية إلى إمبراطورية تشاو. تحقق طموحه، وأصبحت أولاً وأخيراً إمبراطورة في تاريخ الصين.

بعد تقلدها مقاليد السلطة، واصلت تنفيذ سياسات إمبراطورية تانغ المتمثلة في الحفاظ على تركيز السلطة ووحدة الإمبراطورية وضبط عائلات المثقفين الكبرى وترقية المسؤولين الناشئين من العائلات العادية. على الرغم من أنها لم تسجل إبداعات بارزة في السياسات، أحسنت في حكم البلاد. كانت تعلق اهتماماً بالغاً على تطوير الزراعة. عملت على تدعيم زرع الحبوب والتوت وتخفيف الضرائب والسخرة، كما اتخذت ما ذكر سلفاً معيار لتقييم أعمال المسؤولين المحليين.

كما حسنت نظام فرز الأكفاء بالامتحان لتوظيف أصحاب الكفاءة على نطاق واسع. في أسرة سوي وأوائل أسرة تانغ كان متقدمو الامتحان يكتبون أسماءهم على أوراق الامتحان مباشرة ثم يرفعونها إلى المقيمين، مما أفضى إلى ظواهر الرشوة والفساد بين المتقدمين والمقيمين للامتحان.

نظراً لذلك، اتخذت وو تس تيان نظام «حجب الأسماء قبل رفع الأوراق» الذي منع المقيمين من علم أسماء متقدمي الامتحان عندما يقيمون أوراقهم، الأمر الذي ضمن نزاهة الامتحان. علاوة على ذلك، اخترعت نظمي «الترشيح الذاتي» و»اقتناء مسؤولين من الجماهير العامة» لكي تستبدل المسؤولين المعزولين عن مناصبهم بأخلافهم الشباب حتى تحافظ الحكومة على الحيوية. بفضل النظامين كشفت دفعة كبيرة من الأكفاء وارتقت بهم، منهم ((دي رن جيه)) و((لاو شي ده)) وإلخ. ساهمت في تحسين علاقة إمبراطوريتها بالقوميات في المناطق الحدودية أيضاً. خلال فترة حكمها، تطور الاقتصاد بشكل مستقر، وعاش الناس في الزغد والطمأنينة وتزايد عدد السكان مطرداً. خلاصة القول، فإنها أسهمت إسهاماً في تنمية البلاد خلال العشرين سنة ونيف من حكمها.

# 117

# دعوة ي ((او تشونغ))
# إلى مكافحة كوارث الجراد

إن معرفة الإنسان عن الطبيعة تتعمق بشكل تدريجي.

على سبيل المثال، كان يعتقد الناس أن كسوف الشمس يحدث عندما يبتلع الكلب السماوي الشمس. فإن الشمس، التي تشرق وتغرب كل يوم، ظلت تتوهج على كبد السماء تلقي أشعتها على الكائنات. لماذا تظلم فجأة؟ في أعين الناس في قديم الزمان، تأكيد أن حيواناً مرعباً التهمها. فنقروا على الطبلة، وأقاموا الشعائر الدينية حتى رموا السهام إلى السماء آملين ليخيفوا الحيوان ويطردوه. الآن نعرف أن كسوف الشمس يحدث عندما تكون الأرض والقمر والشمس على استقامة واحدة تقريباً، ويكون القمر في هذه الحالة في المنتصف.

في الواقع، نتعرف على كل شيء بشكل تدريجي. هذا يتطلب أن يتبادر بعض الناس إلى طرح وجهات نظرهم الجديدة دون أن يتقيدوا بالأفكار المعتادة، التي غالباً ما ينشأ تنازع عنيف بينها وبين الأفكار الجديدة، فيه تفوز حيناً وتفشل أحياناً. على هذا النحو تتعمق معرفة الإنسان للأشياء بصورة حلزونية.

فلنقرأ القصة التالية لنرى التنازع بين الأفكار الجديدة والقديمة حول الجراد.

في عام 705 ميلادي اعترى وو تس تيان مرض شديد. استغل ((تشانغ جيان تشي)) كبير الوزراء هذه المناسبة للقيام بالانقلاب لإعادة عرش الإمبراطور تانغ تشانغ تسونغ. في عام 710 ميلادي اغتالت الملكة ((وي)) زوجها الإمبراطور تانغ تشونغ تسونغ فاعتلى الإمبراطور ((تانغ روي تسونغ)) العرش بعده بمعاضدة ابنه ((لي لونغ جي)). بعد عامين من ذلك، تنازل عن العرش

لابنه لي لونغ جي، الذي يعرف بإمبراطور تانغ شوان تسونغ ويعتبر مؤسساً للازدهار الثاني لإمبراطورية تانغ في أعقاب ازدهار «حقبة تشان قوان»[23] في حقبة حكم الإمبراطور لي شي مين.

اعتلى الإمبراطور تانغ شوان تسونغ العرش عندما كان في عقده الثالث، على رغبة شديدة في إعادة ازدهار سلفه الجيل الإمبراطور تانغ تاي تسونغ. عين ياو تشونغ كبير الوزراء لإصلاح السياسات والنظم معه. سرعان ما عادت الإمبراطورية من الفوضى في حقبة الإمبراطورية تانغ تشونغ تسونغ إلى مسار التطور الطبيعي بفضل جهوده الجبارة. لكن لم يحسب في حسبانه أن كوارث الجراد الشديدة اجتاحت في ذلك العام مناطق خه بي وشان دونغ حيث حجبت أسراب من الجراد أشعة الشمس مثل الغيوم المتلبدة. قضمت الجراد كل غرسات الأرز حيثما أتت.

بالنسبة إلى الفلاحين، فإذا قضمت الجراد غرساتهم، لا يحصدون أي شيء في طول العام. أن الجماهير تعيش اعتماداً على السماء، فقد يموت الكثير جوعاً إن يحصدوا الحبوب. فما هو حل كارثة الجراد؟ في قديم الزمان، كان الناس يعتقدون بأنها عقوبة أنزلت السماء عليهم فلم يقدموا على صيدها، إنما أقاموا الشعائر ويسجدون على الأرض بكل خشوع متضرعين إلى السماء أن ترفع عاقبتها عليهم. بالطبع، لم يجد ذلك أي نفع.

اضطر المسؤولون المحليون إلى طلب المساعدات من البلاط مع تفاقم الكوارث. لكن أيمكن أن ينقذهم البلاط؟ غزا الإمبراطور تانغ شوان تسونغ الكارثة إلى عقوبة السماء عليه بسبب قلة فضائله. كان المسؤولون في البلاط غارقين في اعتقادهم القديم مثل إمبراطورهم، إلا شخصاً واحداً، ألا وهو ياو تشونغ. عزم على أداء واجبه لتقليص الشعب من الكارثة.

إن عقله مستنير. رأى أن الجراد مجرد نوع من الحشرات الضارة القابلة للإزالة. قال: الآن تفشت كارثة الجراد كل أبعاد المناطق شرق جبل ((شياو شان))، كما شرد أهل شاطئي النهر الأصفر الشمالي والجنوبي من بيوتهم. هل من الحكيم أن نشاهد الجراد تقضم غرسات الأرز مكتوفي أيدينا؟ فلننحرك. على أقل التقدير نستطيع تقليل خسارة الكارثة حتى ولو لا نزيل جميع الجراد.

أثار اقتراحه جدلاً عاتياً في البلاط. ساور هؤلاء المسؤولين المتحفظين الشكوك والخوف وهم يعارضون بثبات، معتقدين بأن كارثة الجراد عقوبة السماء لن نتخلص منها إلا من خلال

تصفية النفوس وتربية الفضائل.

لم يجئ اعتقادهم بلا أساس.

في حقبة تشان قوان – بقد تأسيس إمبراطورية تانغ بقليل، عصفت كارثة الجراد بالإمبراطورية. كان لي شي مين الإمبراطورية تانغ تاي تسونغ يقف في غابة الحديقة الملكية وفي يده جرادة. قال له متسولاً: لا يمكن للإنسان أن يعيش بدون الحبوب. الآن تكتسح الكوارث الإمبراطورية على بكرة أبيها، فإذا كانت عقوبة السماء على الجماهير فيكفي بأن تعاقبني وحدي فعُفي عنهم! إن تحمل روح سماوية يا جرادة فكلي قلبي! لا تأكلي حبوب الناس! ورماها إلى فمه إثر الفروغ من قوله.

العجب العجيب أن الكارثة تراجعت في ذلك العام حقاً، من باب الصدفة.

بناء على حكاية الإمبراطور تانغ تاي تسونغ هذه، قال ((لو هواى شان)) مدير دائرة «هوانغ مان»[24] بعناد: إن كارثة الجراد عقوبة السماء. أيمكن للإنسان أن يقاوم إرادة السماء؟ أخاف أن تغضب السماء إذا قتلنا الجراد. رد ياو تشونغ عليه: أنت تعترف بأن نقدر على قتل الجراد، وتتركها تشكل كارثة وتقضم غرسات الأرز مكتوف اليدين؟ بما يطعم الناس بعد ذلك؟ لن نتأخر عن إزالة الجراد وننقذ شعبنا. لن ننتظر! إذا أنزلت السماء مصيبة علينا حقاً، أتحمل العواقب الوخيمة. لن أرحل فمسؤوليتي لك أبداً.

لم يجد لو هواي شان أي حجة للاعتراض.

ولى الإمبراطور تانغ شوان تسونغ القدر الأكبر من الثقة بياو تشانغ وفوضه أن ينفذ فكرته كما تشاء. فأمر الناس بإشعال النار عند تلال الحقول في الليل لقتل الجراد حين تتجمع حول النار، ودفن جثثها في المواقع. لم يثر جدلاً في البلاط هذه المرة، فهل نفذ المسؤولون المحليون أمره بلا معارضة؟

ما لبث أن وصل الأمر إلى ((ني روه شوي)) والي مدينة ((بيان تشو)) حتى ناهضه بقوة. رفع رسالة إلى البلاط فيها أصر على رأيه أن كارثة الجراد عقوبة من السماء لا تقاوم. لا خيار لنا إلا تصفية النفوس وتربية الفضائل. لاقت أفكار ياو تشانغ الجديدة اعتراضاً مجدداً مما ألهب غضبه.

شتم ني روه شوي بنبرة لاذعة: إذا لا تفعل بما أمرت وتفشت كارثة الجراد حتى تنفجر المجاعة، يتحمل المسؤولية عن التداعيات كلها.

ركبه الخوف من تحمل المسؤولية فأجبر إلى تنفيذ خطة ياو تشانغ لإزالة الجراد. ففضل ياو تشانغ، تراجعت كوارث الجراد في أنحاء الإمبراطورية في نهاية المطاف.

فمن السهل لنا أن نجد، أن عملية استبدال الأفكار القديمة بالجديدة معقدة مليئة بالانتكاسات. نصرت أفكار ياو تشونغ هذه المرة، بيد أن ذلك لا يعني نصر أفكاره الجديدة الأبدية. ما زالت النزاعات بين تلك الأفكار والمفاهيم الجيدة والقديمة تحتدم وتستمر في المدونات التاريخية. مرادها أن الإنسان ولد بالخمول الفطري الذي لا ينعكس في عملهم فحسب، بل في عقلهم أيضاً. تشبه الأفكار التي يتربى الإنسان عليها منذ صغره قلعة تغلقه في داخلها، في حين لا يريد أن يخرج منها إذ كان قد تعود عليها، معتقداً بأن الأمن لا يتواجد إلا داخلها، ولا توجد خارجها سوى الصدمات والضربات.

عليه فإن ظهور أي فكرة جديدة في رأي الإنسان يعني هدم قلعته التي يتعود على البقاء فيها، فمن الطبيعي أن يتحاشى «الهدم» ويدرأه. لكن في نهاية الأمر لا بد له من التحرر من قيود اعتقاداتهم القديمة لقبول الأفكار الجديدة حتى يتقدم إلى الأمام.

لنعد إلى قصة ياو تشانغ، الذي كان يشتهر بفاعلية عمله إلى جانب استنارة عقله. ذات مرة قام بمشوار عمل خارج البلاط، فتراكمت كثير من الأعمال المنتظرة للعلاج في خلال غيابه. لما عاد إلى منصبه، رتب كل الأمور بسرعة أدهشت زملائه بجانبه.

زيادة على ياو تشونغ، كان عديد من كبار الوزراء الشهيرين يشتغلون في بلاط الإمبراطور تانغ شوان تسونغ، بمن فيهم ((سونغ جينغ))، ((تشانغ شوه))، ((هان شيو)) و((تشانغ جيو لينغ)). كان الإمبراطور تانغ شوان تسونغ في تلك الفترة من حكمه يتبع النصائح بالتواضع، يوظف الأكفاء ويعمل بهمة وعزم، بحيث قاد إمبراطوريته إلى الرخاء والرفاه. يطلق على هذه الفترة المزدهرة بـ «حقبة كاي يوان[25] المزدهرة»، والتي كانت الفترة الوحيدة المماثلة حقبة تشان قوان في الازدهار خلال طول عهد أسرة تانغ، التي بدأت بالانحطاط بعد هذه الفترة الذهبية.

# 118
# تشهير ((لي لين فو)) بغيره في خفية

يصادف عام 736 ميلادي العام الـ 24 من حقبة كاي يوان والذي يعتبره الكثير نقطة تحول إمبراطورية تانغ من الازدهار إلى الانحطاط.

شهد هذا العام سلسلة من الأحداث. لنمر ببعضها.

في أبريل ذلك العام، حكم على رجل من قومية ((هو)) بالإعدام بسبب إخفاقه في قمع خونة الإمبراطورية. اسمه ((آن لو شان)).

صاح بلهجة ضارعة في وجه ((تشانغ شو قوي)) حاكم ولاية ((يو تشاو)) قبيل موعد تنفيذ إعدامه: ألا تريد القضاء على قومية تشي دان وقومية ((شي))؟ فلم تقتلني؟ تعاطف تشانغ شو قوي معه عندما سمع قوله هذا، فأرسله إلى عاصمة تشانغ آن تحت الحراسة حيث سيحكمه البلاط. رأى تشانغ جيو لينغ كبير الوزراء أن مظهر آن لو شان يتنبأ بخيانته في المستقبل، فدعا إلى قتله تجنباً مخاطر مستقبلية، بينما يحرص الإمبراطور تانغ شوان تسونغ على قدرته فغفر عنه ذنبه.

في أغسطس، أقبل عيد «تشان تشيو» بمثابة عيد ميلاد الإمبراطور تانغ شوان تسونغ.

أهدى المسؤولون مرايا نحاسية إلى الإمبراطور احتفالاً بعيد ميلاد، سوى تشانغ جيو لينغ كبير الوزراء الذي ألّف كتاباً تحت عنوان «خبرات الملوك وعبرات العصور» فيه حلل أسباب ازدهار العصور القديمة وانحلالها وأهداه للإمبراطور.

كما يقول المثل، إن التاريخ أجلى مرآة تعكس عيوب الإنسان، لكن لم يعد الإمبراطور تانغ شوان تسونغ يود أن يراجع نفسه وهمته في بداية حكمه لقد ضاع جلها. ما هو إلا أن ألقى لمحة سريعة عن الكتاب ثم اصطنع بالإثناء على تشانغ جيو لينغ، بينما كان يستاء في بواطنه. أما سبب

تقديم تشانغ جيو لينغ كتابه هذا إلى الإمبراطور، فقد يكون أنه قد لاحظ بوادر الفساد في الإمبراطورية، غير أن سائر المسؤولين بدا كأنهم نسوا الحقيقة أن رخاء إمبراطوريتهم لن يدوم إلى أبد الدهر إذا لم يستعدوا للخطر في وقت السلام والطمأنينة.

في نوفمبر ذلك العام، عزل تشانغ جيو لينغ عن منصبه، في حين عين لي لين فو برئيس ديوان «تشونغ شو»[26] أي الديوان المركزي، وعين نيو شان كه بمدير دائرة الهندسة.

يقول الصينيون: أول ما تهب به الريح هو الأوراق على سطح المياه. إن ما ذكر سلفاً من الأمور البسيطة ينذر مسار الإمبراطورية تانغ الكبرى. مع ابتعاد المسؤولين الحكماء عن مناصبهم وصعود الأشرار إلى السلطة، ظهرت إشارات إلى عاصفة ستكتسح كل الإمبراطورية الكورية وتقيضها.

كان قد أحس تشان جيو لينغ بالإشارات عندما كان في منصبه.

في العام التالي (عام 737 ميلادي) أخفض وأبعد عن البلاط ليشغل منصب ولي مدينة جينغ تشاو. يغلب على الظن أنه كتب ذلك العام اثني عشر شعراً تحت عنوان «أحوالي وإحساسي». وصف في إحدى الأشعار نسراً منطوياً وعصفورين يحشان على شجرة اللؤلؤ الثمينة. نصحهما النسر: حذار بالبقاء على قمة الشجرة! ألا تخافان من الإصابة بحصى النقافة؟ ثم أضاف: من تباهي بكفاءته اصطيد، من سرق ما لا يستحقه يُكره.

من البديهي أن نجد أن تشانغ جيو لينغ شبّه في شعره نفسه بالنسر ولي لين فو و((نيو شيان كه)) بالعصفورين. إنما كيف يسمع العصفور نصيحة النسر وهما أحمق من أن يفهماه؟ فطار النسر عالياً نحو أعلى السماء تفادياً لسهام الصيادين بانفراده.

توفي تشانغ جيو لينغ بعد إتمام كتابة تلك الأشعار بثلاثة أعوام.

الآن لنلقِ أنظارنا إلى ما حصل بين تشانغ جيو لينغ ولي لين فو. فدل التاريخ علينا أنه من الصعب أن يكون الإنسان طيب النفس وخير العمل طوال عمره. بعد عشرين عاماً من السلام والازدهار، أصبح الإمبراطور تانغ شوان تسونغ غروراً ومتكبراً، كما بدأ يسعى وراء ملذات

الحياة، مما أهلع تشانغ جيو لينغ كبير الوزراء كثيراً. رفع إلى الإمبراطور رسالة تلو أخرى لينصحه، لكن ما الرسائل جلبته هو امتعاض الإمبراطور.

كان لي لين فو مسؤولاً في البلاط.

إنه يتقن مجاملة الإمبراطور والتواطؤ مع الخصيان والحظايا. على هذا النحو تعرف على ميول الإمبراطور فأجاب عن أسئلته بسلاسة وسلامة إرضاء الإمبراطور عند البلاط فحظي رويداً رويداً بإعجاب تانغ شوان تسونغ الذي أخذ يفكر في الارتقاء به ليكون كبير الوزراء. اعترض تشانغ جيو لينغ هذه الفكرة بشكل ثابت وقال: إن منصب كبير الوزراء حاسم جداً يربط بمصير الإمبراطورية. لو تعينوا جلالتكم لي لين فو بهذا المنصب لوقعت الإمبراطورية في الاضطراب لا حصر له.

اضطر الإمبراطور إلى تعليق تنفيذ فكرته. لما وصل قول تشانغ جيو لينغ إلى مسمع لي لين فو، كزّ على أسنانه حنقاً.

كان قائد في مدينة شوه فانغ اسمه نيو شيان كه. كان يتفنن في إدارة الشؤون المالية رغم أنه لم يعرف الكتابة والقراءة. عندما اعتزم الإمبراطور رفع منصبه، لاقى اعتراضاً من قبل تشانغ جيو لينغ مجدداً. اغتنم لي لين فو هذه المناسبة للافتراء به: إن كفء من أمثال نيو شيان كه جدير بمنصب كبير الوزراء! لن يحقق تشانغ جيو لينغ إنجازاً عظيماً لتحفظه.

شاركه الإمبراطور تانغ شوان تسونغ في رأيه. مع مرور الأيام، تزايدت كراهيته على تشانغ جيو لينغ مع تكرر تشهير لي لين فو به، حتى وجد الإمبراطور مبرراً ليقيله عن منصبه. أخيراً تحقق حلم لي لين فو بأن يكون كبير الوزراء.

عزل الإمبراطور عن المسؤولين بعد صعود سدة الحكم ومنعوهم عن رفع رسائل النصيحة إلى الإمبراطور. حشد المسؤولين المراقبين لإجهارهم: إن إمبراطورنا حكيم وعليم. يكفي أن نفعل بأقواله. لا داعي للانتقاد والنصيحة! ألا ترون خيول الشرف أمام بوابة القصر الملكي؟ تعادل رعايتها ما يمنح للمسؤولين ذوي ثالثة أعلى رتبة. لكن لو تجرأ على الصهيل ولو مرة لطرد على الفور! لجأ معظمهم إلى الصمت عند تحذير لي لين فو. فتراجعت النصائح المستقيمة عن البلاط منذ ذلك الوقت، وتعالت أصوات المجاملة.

كان لي لين فو يبعد المسؤولين ذوي الرؤية والكفاءة عن البلاط بألف حيلة وحيلة ضماناً لبقائه في السلطة. لم ينتقدهم أمامهم، بل قدح فيهم سرياً أمام الإمبراطور. ذات مرة رأى الإمبراطور تانغ شوان تسونغ ((لو شوان)) – نائب مدير الدائرة العسكري يمر به على الحصان وأثنى على ملامحه الباهرة، مما أزعج لي لين فو كثيراً. اختلق عذراً لتخفيض منصب لو شوان إلى ولي مدينة هوا تشو، ولم يمر على بدء عمله في هوا تشو طويلاً حتى خفض منصبه مجدداً بسبب تهمة لي لين فو الملفقة ضده بأنه أمرض من أن يؤدي أعماله.

كان مسؤول آخر يشارك لو شوان في المعاناة من تشهير لي لين فو، الذي أزاحه عن البلاط ليكون والي مدينة بعيداً. اسمه ((يان تينغ تشي)). ذات يوم، ذكره الإمبراطور أمام لي لين فو مقدراً كفاءته وقال: من الممكن أن يعود يشتغل في البلاط. ادّعى لي لين فو بأنه سيسأل أخباره لاحقاً، متظاهراً بالهدوء. استدعى أخ يا تينغ تشي الصغير إلى منزله بعد انتهاء اجتماع البلاط وقال له: أعرف أن أخاك يريد العودة إلى العاصمة. الآن عندي فكرة.

شكر لي لين فو على اهتمامه بأخيه، وسأله عن فكرته في عجلة.

رد لي لين فو عليه: إذا طالب أخوك الإمبراطور بعودة إلى العاصمة لعلاج مرضه، فسيعود! لما تلاقى يا تينغ تشي رسالة أخيه، تبنى نصحه ورفع رسالة إلى البلاط فيها ادعى أنه مريض. حمل لي لين فو الرسالة إلى الإمبراطور وأخبره متنهداً: يا للأسف! اشتد المرض على يان تينغ تشي. من الصعب عليه أداء الأعمال في البلاط.

أسف لمرضه، ثم ترك فكرته لتوظيفه مرة أخرى.

خدع لي لين فو كثيراً من أمثال يان تينغ تشي بلا إدراكهم. لكن كذّب الناس بعد حيله ومكائده أخيراً رغم من تظاهره البديع. وصفه الناس بأن كلامه كالعسل وفعله كالأسل، بعبارة أخرى أنه يحسن إلى الناس في الظواهر بينما يتدبر على تشهيره في بواطنه. أبعد ما لا يحصى من الأكفاء من البلاط في الـ 19 سنوات حيث كان كبير الوزراء، وعين ما لا يعد من العجزة الذين لم يعرفوا إلا المجاملة. على يده، انحرفت إمبراطورية تانغ من «ازدهار حقبة كاي يوان» إلى «اضطراب حقبة تيان باو»[27].

# 119

## تعالي لي باى أمير الشعر على وجهاء البلاط

تجرع البطل خمره/

الذي بسبعه ينشد لضوء القمر/

وبثلثه يشحذ حد سيفه/

ثم ينبثق من صدره/

نصف تاريخ بلاده/

في البريق والروعة.

تترجم الأبيات من الشعر المشهور «البحث عن لي باى» بقلم الشاعر التايواني ((يو قوانغ تشونغ))، الذي رسم في شعره برقة ملامح لي باى في صلفه وغورته، في شرابه وأغانيه، وفي بحثه عن الملاك والحق. إذا تغرب في ذلك، يمكن أن تقرأ أشعار يو قاو تشونغ عن لي باى. فمن هو لي باى؟ لم يقدره بو قوانغ تشونغ حتى نظم ذلك الشعر الجميل لتبجيله وتعظيمه؟ فلنمر بحياته فيما يلي.

ذكرنا في الفصل السابق أن الإمبراطورية ستنحط. هذا حق الحقيقة. لم يعد الإمبراطور تانغ شوان تسونغ عازماً وطموحاً كما كان عليه في شبابه وكهولته، بل كان منغمساً في الملذات، حتى وقع في حب الحظية ((يانغ قوي في)) الشابة والحلوة عندما كان في الـ 61 من عمره. الحظية يانغ، مندرجة في قائمة أجمل الحسناوات الأربع في تاريخ الصين، كانت زوجة ((لي ماو)) ابن إمبراطور تانغ شوان الملقب بأمير ((شاو)). بعد وقوع الإمبراطور في حبها، تظاهرت بالزهادة كأنها رهيبة أولاً، ثم استرجعها الإمبراطور إلى القصر الملكي ومنحها لقب الحظية. منذ ذلك

الوقت، غرق تانغ شوان تسونغ في الشراب والغناء. فوض لي لين فو بمعالجة شؤون الدولة صغيرة وكبيرة نيابة عنه، ثمة لجأ إلى التمتع بحياته خالياً من الهموم والغيوم.

سبق للإمبراطور أن دعا شاعراً إلى عاصمة تشانغ آن.

فعمد الشاعر إلى المدينة بسرور جارف. اتخذ دعوة الإمبراطور فرصة عمره للاستثمار على قدرته، فكم كان طموحاً ومنشرحاً! أطلق ضحكات منفجرة بسعادة عارمة. لم يكن لتختفي كفاءته في الدنيا وطموحاته جبارة إلى هذا الحد. لكن، هل يعرف بحبوحة الحياة في البلاط؟ هل تكون تشانغ آن مثلما كان يتوهم؟ ماذا سيحدث عليه فيها؟

إن الشاعر لي باى كما تحرز. عام 701 ولد في مدينة ((سوي يه)) الواقعة في جنوب بحيرة بلخاش لآسيا الوسطى والتي كانت تابعة لولاية ((آن شي)) بإمبراطورية تانغ وقتئذ، وتوفي عام 762. روي أن أمه عند ولادته حلم بكوكب «تلى ياى»[28] الرمز لطول العمر فسمته بـ «باى» وجعلت اسمه الرسمية[29] «تاي باي». كان مهووساً بقراءة الشعر والمقالة منذ حداثته، كما يحب الفنون القتالية بالسيف. كان يجوب أنحاء البلاد مع سيفه في شبابه بحيث تعرف على كثير من الحكماء والأبطال. في رحلته دائماً ما يؤيد المظلوم على الظالم بالفروسة. قيل إنه حدث أن صرف ثلاثمائة ألف تشيان لمساعدة الفقراء ومنكوبي الحظ.

ظل يطمع إلى تحقيق إنجازات بالغة منذ صغره.

كان له المثال الأعلى أن يزهد عن سلك السلطة بعد إتمام إنجازاته. يريد أن يستغل كفاءته بشكل مستفيض عند البلاط ويساند الإمبراطور بكل ما لديه من الوسع في الحكم والإدارة، ثم يبتعد عن السلطة ويعيش حياة بسيطة بحرية. لذا، ظل يتابع عن كثب أوضاع البلاد ويبحث عن فرصة لتوظيف كفاءته.

أخيراً حان الوقت.

في العام الأول من حقبة تيان باو المتفق مع عام 742 ميلادي سافر إلى العاصمة تلبية لاستدعاء الإمبراطور، بفضل ترشيح صديقه وو يون له. جاذب الإمبراطور أطراف الحديث عند البلاط، حيث نظم شعراً ارتجالاً تعبيراً عن مشاعره الجامحة مما نال إعجاب الإمبراطور كل

المنال. عينه «ها لين» المستشار الأدبي للتو. كان لي باى مسروراً للغاية في البداية متصوراً أن تحقق طموحاته في منصبه. لكن سرعان ما خاب أمله.

فلقد تفشى الفساد في إمبراطورية تانغ كما ذكرنا سابقاً. كان الإمبراطور ينغمس في اللهو والمجون لهثاناً وراء الملذات والشهوات، كما كان لي لين فو المعسولة أقواله والمخلولة أفعاله يتمسك بزمام السلطة. من تودد إليه رقاه، من تعارض معه أزاحه. فاستحال أن يحقق لي باى طموحاته في مثل هذه البيئة الفاسدة.

لاذ لي باى بالخمر لتخفيف حسرته وخيبته.

كان لي باى يموت في الخمر باعتباره وعاء أحلامه وملاذه عن الضيق. إذا كان خمر جيد، لا يردد في شرائه حتى ولو بمقابل خيله الثمين ولباسه النفيس. كان في مدينة ((جي)) شيخ باسم العائلة «جي» يبرع في صنع الخمر الذي كان لي باى شغوفاً به. لما توفي الشيخ، نظم في تحسر شعر بعنوان «الرثاء على شيخ جي البارع في صنع الخمر قي مدينة شوان» حداداً عليه. تخيل في شعره أن الشيخ لا زال يصنع خمره في الآخرة، لكن من يقدر على التمتع بجماله؟ إلى من يبيع خمره؟ لم يعد لي باى يوجد في عالمه!

في بعض الأحيان، جعل لي باى الخمر الغاية الوحيدة لحياته. كتب في شعره: أنظر! الحكماء ينزوون في العزلة منذ القدم. فاشرب! لكي تترك بصمة في صفحة التاريخ. إنما الحقيقة أنه على أي حال من الأحوال يعيش في الدنيا ولا فردوس الخمر. طالما يعيش الإنسان، أي إنسان في الدنيا فلا مفر من أشغالها ومشاكلها، ناهيك عن أمثال لي باى، المتمرد والمتكبر.

لم يكبح رغبته في الخمر الجميل، كما لم يكتم تفاخره بنفسه.

ذات مرة أتى الإمبراطور تانغ شوان تسونغ إلى جوسق تشان شيانغ بحصبة الحظية يانغ قوي فليتلذذ بالمناظر الرائعة هنا، حيث تغرس زهور فوانيا من شتى أنواعها. عندما تفتحت الزهور، كانت أكناف الجوسق محيطة بالزهور البهية بالألوان الأرجواني والوردي والأبيض... كان الإمبراطور يتنزه بين أمواج الأزهار وحظيته المحبوبة بجانبه، و((لي قوي نيان)) الموسيقار الشهير المحترف في البلاط يعزف ألحاناً مشوقة لهما. الزهر البهي موجود، الخمر الجيد موفور،

الموسيقى الجميلة ملحونة... فأين الشعر البديع؟ لما بلغ سرور الإمبراطور مبلغه، استدعى لي باى لينظم شعراً له.

فماذا كان يفعل لي باى وقتها؟ الشراب في الخانة.

بذل حراس القصر جهوداً كبيرة حتى عثروا عليه في ذروة سكره. فاضطروا لحمله على أكتافهم إلى القصر. لما وصلوا، لم يستيقظ من ثمله العميق، فحاولوا إيقاظه عبثاً بغسل وجهه بماء بارد. بعد الاستماع إلى أمر الإمبراطور بنظم الشعر، جادت فرشاته على الأوراق بالأبيات العبقرية المعروفة اليوم بـ «أشعار تشينغ بينغ الثلاثة»، التي تجمل ألفاظها غاية الجمال، وتحتوي مغزى غوره لا يسبر. أكمل الشاعر أشعاره دفعة واحدة دون أدنى التأمل والتفكير المقدم.

في شعره الثاني شبه الحظية يانغ قوي في بزهر فوانيا عليها قطرة ندى رقيقة تفوح منه رائحة ذكية تأخذ ألباب القلوب. ربما لا أحد يضاهيها في البهاء إلا الحسناء ((تشاو في يان)) الحظية في قصر إمبراطورية هان القديم وهي تضع أفخر المكياجات على وجهها!

قيل إن حدث طرأ على لي باى عندما كان يكتب الأشعار الثلاثة.

حينما كان غارقاً في إبداعه شعر شيئاً على قدمه يضيقه. فرفع قدمه صائحاً: اخلع النعل عن قدمي! لم يجرؤ ((قاو لي شي)) الخادم الخصي على إزعاجه ففعل كما صاح لي باى كاظماً. تطرق يو قوانغ تشونغ إلى هذا الحدث في شعره: ما زال النعل يبقى/ مع فخر صاحبه/ في يدي قاو لي شي المقفل في مهانته. منذ ذلك الوقت، ظل يضمر حقداً سرياً على لي باى. أخيراً وجد فرصة مناسبة للطعن في سمعة لي باى أمام حظية يانغ. زعم أن لي باى سخر منها خلسة بتشبيهها بتشاو في يان الحسناء في عهد أسرة هان والتي كانت تحيا حياة فاسقة، مما ألهب بغض الحظية على لي باى على الفور. بدأت تلفق تهمات ضد لي باى أمام الإمبراطور، الذي فكر في الارتقاء بلي باى مراراً، إنما ترك فكرته في النهاية متأثراً بتلك الاتهامات من حظيته.

إن ظروف البلاط هذه غللت كفاءة لي باى وخنقه. من المستطاع أن تعود إلى الزهد في الغابات والجبال ويشرب كما يشاء. لم يتحامل نفسه على الغلول والكبول؟ طلب من الإمبراطور أن يعود، فوافق ومنحه ثروات هائلة هدية له. على هذا النحو، استقبلت العاصمة تشانغ آن طموحاته ببرودتها وسخريتها. عندما خرج لي باى من بوابتها، تحطم قلبه.

غنى في شعره متكلفاً بلامبالاة: وكيف أتحامل نفس على خدمة الوجهاء/وأضيع أفراحي وأمجادي؟

وما هذا البيت إلا صورة صادقة لخيبته. لو توفره العاصمة مسرحاً له، ليبقى فيها أياً كانت الظروف. فهل سيختار شاعرنا لي باى قضاء بقية حياته في الزهد خالياً من الهموم، بما أن فرصة تحقيق حلمه قد فاتته؟

كلا. عزم على ربط حياته بشؤون الإمبراطورية قابل أيامه، ولو في زهده.

بعد وداعه للعاصمة، مضى في تجواله وترحاله، حيث صادف شاعراً عظيماً. ألا وهو دو فو.

# 120

# انقلاب آن لو شان

إن عاصفة عاتية وشيكة على إمبراطورية تانغ، التي لا زالت مستغرقة في حلمها الحلو.

لنبدأ قصتنا بآن لو شان. الذي صفح له إمبراطور تانغ شوان تسونغ. كان قد حكم عليه بالإعدام جزاء فشله في إخماد ثورة الخونة، إنما نجا من الموت بأعجوبة بفضل تقدير الإمبراطور له. مذ ذلك الحين، لا يدخر وسعه لمجاملة الإمبراطور. بالمقابل، استدرجه درجة درجة حتى عينه «جيه دو شي» – «الحاكم» لولاية ((بينغ لو)).

ما هي أعمال «جيه دو شي» في عهد أسرة تانغ؟

إن «جيه دو شي»، باختصار، عبارة عن منصب مهم وضعته إمبراطورية تانغ لتقوية الدفاع في المناطق الحدودية. كان جي دو شي في البداية مسؤولاً عن التصدي للعدوان وغيره من الشؤون العسكرية. لم تكن له يد في إدارة المدن والمحافظة في ولايته وحكم شعبها على الإطلاق. لكن، اتسعت دائرة سلطته مع مرور الأيام حتى أصبح الأمر النهي لجميع شؤون ولايته كبيرة وصغيرة وصاحب القرار لولاء المدن والمحافظات التابعة لولايته.

السلطة مثل شجرة عملاقة. كانت تقف باسقة وجذورها راسخة إذ إن جذعها قوي وفروعها لينة. إن كان الحال بالعكس، اختلت توازنها، وبالتالي تتصدع عما قريب. فإن انهيار إمبراطورية تانغ يرجع سببه الرئيس إلى تعاظم سلطة «جيه دو شي» (يشار إليهم بحكماء الولايات فيما يلي)، الذين كانوا أصحاب القرارات على كل الأمور، عسكرياً وسياسياً ومالياً.

كان هناك عرف من الأعراف في الإمبراطورية أدى دور احتواء اتساع سلطتهم: إذا أنجز الحاكم مأثرة جليلة أو طال حكمه لولاية واحدة، استُدعي من الولاية إلى البلاط لشغل منصب كبير

الوزراء. على هذه الطريقة أضعف البلاط نفوذهم في ولاياتهم. إنما خرق لي لين فو هذا العرف المفيد. كان ضيق الأفق إلى درجة أنه لم يزح المسؤولين المدنيين عن البلاط كما ذكرنا وحسب، بل كان يتشكك في حكماء الولايات في المناطق الحدودية تخوفاً من تنافسهم معه على السلطة. سبق له أن لفق تهمة باطلة ضد ((وانغ تشونغ تس))، الحاكم ذي مآثر عسكرية، بالخيانة، حتى لفظ آخر نفسه ضيقاً.

في الوقت نفسه، دعا لي لين فو الإمبراطور إلى تعيين القادة من قومية هو ظناً منه أنهم لن يشكلوا تهديداً لسلطته. ادعى أنهم محاربون بطبيعتهم، لا يرتبطون بالمسؤولين عند البلاط، الأمر الذي يجعلهم أحرياء بالثقة. توافق الإمبراطور مع رأي لي مين فو كل موافقة إذ كان يشاركه في الخوف على انقلاب قادة المناطق الحدودية، فارتقى بكثير من قادة قومية هو ليكونوا حكماء الولايات، من بينهم آن لو شان.

أفرط آن لو شان في مجاملة الإمبراطور بعد تعيينه. كان يهدي للإمبراطور كلاً من الحيوانات الفذة والمجوهرات النفيسة، ويعجبه بمآثره المزورة. إنه سمين البدن، قصير القامة مع البطن ينتفخ مثل الكرة. كان يتفنن في الاستغلال بمنظره الظريف والتظاهر بالبلاهة ليسر الإمبراطور. ذات مرة مازحه الإمبراطور مشيراً إلى بطنه الكروي: كم كبير بطنك! ماذا يحتوي يا ترى؟ أجاب بلا تردد: ما فيه إلا قلبي الحار المخلص لجلالتكم.

سر الإمبراطور بمجاملته هذه كثيراً. منحه لقب الأمير الفخاري فيما بعد، علاوة على منزل فخم في مدينة تشانغ آن. بعد انتقاله إلى منزله الجديد، دائماً ما أرسل الإمبراطور مسؤولين إليه ليجالسوه يشربون. حتى جعله رتيباً لحظية يانغ قوي فيمتّعه بحرية تامة لدخول القصر الداخلي.

هكذا كسب آن لو شان ثقة لي لين فو والإمبراطور تانغ شوان تسونغ. انطلاقاً من ذلك، أخذ السيطرة على معظم المناطق الحدودية في الشمال.

قام بزيادة قواته دون معرفة البلاط، حيث عين مجموعة من قادة يؤيدونه، أبرزهم ((شي سي مينغ)) و((تساى شي ده))، وجعل ((قاو شانغ)) و((يان تشوانغ)) كلاهما من قومية هان كمستشاريه. أضف إلى ذلك، اختار ثمانية آلاف محارب من جنود مختلف القوميات المستسلمة

لتشكيل قوة نخبة جمع لها الحبوب وزوّدها بالأسلحة. لما أصبح كل شيء جاهز، عزم على تنفيذ خطته الانقلاب حالما توفي الإمبراطور تانغ شوان تسونغ.

لماذا أصر على الانتظار حتى وفاة الإمبراطور؟ مرده أن الإمبراطور ظل يحسن معاملته، فيضمر الاقتنان في أعماق أغواره تجاه الإمبراطور. لكن يدل التاريخ علينا أنه لا بد من الإنسان أن يتحرك في الحالة الطارئة، لكيلا يفوته قطاره.

لم يطل بإتمام استعداده للانقلاب حتى مات لي لين فو مريضاً، وحل محله ((يانغ قوه تشونغ)) شقيق الحظية يانغ، الذي كان أردأ من لي لين فو. ففي رأي آن لو شان، كان لي لين فو نافذ البصيرة وواسع الذكاء يستطيع إطاعته. أما يانغ قوه تشونغ فأعجز منه كثير حري بالاحتقار. كانت العلاقة بين يانغ قوه تشونغ وآن لو شان سيئة للغاية.

حذر يانغ قوه تشانغ الإمبراطور مرات من تدبر آن لو شان على الانقلاب.

في بادئ الأمر لم يصدقه الإمبراطور. إنما على مر الأيام، تكشفت مؤامرة آن لو شان، الذي طلب من البلاط تبديل الاثنين والثلاثين قائداً من قومية هان في مدينة فان يانغ بقادة في جيشه. عندما استدعاه الإمبراطور إلى البلاط، تمارض ورفض. لم يشك الإمبراطور في إخلاصه إلا بعد كل ذلك. لكن لم يجد الإمبراطور وكبير الوزراء يانغ قوه تشونغ أي حل للوقاية من الانقلاب الوشيك رغماً من شكوكهما في آن لو شان.

طالما حاولا تثبيت آن لو شان بحذر وحيطة، مما اضطراهما إلى تنفيذ خطته قبل الوقت المحدد.

في أكتوبر عام 755 ميلادي، قام آن لو شان بالانقلاب بعد الإعداد الكامل، والإمبراطور تانغ شوان تسونغ كان على قيد الحياة. اختلق مرسوماً ملكياً زعم أنه صدر من العاصمة تشانغ آن، وادعى أن الإمبراطور أمره بقيادة الجيش إلى تشانغ آن لإسقاط يانغ قوه تشنغ. ذهل القادة والجنود عند ذلك جميعاً، غير أن أحداً لم يقدم على إظهار شكوكه.

قاد جيشه الضخم الذي كان يشمل مائة وخمسين ماشياً وفارساً باتجاه الجنوب في فجر اليوم التالي. دقت الطبول مثل هدير الرعد يرعب إمبراطورية تانغ على بكرة أبيها، والتي لو تشهد حرباً

منذ مئات السنين. لم يعرف المسؤولون في حقبة السلام كيفية التصدي لهذا الهجوم، فهرب من هرب، استسلم من استسلم، أسر من أسر، قتل من قتل. لم يلاق جيش آن لو شان أي مقاومة بالكاد في البداية.

إن خبر الانقلاب مثل صعقة هادرة أفزعت البلاط كله. لما وصل الخبر إلى مسمع الإمبراطور، لم يصدقه في أول الأمر. لاحقاً توافدت التحذيرات من الجبهات الأمامية إلى العاصمة، مما حيره وجمع المسؤولين للنقاش عن الحل. لكن، كم طال السلام وكم نأى الاضطراب بالنسبة إلى المسؤولين! لم يجربوا الضوضاء في حياتهم، فكيف يجدون طريقة لإيقافها؟ كانوا يحتارون، بينما يانغ قوه تشونغ بدأ يتباهى ببصرته الثاقبة متفاخراً بنفسه. قال: ألم أقل لكم سلفاً أن آن لو شان سوف يتمرد؟ لكن في الواقع، لم يعرف كيف يتعامل مع الانقلاب مثل سائر المسؤولين.

يتخيل يانغ قوه تشانغ أن الانقلاب سيخمد سريعاً. خفف عن الإمبراطور باتزان: لا داعي للقلق يا جلالتكم. فالمتمرد الحقيقي هو آن لو شان وحده ولن يتبعه جيشه بالتأكيد. أتأكد أن رأسه المقطوع سيرسل إلينا خلال عشرة أيام على أكثر التقدير. أشعر قول يانغ قوه تشونغ هذا الإمبراطور بالراحة، فمضى في التمتع بحياته المعتادة في العاصمة.

لم يضع في حسبانه أبداً أن الجيش المتمرد سرعان ما عبر النهر الأصفر واحتل مدينة لو يانغ. إن سقوط العاصمة تشانغ آن مجرد مسألة الوقت الآن.

# 121
# فتنة تل ((ما وي يي))

تطرق ((باى تشوي يي)) شاعر عهد أسرة تانغ في قصيدة «الحسرة السرمدية» المشهد التالي:

عندما دخل جيش آن لو شان قلعة ((تونغ قوان))، هبّت هبات في داخل العاصمة تشان آن. اجتاح الجيش القصور الملكية، وفر الإمبراطورية تانغ شوان تسونغ شريداً وطريداً مع حظيته، وطريق الفرار ممتلئ بالأشواك. لما وصل الركب بتل ما وي يي بعد المشقات، رفض حراس الإمبراطور أن يواصلوا المسيرة معه إلا أن يقتل الحظية يانغ قوي فليخفف حقد الشعب. ماذا فعل الإمبراطور؟ على أي حال من الأحوال، لم تكن حظيته أثمن من إمبراطوريته. أخيراً، ماتت شنقاً بحبل على رقبتها عند سفح تل ما وي يي. فارقت الجميلة حياتها على هذا النحو، ومجوهراتها متناثرة على الأرض، شاهد العيان لحياتها في مدها وجزرها. أما الإمبراطور فحجب وجهه بالأكمام، وعيناه مغرورقتين بالدموع.

لماذا انتهت قصتهما؟ الإمبراطور وحظيته بتلك المأساة؟

فلنبدأ بسقوط قلعة تونغ قوان، التي تعتبر بوابة للعاصمة. ظلت تعد موقعاً استراتيجياً مهماً بطبيعتها الشاقة ومعبرها الضيق. كلما أقبل الليل، اشتعلت نار على أبراج المراقبة للقلعة تشعر أهل العاصمة تشانغ آن بالطمأنينة. لذا كان الناس يطلقون على النار «نار السلام».

مجابهة بهجوم الجيش المتمرد، دعا ((قه شو هان)) قائد حراس قلعة تونغ قوان إلى التشبث بالموقع منتظراً لفرصة القضاء على العدو، في حين طلب الجنرالان قوا تس يي ولي قوانغ بي من الإمبراطور إرسال الجيش إلى الجبهة الشمالية، كما شددا على ضرورة صمود حراس القلعة حتى

يسقطا مدينة ((فان يانغ)) – قاعدة آن لو شان. إنما عارض يانغ قوا تشونغ دعوة الجنرالين المحنكين بشدة؟

كان سبب معارضته بسيطاً. خاف أن يخطف قه شو هان منصبه بعد عدته إلى البلاط. أسرف في اتهامات قه شو هان أمام الإمبراطور بأن جبنه سيفوتهم فرصة القضاء على الجيش المتمرد حتماً. مضللاً بقوله، أمطر الإمبراطور على قه شو هان الأوامر بمواجهة العدو خارج القلعة.

إن أوامر الإمبراطور لا تقاوم أياً كان الأمر. فتح بوابة القلعة كارهاً وحزيناً، على الدراية أن الفشل مكتوب عليه.

لحظتها كان جيش آن لو شان على الاستعداد التام لهجوم جيش تانغ عند خروجه من القلعة. فما إن خرج حتى وقع في كمين. خسر قه شو هان جيشه المتكون من مائتي ألف عسكري بأكملها بالكاد. لما حشد آخر جنوده الثمانية آلاف لآخر معركة فاصلة، كانوا قد فقدوا معنوياتهم تماماً. فدخل الجيش المتمرد القلعة وأسر قه شو هان.

هكذا، انفتحت البوابة بمصراعيها للعاصمة تشانغ آن مع سقوط القلعة تونغ قوان. هرب كثير من المسؤولين المدنيين والعسكريين من العاصمة إدراكاً لحالهم. لم يعد أحد يشعر بالطمأنينة كما كان عليه في الماضي. أخيراً رعى الإمبراطور تانغ شوان تسونغ بالخطر. علق كل الأمل على يانغ قوه تشونغ وأمره بإيجاد الحل لمقاومة الجيش المتمرد.

جمع يانغ قوه تشونغ جميع المسؤولين في العاصمة. حاول سدى أن يصنعوا حيلة له. في النهاية، قرر تحريض الإمبراطور على الهروب من العاصمة واللجوء إلى مدينة تشانغ دو جنوب غربي الإمبراطورية. قبل اقتراحه الإمبراطور مجبراً ولا خيار آخر أمامه. في ذات الليلة فر سرياً من العاصمة تشانغ آن تحت حراسة حراس القصر بقيادة الجنرال ((تشان شوان لي))، ومعه بعض المسؤولين، الحظايا وأبنائه وأحفاده. كانوا مستعجلين في الهروب، حتى لم يعلّموا أهل العاصمة بفرارهم.

وقتما أتوا إلى مدينة ((شيان يانغ)) وجدوا أن أحداً لم يحتف بهم، إذ إن عمدة المدينة كان قد هرب، في حين أنهم ظلوا يجالدون الجوع القاتل طول سيرتهم لنصف يوم. طال تسول واستجداء

الحراس لأهل المدينة حتى أحرزوا الخبز من الحبوب الخشنة. انقض المسؤولون والوجهاء على المأكولات وابتلعوا مثل الذئاب النهمة دون أدنى الاكتراث بالأدب والأناقة. شق أحد الشيوخ الطريق في الزحام إلى عربة الإمبراطور طلما من لقاء تانغ شوان تسونغ. تكلم والدموع تنهمر على وجهه: طالما يؤامر آن لو شان على الخيانة! سبق أن كشف الكثير عن مكيدته للبلاط لكن إنما احتبسوا وإنما قتلوا. جلالتكم! كيف تتعرف على أحوال الإمبراطورية الحقيقية في القصر الملكي؟ كلما وصل كلام المجاملة إلى آذانكم كانت صاغية؛ كلما سمعت نصائحنا عامة الشعب كانت مغلقة. لولا هذه الداهية لما نجد فرصة لننصحكم!

ملكت الحيرة الإمبراطور عند قول الشيخ.

مرت عدة أيام. وصل الركب تل ما وي يي والحراس يموتون من الجوع والإرهاق. كانوا مستعرين بالغضب، باعتقاد أن يانغ قوه تسونغ هو سبب معاناتهم. لو لم يزح المسؤولين الحكماء عن البلاط باستمرار، لو لم يحرض الإمبراطور على الفرار من العاصمة بالإصرار، لما وقع ما وقع الآن من المصيبة. فقرروا محاسبة يانغ قوه تشونغ.

من باب الصدفة، كان حوالى عشرون وافداً من منطقة قومية تو بوه يعترضون طريق يانغ قوه تشونغ طلباً منه الزاد. فإذا بهتافات ارتفعت من بين الحراس قبل أن يرد على الوافدين، قائلاً: غدر يانغ قوه تشونغ مع تو بوه! ارتمت سهام مع الصياح إلى اليانغ قوه تشونغ، الذي حاول الهروب دون جدوى. تدافع الحراس الغاضبون عليه وأخذوا حياته.

فوجئ الإمبراطور كثيراً بمصرع يانغ قوه تشونغ. خرج لتعزيتهم وحثهم على أخذ قسط من الراحة في المخيمات قبل أن ينطلقوا، متحاملاً على حسرته الدفينة. إنما لم تنطفئ لهب سخطهم. وكل الإمبراطور قاو لي شي على التفاهم تشان شوان لي: لِمَ يستمر غضب الحراس؟

أجاب تشان شوان لي: بما أن يانغ قوه تشونغ غدر، فليس من الملائم لنبقي الحظية يانغ قوي فيفي القصر وهي أخت يانغ قوه تشونغ. أرجو أن يقتلها جلالتنا رغماً عن حبه لها.

لاذ الإمبراطور بالوجوم الطويل. «سأفكر في الأمر».

أحفظ سكوته الحراس، الذين كانوا يصرخون بلا أي أثر للتراجع. في هذه اللحظة الخطيرة، اقتحم ((وي أه)) الـ «سي لو» للعاصمة أي مدير دائرة النيابة للعاصمة إلى رؤية الإمبراطور إيعازاً له: إن غضب الجميل صعب لتهدئته. الآن ما إذا كنا نهدئ غضب الحراس يتوقف على قراركم، فلا ترددوا! في أعقاب فروغه من قوله ركع. صدم رأسه بالأرض بالاستمرار حتى انثالت الدماء على جبينه.

سأل الإمبراطور: ما شأن الحظية يانغ قوي بالخيانة وهي ظلت في قصري؟

رد عليه قاو لي شي: صحيح إنها بريئة. لكن كيف يطمئن الحراس بتواجد الحظية يانغ قوي في جانبك بعد أن قتلوا أخاها؟ تأمل في الأمر يا جلالتك. لا طمأنينتكم بلا طمأنينتهم.

لم يعد خيار آخر أمام الإمبراطور. جعل قاو لي شي يحضر الحظية إلى صالة لأحد المعابد البوذية، ويشنقها تحت شجرة كمثرى.

ها هو ما يعرف بفتنة تل ما وي يي في التاريخ. بعد الفتنة، واصل الركب مسيرته حتى دخل الإمبراطور مدينة تشانغ دو في غاية الحرج مثل طائر مرعوب بسهم الصياد. نظم الشاعر باى تشوي يي قصيدة مشهورة «الحسرة السرمدية» حسب ما حدث في الفتنة بعد سنوات منها.

ما الجدير بذكره أن باى تشوي يي تناول في قصيدته أن تانغ شوان تسونغ والحظية يانغ قوي فيأخذا عهداً في قصر تشانغ شانغ[30] في السابع من يوليو منتصف الليل الصامت. نذرا أن يبقيا معاً مثل زوجين طائرين عندما يحيان، ويموتا معاً مثل جذور الشجر المتشابكة تحت الأرض، بينما استحال التقاء أحدهما بالآخر إذ فصلت بينهما الدنيا والآخرة. ربما للوقت نهايته، أما الحب المأساوي لا حصر له.

إن الإمبراطور تراجع وتحسر. بالنسبة إلى الإمبراطور كان هناك من يدون آلامه في شعره، إنما كيف بالأحرى آلام أبناء الشعب في الاضطرابات المتتالية؟ من يهتم بها، ومن يدونها لهم؟

# 122

# زهادة ((لي مي)) بهد تحقيق الإنجازات

نصحنا لو تسي الفيلسوف الصيني في كتابه «داوديجنغ» أن الإنسان يتعين أن يزهد عن أشغال الدنيا بعد نجاحه وانتشار سمعته. إن هذا الفعل يطابق مجرى الأمور الطبيعي.

في الواقع يكون هذا سلكاً للحياة يفضله الكثير. لماذا يحب مثل هذا السلك؟ إن السبب سهل للشرح. لا يغيب عن الأذهان أن كل شيء له ازدهاره وانحطاطه. على سبيل المثال، بدأت الزهور تذبل في ذروة تفتحها، كما أن الإنسان لا مفر له من الشيب والوفاة. لكل من الإنسان والأشياء حدوده. عليه فإذا أصر الإنسان على التنافي دون إدراك حدوده والتراجع في وقته، ضر بنفسه.

يمكننا أن نجد عدداً غير قليل من الأمثلة المعاكسة في التاريخ. بعضهم تمسكوا بسلطته بعد إنجاز المآثر قبل نزول الشدائد عليهم، منهم ((لي سي))، الذي حكم بالإعدام في ساحة ((دونغ شي)). هناك بعض آخر تراجعوا عن السلطة حقاً لكن بشكل غير واف فأصيب بالمصيبة أيضاً، بما فيه ((تشانغ ليانغ))الذي قطع ممارسته لـ «بي قو»[31] على إغرام الإمبراطورة الأم ((لوي)). عاد يأكل، فلم يحقق حلمه للحياة الأزلية في نهاية المطاف. إن الكثير من الناس يؤسف لنهاية تشانغ ليانغ بسبب إنجازاته الجليلة، حتى يرسموا له خاتمة أمثل، حيث تنكر بالوفاة ليتزهد مع الملاك ((تشي سونغ تسي)).

لم يفلح الناس في الزهادة عن الدنيا بكل معنى الكلمة بعد تحقيق الإنجازات إلا قلة القليل. منها ((فان لي))، الذي ابتعد عن بلاط الملك ((قو جيان)) مؤسس مملكة يوه بعد مساندته لإبادة مملكة وو، وصرف باقية حياته بكل حرية في جوبان البلاد طولاً وعرضاً على متن قاربته. في الواقع، كان هناك شخص يمكن إدراجه إلى قلة القليل المذكورة أيضاً، ألا وهو لي مي. قصته فيما يلي.

عاصر لي مي عصراً مضطرباً حيث قعقع الإمبراطور تانغ شوان تسونغ إلى جنوب غربي الصين بعد أن احتل آن لو شان العاصمة تشانغ آن، واعتلى بعده العرش ولي العهد ابنه ((لي هنغ)) في مدينة ((لينغ وو)). يعرف لي هنغ بالإمبراطور ((تانغ سو تسونغ)).

كان الإمبراطور تانغ سو تسونغ في أمس حاجة إلى رجل ذي كفاءة لمساعدته على إحياء الإمبراطورية. فتذكر صديق طفولته لي مي. فمن هو لي مي؟

ولد لي مي في العاصمة تشانغ آن. ذاع صيته بحسن ذكائه منذ نعومة أظفار. لذا شجع الإمبراطور تانغ شوان تسونغ ابنه لي هنغ وهو كان ملقباً بأمير ((تشونغ)) وقتها، على مصادقة لي مي، مما وثق الصداقة بينهما. لما نصب لي هنغ ولي العهد رفع لي مي رسالة للإمبراطور فيها يسهب الحديث عن استراتيجية الإمبراطورية وسياساتها، مما كسب له إعجاب الإمبراطور تانغ شوان تسونغ، الذي اعتزم منح لي مي منصباً إنما تنازل عنه. استوثقت الصداقة بين ولي العهد ولي مي قبل اعتلاء الأول العرش، والذي دائماً ما يطلق الآخر بالأستاذ احتراماً له. في الوقت اللاحق تعرض لي مي لكراهية يانغ قوه تشونغ الذي طلب من الإمبراطور أن يبعده عن العاصمة إلى محافظة ((جي تشون)).

فجعل لي مي ذلك فرصة لزهاده عن الأشغال في بيته فبلدة ((يينغ يانغ)).

اعتلى لي هنغ في مدينة لينغ وو في بحر انقلاب آن لو شان وتابعه شي سي مينغ. بعد أن تم تتويجه، أرسل مبعوثاً لاسترجاع لي مي إلى جانبه. فعاد لي مي فوراً إلى البلاط. سر الإمبراطور تانغ سو تسونغ غاية السرور. من الوقت فصاعداً، لم يخرج مع لي مي إلا وحصانه مواز لحصانه، ولم ينم إلا مع وجود لي مي على السرير مقابل سريره كما كان عليه في الماضي. ارتأى رأي لي مي في جميع الأمور كبيرة وصغيرة حتى تعيين القادة وكبار الوزراء وعزلهم، ولم يستشره إلا وتبع رأيه.

ما من أحد بإعجاب وثقة الإمبراطور به مثل لي مي في عصره.

اعتزم الإمبراطور تعيين لي مي بالوزير الأول، لكنه ألح في التنازل عنه. شرح للإمبراطور: تعاملني معاملة الضيوف والأصدقاء، أليس ذلك أغلى من منصب الوزير الأول؟ فبحسن معاملتك لي لا أحتاج إلى المنصب وأنا أصلاً لا أتطلع إليه.

فلم يعينه الوزير الأول كما أشاء.

كانت إمبراطورية تانغ في عصر لي مي مضطربة في الحروب المحتدمة في أنحائها. تناهت التقارير من الجبهات الأمامية إلى الإمبراطور تانغ سو تسونغ مثل زهور الثلج المتساقطة. وكل الإمبراطور لي مي في معاملة هذه التقارير نيابة عنه إلا تلك البالغة الأهمية والطارئة. كان لي مي يعتكف على العمل حتى لم يجد وقت للطعام أحياناً. علاوة على ذلك، أعطى الإمبراطور مفاتيح أبواب القصور لولي العهد ولي مي ليحتفظا بها.

فبدأ لي مي يعمل بشكل أجد شكراً على ثقة الإمبراطور البالغة به.

فمن السهل أن يقلق ويرتبك في الحروب المطردة. ذات مرة سأله الإمبراطور بشيء من التذمر: إن الجيش المتمرد قوي. إلى متى نستطيع إعادة الاستقرار إلى بلادنا؟ أجاب لي مي بالرزانة: لا يدخرون الجهود في نقل غنائمهم إلى قاعدتهم مدينة فان يانغ البعيدة، فذلك يدل على أنهم لا يطمحون في السيطرة على كل الإمبراطورية. فضلاً عن ذلك، فإن معظم جنودهم من قومية هو. أما القليل من قومية هان فغالبيتهم مغرم عليهم. فأرى أن الحرب ستنتهي خلال عامين أو أكثر.

هدأ الإمبراطور عند هذا القول. ما لبث أن طرح لي مي استراتيجيته لقمع الانقلاب. اقترح الإمبراطور على مهاجمة الجيش المتمرد من الأمام ومن الخلف، حيث يقود الجنرال ((قوه تس يي)) جيشاً للهجوم على قاعدة الجيش المتمرد – فان يانغ لقطع طريق التراجع عليه، ويقود الجنرال ((لي قوانغ بي)) جيشاً آخر لتطويق الجيش المتمرد.

إن استراتيجيته رائعة جداً جاءت نتاجاً لبصرته، وإن بصرته نشأت من ملاحظته الثاقبة لأوضاع البلاد.

لم يستطع الإمبراطور تانغ سو تسونغ الموافقة على مقترحاته أكثر. شيئاً فشئياً تسير قلب الإمبراطور، ووضع الإمبراطور كذلك. لما أقبل الربيع في السنة التالية، ظهرت النزاعات الداخلية بين القوات العاصية، والتي انتهت باغتيال آن لو شان من قبل ولده ((آن تشينغ شوي))، الذي نصب نفسه ملكاً فيما بعد في مدينة تشانغ آن. سنحت فرصة للقضاء الجيش المتمرد في ظل البلبلة داخله، غير أن الإمبراطور يفوتها للأسف الشديد. فكان طبقاً لاستراتيجية لي مي الأصلي يتعين أن يسقط الجيش بقيادة قوه تسي يي قاعدة عدوه فان يانغ، لكن الإمبراطور الذي كان يتعجل في استعادة

العاصمة استدعى قوه تسي يي وجيشه من شرقي النهر الأصفر إلى أكناف مدينة تشانغ آن. كان الجيش يواصل نهاره بالليل في الهجوم على تشانغ آن، إنما باء بالفشل بعد خور قوته.

في نهاية المطاف، استعان قوه تسي يي بقومية ((هوي قه))، ثم أسقط العاصمة تشانغ آن المحتلة.

ما يكاد جيش تانغ يسترجع العاصمة حتى استعاد مدينة لوه يانغ، مما أجبر آن تشينغ شوي على الفرار إلى مقاطعة خه بي. أما شي سي مينغ القائد للجيش المتمرد بعد آن لو شان، فلم يعد مفراً له من الاستسلام. هكذا استقر الوضع بشكل عام.

ظل الإمبراطور تانغ سو تسونغ يحسن معاملة لي مي كأنه من أشقائه، مما أثار غيرة الأشرار منه. كان ((لي فو قوه)) الخصي و((تشانغ ليانغ دي)) الحظية أشد حقداً عليه ويتآمران على نزعه.

كان لي مي قد وضع في حسبانه أن حظوته في عين الإمبراطور قد تعرضه لحسد غيره البغضاء. لذا تعهد مع الإمبراطور بأن يغادر البلاط إلى زهادته وقت استعادة العاصمة تشانغ آن. بما أن الاستقرار قد عاد إلى الإمبراطورية، اعتقد أن الوقت للوفاء بعهده قد تحين. ذات يوم قال للإمبراطور الذي كان منشرح الصدر: هل تذكر العهد الذي أخذناه؟ الآن استعدنا العاصمة، فحان وقت فراقي إلى الجبال وأدغال الغابات.

جزع الإمبراطور لما سمع قوله هذا. أطال حديثه مع لي مي آملاً أن يستبقياه للاستمرار في مساندته: لقد تشاركنا في السراء والضراء، الآن حان الوقت لنتشارك في السراء. ما كاد الوضع يشهد الاستقرار حتى تصر على مغادرتي، وذلك فعلاً يحزنني!

لكن لي مي قد وطد عزمه على الزهادة مهما كيف استبقاه الإمبراطور. أخيراً وافق الإمبراطور على طلب لي مي، الذي تزهد في جبل ((هنغ شان)) الواقع اليوم في مقاطعة ((هو نان)) حتى وفاته. فيمكن القول إن لي مي في عائلة جيدة، عاش ناجحاً وتوفي قرير العين. أما لي فو قوه وتشانغ ليانغ تي فخاتمتهما كما يلي. كانت تشانغ ليانغ تي اعتزمت نزع لي فو قوه الذي تكبر وغطرس أمامها في حين كان الإمبراطور تانغ سو تسونغ على شفا الموت. لكن انكشفت خطتها فعوقبت بالإعدام. أما لي فو قوه فأرسل الإمبراطور ((تانغ داى تسونغ)) الذي اعتلى العرش بعد

تانغ سو تسونغ أرسل قاتلين لاغتياله في غرفة نومه في الليل، حتى رأسه المقطوع ارتمى إلى المرحاض القذر.

# 123
# الحرب الحامية الوطيس بين
# لي قوان شوي وشي سي مينغ

أوشك أن يصل انقلاب «آن – شي» الذي دام ثمانية أعوام إلى نهايته. أنهاه الجنرال المشهور لي قوانغ بي.

ولد لي قوانغ بي في مدينة ((ليو تشانغ)) بمحافظة ((يينغ تشو)) المعروفة اليوم بمدينة ((تشاو يانغ)) بمقاطعة ((لياو نينغ)) وهو من قومية تشيه دان. انضم إلى الجيش منذ صغره بحيث يبرع في الفروسية وفنون السهم. أنجز مآثر عسكرية جبارة لإمبراطورية تانغ خلال انقلاب آن – شي. سنرى كيف أخمد الانقلاب فيما يلي.

ذكرنا سلفاً أن آن تشينغ لو ولد آن لو شان لقد فر إلى مقاطعة خه بي. أرسل الإمبراطور تانغ سو تسونغ تسعة حكماء «جيه دو شي» من بيهم الجنرالين قوه تس يي ولي قوانغ بي. من الجدير بالذكر أنه لم يعين القائد الأعلى عن قصد حتى لا يستبد أي منهم بالسلطة. في الوقت نفسه، أرسل ((يو تشاو أن)) الخصي للإشراف عليهم بينما لا يعرف الخصي الشؤون العسكرية ولو حرفاً.

دخلت ظاهرة إشراف الخصيان على الجيش إلى حيز الوجود، إنما تفشت في حقبة حكم الإمبراطور.

يرجع سبب نشوء هذه الظاهرة إلى تشكك الإمبراطور في قادة الجيوش. تطرق ((سون وو)) الخبير العسكري في كتابه «فن الحرب»: عندما يقود القائد جيشه خارج العاصمة، يجوز له أن يتخذ القرار دون إبلاغ الإمبراطور مقدماً، حتى يمكنه أن يرفض أوامر الإمبراطور في بعض الأحيان. قال سون وو هكذا إذ إن الحرب ممتلئة بالتغيرات تتطلب القادة باتخاذ القرار حاسماً لكيلا يفوت الفرصة. وإلا فقد صار الفائز في البداية خاسراً في النهاية.

لكن القائد مثل سيف مرهف. توقع الإمبراطور أن يكون السيف ضد العدو أبداً، لكن إذا صار خائناً يتخلص من سيطرته فماذا يكون الأمر؟ لا يخلو التاريخ من أثملة القادة الخونة وآن لو شان واحد منهم. استناداً إلى ذلك، فمن الطبيعي أن تراود الإمبراطور الشكوك في صميمه عندما يعين قائداً. طالما يشك فيه، يرسل أكثر أتباعه اقتراباً منه لمراقبته. من هؤلاء الأتباع؟

من نافلة القول إنهم إنما الحظايا وإنما الخصيان.

كان الخصيان في عين الإمبراطور مجرد خدمته وهم أسهل من القادة للتحكم فيهم. ليكن المشكلة أن غالبية الخصيان لا يعرفون فنون الحرب، مما أدى إلى الخلافات بينهم وبين القادة والتي تعتبر سبباً رئيسياً للهزيمة في الحرب.

لنمض في قصتنا. أرسل الإمبراطور تانغ سو تسونغ يو تشاو أن الخصي الذي لا يعرف الشؤون العسكرية للإشراف على الجيش. في الظواهر يقوم بالإشراف على حكماء «جيه دو شي»، بينما في البواطن يراقب قوه تسي يي ولي قوانغ بي. على هذا النحو وقعا في رقابة يو تشاو أن الصارمة، الأمر الذي قلل سلطتهما بشكل كبير.

فهل يستطيع الاثنان النصر تحت رقابة يو تشاو أن؟

كانت قوات آن تشينغ شوي ضعيفة لا داعي للقلق عليها، غير أن جيش المدد بقيادة شي سي مينغ زاد قوتها. جابه جيش تانغ قوات آن تشنغ شوي وشي سي مينغ بقيادة الجنرال قوه تسي يي. بينما كان الطرفان المتحاربان يخوضان في المعركة المحتدمة، إذ عصفت موجة من العاصفة بالقوات المتقاتلة التي افترقت في الجو الغائم. شن شي سي مينغ الهجوم على الجيش تانغ مستغلاً للجو وألحق بجيش تانغ هزيمة كبيرة. عزا يو تشاو أن كل المسؤولية عن الهزيمة إلى قوه تس يي، الأمر الذي ضلل الإمبراطور إلى خلع قوه تس يي عن منصبه وإحلال لي قوانغ بي محله.

بدأ لي قوانغ بي إعادة تنظيم الجيش على إثر وصوله إلى مدينة لوه يانغ، في حين قال مصدر الخط الأمامي إن شي سي مينغ كان قد قتل آن تشنغ شوي ونصب نفسه ملكاً لمملكة يان الكبرى، والآن يقود الجيش نحو مدينة لوه يانغ. في لحظتها كان في لوه يانغ مجرد عشرين ألف جندي وذلك أضعف من أن يقاوم عدوان شي سي مينغ. تسارع لي قوان بي إلى القرار على انسحاب الجيش وأهل المدينة من لوه يانغ إلى مدينة ((خه يانغ)) المعروفة اليوم بمحافظة ((مينغ

شيان)) بمقاطعة ((خه نان)) وإخلاء مدينة لو يانغ من المؤونة. هكذا ترك مدينة خالية لشي سي مينغ. ما نفع المدينة الخالية له؟!

لما دخل المدينة مع قواته، وجد الشوارع والأزقة خالية من الناس. خشية على الكمين داخل المدينة، أمر جنوده بالخروج من لوه يانغ ومرابطو جنوب مدينو خه يانغ حيث واجه جيش تانغ عن بعد والذي كان يتمركز على الشاطئ الآخر للنهر. دامت المواجهة سنة. كانت قوات لي قوانغ بي أضعف مما لدى شي سي مينغ، فقرر أن يغلبها بحيلة.

هناك حيلة رابعة من الحيل التي اتخذها لي يوان بي – حيلة «الخيل». عرف أن الشي سي مينغ أحضر حوالى ألف خيل حربي من مقاطعة خه بي إلى جيشه وهو حريص عليها. كل يوم كلف رعاة الخيول على رعيها وغسلها عند الشط المعشوشب وإظهارها لجيش تانغ.

صنع لي قوانغ بي حيلة رداً عليه. أمر بسياقة أفراس (أنثى الحصيان) من مخيماته إلى الشاطئ لتتمازج مع خيول العدو وتركها تلعب معاً. في الوقت نفسه حظر الأحصنة الصغيرة التي صهلت نداء لأماتها عندما أغربت الشمس. ما إن سمعت الأفراس نداء أولادها حتى رجعت من الشاطئ، ومعها خيول شي سي مينغ.

على هذا النحو خسر شي سي مينغ حوالى ألف خيل حربي، مما ضيقه كثيراً. قرر أن يداهم جيش تانغ عن طريق البحر انتقاماً منه. أرسل مئات البوارج التي كان على مقدمتها السفن النارية للهجوم على الجسور الطائفة على سطح المياه في قبضة يد جيش تانغ. فبأي طريقة تصدى له لي قوانغ بي؟

في الواقع كان لي قوان بي مستعداً لمواجهة السفن النارية. جعل مئات الجنود يحملون أعواد الخيزران العريضة الملفوف بالدروع المقاومة النار في نهايتها، فعندما اقتربت السفن النارية منهم، أوقفوها بالأعواد بكل ما لديهم من القوة حتى اشتعلت واشتعلت في الموقع قبل أن تسقط في المياه. أما السفن في الخلف فأسقطهم جيش تانغ بالصخور. بعض الجنود سقط مع السفن، والبعض الآخر قفز إلى الماء ليهرب. بلغ ضيق شي سي مينغ مبلغه بعد فشله أمام لي قوانغ بي مراراً وتكراراً.

قسم قواته إلى جيشين لشن الجهوم الأخير على مدينة خه يانغ من جهتين الشمالية والجنوبية. كان الجيش الشمالي بقيادة تابعه تشو تشي، أما الجيش الجنوبي فقاده بنفسه. ركب جنود تانغ شيء

من الخوف عندما رأوا جموعاً من الأعداء تحت سور المدينة مثل الغيوم المتلبدة.

لاحظ لي قوانغ بي ما يدور في قلوب جنوده. حشد جيع القادة والجنود ليشجعهم بحماس. قال المقولة: ينفق على جيش ألف يوم لاستخدامه ساعة واحدة! الآن قد أتى الأعداء إلى الأبواب، فعلينا أن ندافع عن المدينة إلى الموت. لا يتجسد شرفنا إلا في استشهادنا في سبيل بلادنا وشعبنا. فتتحركون بحسب إشارة رايتي. إذا لوحت بها ببطء تنتظرون إلى فرصة مناسبة للهجوم؛ إذا لوحت بها بسرعة فتقدموا جميعكم مهما كان الأمر. من يحاول التراجع أقطع رأسه.

ثم وضع خنجراً في جزمته وقال منفعلاً: أي منا قد يموت في ساحة القتال. لكني جنرال للمملكة فلن أموت تحت أيدي أعدائنا. عرضاً أن ننهزم حقاً، تستشهدون في الجبهة، وأنتحر ههنا. لم أكن لأترككم تموتون فأنا أعيش وحدي! تأثر الجميع بقوله هذا المفعم بالهمة والعزم فصاحوا بصوت واحد! جنرال! إن تعش نعش، لو تمت لمتنا معكم!

أخيراً فاز جيش تانغ على عدوه الذي كان يضاعفه أضعاف قوة، مما رفع معنوياته بشكل كبير.

وقتها أملى الإمبراطور تانغ سو تسونغ عليه أن يداهم مدينة لوه يانغ على أجنحة نصره، وهو متشكك في إخلاصه له. نظراً لقوة الجيش المتمرد القوية فإنه من السخف أن يداهمها في تلك اللحظة. على الرغم من ذلك، فلا مفر أن يعمل بما أمره الإمبراطور باعتباره الإمبراطور. انتهى الأمر بفشله، وبالتالي عزله عن منصبه.

لحسن الطالع أنه سرعان ما نشأت النزعات داخل القوات المتمردة حيث اغتال ((شي تشاو يي)) أباه شي سي مينغ.

لم يقدر على توحيد القوات المتمردة كما فعل أبوه، فتفككت وهزمها جيش تانغ واحدة تلو الأخرى. في عام 763 ميلادي قتل شي تشاو يي نفسه بعد انهزامه الأخير، ما يعد نهاية لانقلاب آن – شي الذي استمر ثماني سنوات من الاضطراب، بدءاً من عصيان آن ل وشان، حتى انتحار شي تشاو يي.

بالطبع لو يهدأ الوضع فوراً هدأ الانقلاب.

لقد انحرفت إمبراطورية تانغ من الازدهار إلى الانحطاط بعد السنوات الثمانية الحافلة بالصعاب. مر الوقت مرور السحاب، حيث كانت الإمبراطورية مثل شيخ شرب عليه الدهر وأكل. حاول النهوض مراراً، ليجد نفسه يسقط مريضاً تكراراً، فلم يعد قادراً على شيء سوى استعراض ريعان شبابه وشعره قد شاب.

سنركز في الفصول التالية على تاريخ أواخر عهد أسرة تانغ الذي شهد انقسام الإمبراطورية، انفراد الخصيان بالسلطة والتخاصم بين الجماعات السياسية، التي تعد الأسباب الرئيسية الثلاثة لهلاك إمبراطورية تانغ الكبرى.

# 124
# الشاعر دو فو والتاريخ في أشعاره

ذكرنا سلفاً مغادرة لي باى عن العاصمة تشانغ آن لجوب أنحاء البلاد، حيث التقى بدو فو، الشاعر العظيم مثله. سجل لقاؤهما أكثر صفحة جمالاً وإثارة للخيال في تاريخ الشعر.

عندما تقابلا في مدينة لوه يانغ، كان لي باى في الرابعة والأربعين من عمره ودو فو في الثالثة والثلاثين من عمره. شعر الشاعران كأنهما صديقان قديمان مع أنه التقى أحدهما بالآخر لأول مرة، فشارك دو فو صديقه الشاعر في رحلته الحرة. عمدا إلى مدينة كاى فانغ ومدينة شان تشيو أولاً، ثم انتقلا إلى مقاطعة شان دونغ في العام التالي.

معاً جربا حياة طليقة ومريحة.

كانا يقطفان العقاقير في المنطقة عن القرب من مدينة ((ليانغ تشو)) ومدينة ((سونغ تشو))، كما سافرا إلى جبل ((وانغ وو شان)) – مقدس مذهب الطاوية عبوراً من النهر الأصفر المتدفق، لعبادة الزهيد ((هوا قاى جون))، وذهبا إلى جبل ((دونغ منغ شان)) لزيارة المعلمين الكبيرين ((دونغ ليان شي)) و((يوان يي رن)). إن كلاهما كان يتمنى لو يستقران حق الحقيقة ويترفعان عن الشؤون الدنيوية.

سبق أن صعدا على منصة ((تشوي تاى))، حيث يجيلان البصر حول السحاب الملتف على جبل ((مانغ يانغ شان)) في الجنوب؛ ورقيا إلى منصة ((شان فو تاى)) عند غروب الشمس للإشراف على الأوراق المتساقطة وأمواج من الأعشاب الصفراء لا حصر لها. إذا بالرياح هبت والسحب تحوم على السماء، فتدفقت ملامح الدنيا إلى أعين الشاعرين، اللذين كانا يسرفان في الشرب، ويفرطان في إنشاد الشعر.

عامل بعضهما البعض معاملة الإخوان. كانا يسافران سوياً في النهار، وينامان معاً مخمرين. لكن كم كانت الساعة السعيدة قصيرة! فاعتزم دو فو التوجه إلى الغرب للاشتراك في امتحان فرز المسؤولين في مدينة تشانغ آن، بينما ود لي باى العودة إلى شرق نهر يانغتسي. افترقا عند البوابة الصخرية عند غربي مدينة ((يان تشو)). أفرغ الاثنان الخمر في كأسيهما، ونفضا الغبار عن الأزياء، ثم ودع بعضهما الآخر بعناق سريع وابتسامة خفيفة.

لم يتلاقيا مرة أخرى طيلة عمرهما.

يطلق على لي باى بـ «أمير الشعر». كان مولعاً بفن الخطاب والمناظرة في البداية، ثم انتقل إلى المعلومات الطاوية في الشيخوخة. بما أنه ظل طليق النفس وحر التصرفات، صادقت كثيراً من الأصحاب ونادراً ما اشتاق إلى دو فو. لكن الآخر ظل يحترق في توقه إلى صديقه لي باى أينما أتى. ما إن وصل مدينة تشانغ آن نظم شعراً اشتياقاً إليه. كان يتساءل نفسه: ترى متى يمكن أن يشربا الخمر وينشدا الشعر معاً من جديد؟ لكن مهما كان يحن إلى لي باى إنسانه وطريقه، لم يمتنع عن شق طريق نفسه بين الأشواك والصعاب، حتى أصبح «عميد الشعر» الذي يضاهي لي باى في سمعته.

فلنروِ قصة حياته المليئة بالنكسات.

ولد دو فو في محافظة ((قونغ شيان)) وأرض أجداده كانت مدينة ((شيانغ يانغ)). نال اسمه الرسمي «تسي مي» بعد بلوغ سنة الرشد. نشأ حبه للأدب منذ طفولته. صرف شبابه في الصيد والتجوال والضحكات مع أصحابه. سبق أن جاب أراضي الممالك القديمة، بما فيها ممالك وو، يوه، تشي وتشاو. ثم عمد إلى مدينة لوه يانغ حيث تقدم في امتحان التوظيف الحكومي لكن لم ينجح. عندما بلغ الثالثة والثلاثين التقى بلي باى في مدينة لوه يانغ فأخذه في رحلة ممتعة حرة معه.

في عام 747 ميلادي وجه البلاط دعوة للمثقفين والمؤدبين من أنحاء البلاد إلى العاصمة تشانغ آن. لم يتردد دو فو في تلبية الدعوة لتحقيق حلمه وهو حينئذ الخامسة والثلاثين من عمره. لكن لسوء الحظ كان لي لين فو كبير الوزراء يتمسك بزمام الحكم، وهو حاسد على المثقفين دوي الكفاءة وخشية على أن ينتقدوا شؤون الدولة بشكل عشوائي مما شكل تهديداً لمكانته. فتواطأ مع مشرف

الامتحان ليرسب جميع المتقدمين للامتحان، ثم خدع الإمبراطور تانغ شوان تسونغ بأن جميع الأكفاء في البلاد قد تم توظيفهم ولم يغفل أحداً منهم.

للأسف الشديد أن الإمبراطور الأحمق صدق كلامه الباطل.

لم يفكر دو فو قط في أن ينتهي حلمه على هذا النحو. كان حزنه شديد لا يوصف. ففي عصره كان البلاط من الإمبراطور إلى المسؤولين مغطى بالفساد والجهل، فما هي إلا أن تفتأ أمثلته الرفيعة وطموحاته العظيمة مثل زبد ورغوة. بقي دو فو في العاصمة تشانغ آن لمدة عشرة أعوام في شظف العيش. رغم ذلك تكبّد جميع المشقات للبقاء في تشانغ آن، التي كانت مسرحه لتحقيق أحلامه كما كان يعتقد.

لم تتحين فرصة له حتى عام 751 ميلادي المتفق مع الشهر الأول من السنة العاشرة لحقبة تيان باو. أقام البلاط ثلاث احتفالات لعبادة الإمبراطور شوان يوان المغفور له، معبد الأجداد والسماء والأرض. كتب دو فو، وهو متمخط في ضيق حياته، «مقامات الاحتفالات» التي تضع في ثلاث مقالات لرفعها إلى الإمبراطور. بعد قراءته، اندهش كثيراً. فجعل كبير الوزراء يختبر دو فو، بحيث وجده موهوباً. عينه مشرفاً عاماً لخزانة الدروع والأسلحة، ما تعد صبغة باهرة نادرة طول حياته.

لكن لم يمر على تعيينه وقت طويل حتى اندلع انقلاب آن – شي.

فبدأ رحلاته المتشرد متنقلاً بين القوات المتحاربة. لما عرف اعتلاء الإمبراطور تانغ سو تسونغ العرش في مدينة لينغ وو أسكن أسرته في قرية ((تشانغ)) بمدينة ((فو تشو))، ثم قصد إلى الإمبراطور. غير أنه صادف الجيش المتمرد الذي أرسله إلى العاصمة تشانغ آن، حيث كانت قوات آن لو شان ترتكب الفظائع بلا رادع. نهبت وذبحت وأحرقت حيثما أتت، مما حولت تشانغ آن أرض الفوضى. أما المسؤولين المتبقين في العاصمة فبعضهم نقل إلى مدينة لوه يانغ تحت حراسة الجيش المتمرد، وبعضهم استسلم للجيش المتمرد. كان دو فو متدني الرتبة وقليل السمعة، لذلك هرب دون معرفة غيره.

في العام التالي علم بقدوم الإمبراطور تانغ سو توسنغ إلى مدينة ((فنغ شيانغ)) بمقاطعة ((شان شي)). فعزم أن يلجأ إليه مهما كانت مشقات الرحلة.

صابر مصاعب فوق الوصف. لما وصل مقصده أخيراً، وجده الإمبراطور لابساً الأزياء البالية التي لم تغط أكواعه والحذاء المصنوع من القنب النخزة. منحه منصب «زوه شي يي» المسؤول عن تقديم النصائح للإمبراطور، متأثراً بمظهره الهزيل المحزن. لكن طبيعته في الحقيقة لم تتناسب مع ظروف الحكومة، فسرعان ما أزيح عن منصبه بسبب صراحته ليشتغل منصباً صغيراً في مدينة ((هوا تشو)) النائية.

اتسع اطلاعه على أحوال المجتمع في رحلته إلى مدينة هوا تشو.

مر بكل من محافظات ((شين آن))، ((شي هاو)) و((تونغ قوان)) حيث رأى الظلم والظلام. سخرت الحكومات المحلية كل الرجال حتى المسنين والعجز لمقاومة الجيش المتمرد. لم يهدأ قلب دو فو يوماً عند تلك المشاهد، ودونها في أشعاره برأفته وحسرته. لنرَ القصة التي رواها في شعره الحاملة عنوان «مسؤول محافظة شي هاو»: كان لزوجان طاعنين في السن ثلاثة أولاد. سخر ثلاثتهم ليكونوا جنوداً للدفاع عن مدينة ((يه تشانغ))، واستشهد اثنان منهم. لكن ألح العميل الحكومي في تسخير الرجال من العائلة، فأرغم العجوز على الهروب، بينما أجبرت زوجة على خدمة الجيش. ربما في أعينهم ربما لن يستكين قلب الإنسان إلا عند لحظة المنون، طالما يعيش، يتعذب ويتألم.

ألف دو فو في بحر رحلته هذه ستة أشعار وكلها ظفرت بالشهرة المنتشرة، ألا وهي «عميل شي هاو»، «عميل تونغ قوان»، «عميل شين آن»، «فراق الزوجين»، «فراق العجوزين»، «فراق المتشرد». يمكننا الإحساس بالحسرة والدماء والدموع التي تختبئ بين الكلمات والسطور بمجرة لمحة عن عناوينها. تعرف هذه الأشعار الستة جملةً بـ «العلماء الثلاثة والفراقات الثلاثة».

وصف القراء والنقاد أشعار دو فو بأنها «التاريخ في الأشعار»، التي سجل فيها أحداثاً ضئيلة وقعت في المجتمع المضطرب بدقة ورقة. كانت الأحداث صغيرة بالفعل، إنما تنعكس فيها مسار انحطاط إمبراطورية تانغ الكبرى.

استقال من منصبه في العام التالي، ثم انتقل شمل عائلته من مدينة هوا تشو إلى مدينة ((تشانغ دو)) بسبب الجفاف الذي اجتاح منطقة ((قوان تشونغ)). شغل مستشاراً عند ((يان وو)) حاكم ولاية ((جيان نان)) أثناء في تشانغ دو، حيث قضى فترة من الوقت الهادئ في كوخه المطل على ساقية ((هوان هوا))[32] بالضاحية غرب مدينة تشانغ دو.

لقد ألقينا لمحة سريعة عن هذه الفترة من حياته عندما نحكي قصة تشو قه ليانغ. لم يمسك نفسه يوماً عن متابعة أوضاع البلاد رغم هدوء حياته في تشانغ دو.

لاحقاً شهدت منطقة شو تشونغ بلبلة بعد وفاة يان وو، مما شرّد دو فو مرة ثانية. انقضت بقية حياته في مناطق جينغ وتشو حتى أدركته ساعة الموت عام 770 ميلادي ناهز السنة التاسعة والخمسين وهو في آخر لحظته يركب قارباً ضيقاً على نهر ((شيانغ جيانغ)) بمدينة ((يوه يانغ))، محتد المرض. أما صديقه لي باى الذي ظل يتردد على ذهنه، فكان قد توفي قبل ثماني سنوات.

ذاق الشاعران كل الصعاب طوال العمر، لكن أدركا الدنيا بالشعرية الحلوة. صعدا على قمة للشعر يستعصي على منْ خلفهما الوصول إليه.

# 125
# عدم اكتراث ((يان تشان تشنيغ)) بالتهديد

احتلت إمبراطورية تانغ التي كانت يسودها الازدهار بعد انقلاب آن – شي.

الآن نركز انتباهنا على عامل مهم مترسخ في إمبراطورية تانغ تسبب في هلاكها، ألا وهو الانقسام، أو بالأحرى استبداد «جيه دو شي» حكماء الولايات بالسلطة. للتفسير عن هذه الظاهرة بشكل أوضح، هنا نشبه الإمبراطورية قبل الانقلاب بجسم سليم. فإن سلامة الجسم تتمثل في إطاعة اليدين والقدمين والساعدين والرجلين وغيرها من أطرافه لإشارات المخ. لكن في حال اعتلال الجسم، ترفض الأطراف أوامر المخ وتتصرف بإرادة نفسها.

إن الإمبراطورية في أواخرها مثل الجسم العليل. لم تعد الحكومة المركزية بصفتها «مخ» الإمبراطورية تستطيع السيطرة على حكماء الولايات، الذين تخلصوا من تحكم البلاط فيهم وتصرفوا بإرادتهم. يمكن نسب ظاهرة الانقسام إلى انقلاب آن – تشي، الذي هدأ بشكل عام مع وفاة أن لو شان وشي سي مينغ. لكن في الوقت نفسه خلف القادة القدامى للجيش المتمرد، والذين كانوا تظاهرون بالإخلاص للبلاط من ناحية، ويتمسكون بسلطتهم في الولايات في الخفية من ناحية أخرى حتى جعلوها ممالك مستقلة تحت حكمهم.

فكيف تتعامل الحكومة المركزية مع تلك الممالك غير الخاضعة لها؟

أثبت التاريخ أن البلاط عندما تواجهها مثل هذه المشكلة، إنما إن تعامل تلك الممالك باللين، وإنما أن تخضعها بالقوة. فمن قصة يان تشان تشينغ التالية، يمكننا أن نعرف كيف أطاع البلاط تلك الممالك باللين.

في عام 779 ميلادي اعتلى الإمبراطور ((تانغ ده تسونغ)) العرش في ظل تدهور تطور الإمبراطورية وتفاقم استبداد حكماء الولايات بالسلطة. عزم أن تقليص سلطتهم لإعادة الازدهار إلى البلاد. لم يضع في حسبانه أن إجراءاته أفسدت الأوضاع. في عام 782 ميلادي انقلب خمسة حكماء «جيه دو شي» و((لي شي ليه)) الحاكم لولاية ((هوى شي)) كان أقواهم. لجأ الإمبراطور تانغ ده تسونغ في حيرته إلى لو تشي كبير الوزراء.

كان ((لو تشي)) كبير الوزراء شرير النفس. رشح للإمبراطور يان تشان تشينغ متعمداً، والذي ظل ينازعه. فإن يان تشان تشينغ سامي الأخلاق وحسن الصيت. طالما يقوم بإقناع الحكماء بالاستسلام، يمكن أن نهدأ الانقلاب دون أي خسارة لقواتنا.

وافق الإمبراطور على اقتراحه للتو.

كان يا تشان تشينغ يتمتع بمكانة رفيعة ومهابة كبيرة في البلاط. ففي انقلاب آن – تشي سقطت جميع المدن في منطقة خه بي إلا مدينة بينغ يوان تحت رئاسته، وأنجز مآثر جبارة في إخماد الانقلاب لاحقاً. إضافة إلى كفاءته الإدارية والعسكرية، كان أيضاً خطاطاً كبيراً. تجمع أعماله للخط بين القوة والرقة مثل شخصيته الحميدة، ويطلق عليها «أسلوب يان». حظي خطه مع خط ((ليو قوانغ تشوان)) باعتباره عالي ويشتهران بأن «خط يان مرن كالعروق، وخط ليو حاد كالعظام».

دائماً ما أزعج يان تشان تشينغ الآخرين بصراحته واستقامته، وإن ذلك جلب له كثيراً من الاتهامات والتشهيرات ضده.

الواقع أن لو تشي الوزير الشر أوقعه في المكروه عن عمد. نصح أصدقاؤه أن يعتذر عن المهمة بسبب بعد المسافة وصحته السقيمة وسنه الكبيرة، غير أنه كان يعتقد أنه من الخطأ أن يفسد شؤون الدولة بسببه الشخصي. فانطلق في طريقه مع عدة أتباع فقط.

ما لبث أن وصل مدينة شوي تشو حتى طلب لقاء بلي شي ليه.

جعل لي شي ليه أكثر من ألف عسكري يتنظرون خارج الصالة متعمداً، حيث أسهب يان تشان تشينغ في تحليل نتائج الانقلاب المحتملة وقرأ له مرسوم الإمبراطور. لما أتم كلامه، تدافع العسكريون إلى الصالة حاملين السيوف الماضية. التفوا عليه ينهالون السباب ويهددونه بسيوفهم

كأنهم سوف يقطّعونه ويبتلعون لحمه. لم يعقلوا أن يا تشان تشينغ لم يفزع. ما زال رابط الجأش كما كان عليه. نظراً لرد فعله، حجبه لي شي ليه بجسمه، متكلفاً بالسخط على قلة أدب عسكريه وأمرهم بالخروج، وهو كاره في بواطنه. طال اعتذاره وهو محني الرأس، غير أنه لم يذكر سحب جيشه ولو لحظة.

بعد بضعة الأيام، أقام لي شي ليه مأدبة ضخمة لضيافة قادة جيشه ويان تشان تشينغ.

رفع قادة جيشه كؤوسهم نخباً له مهيئين: لقد أتينا يان تشان تشينغ الآن. كم أخلاقه راقية وكم صيته ذائع! لا داعي للبحث في رجل موهوب حيث بيث ليكون وزيرك! إنما قاطعهم يان تشان تشنغ بصرامة: لن أكون وزيراً للمتمرد أبداً. جئتكم اليوم لإقناعكم بالاستسلام للبلاط وتخليصكم عن حافة الهاوية. قدمت هنا وحدي، فلا أبالي إذا قتلتوني، فإن تضحيتي حافزاً لجميع جنود وقادة بلادي!

وجم لي شي ليه وسائر الحضور كلهم.

فاضطر إلى زجه إلى السجن. حاول فيما بعد تهديده برميه إلى حفرة وإحراقه بالنار لكنه لم يرضخ قط.

في نهاية المطاف، لم يعد أمام لي شي ليه خيار آخر إلا قتله.

دلّ فشل يان تشان تشينغ على أن اللين ليس الحل الجذري للحد من انقسام الإمبراطورية. إذا لم يجد اللين نفعاً، فماذا بالأحرى القوة؟

## 126
## إخماد ((لي سو)) فتنة هوى شي

هناك مقتبسات كتاب «فن الحرب».

تطرق مؤلف الكاتب سون وو في «فصل الحيلة» للكاتب أن سر النجاح في الحرب يكمن في الدهاء. استناداً إلى ذلك، يرى أنه في الحرب، على القوي أن يتصنع بالضعف؛ على المهاجم أن يتظاهر بالتراجع؛ إذا أراد القائد الهجوم على مكان قريب، يجب أن يتجاهر بالاتجاه نحو مكان بعيد، والعكس صحيح. كل ذلك في رأي سون وو لأجل تشويه العدو وإحراز النصر الأخير.

سنرى كيف طبّق لي سوو القائد المشهور في أواخر عند أسرة تانغ نظرية سون وو في الحرب.

كان البلاط قد أرسل عدداً هائلاً من المسؤولين المدنيين والعسكريين لتهدئة الفتنة في منطقة هوى شي، سدى وعبثاً. الأدهى أنه أنفق مبلغاً طائلاً من الأموال مما أهرق خزانة الإمبراطورية بشدة. في عام 817 ميلادي، بترشح ((بي دو)) كبير، عين البلاط لي سو حاكم ثلاث ولايات بما فيها ولاية ((تانغ تشو)) لإخماد انقلاب نفذه ((وو يوان جي)) الحاكم لولاية هوى شي. عندما وصل لي سو إلى ولاية تانغ تشو، لم يتسارع في تنظيم الجيش كما تصور الآخرون، بل قام بإذاعة الشائعات أنه مسؤول مدني يبرع في الإدارة لكن لا يتعرف على الشؤون الحربية.

إن فعله هذا يتطابق مع قول سون وو: «على القوي أن يصطنع بالضعف؛ على المهاجم أن يتظاهر بالتراجع».

أراد لي سو تشويه وو يوان جي، فهل وقع الآخر في شركه؟ تبين أنه بدأ يتجاهل بلي سو وتهاون بالحذر منه بعد سماع هذه الشائعات إذ إنه قد أصبح متكبراً ومتعجرفاً بانتصاراته الماضية

في الحروب. أما لي سو فلم يذكر الشؤون الحربية بالفعل، بل ركز جهوده في جمع الأدوية والغذاء من باب إلى باب لتعزية الجنود المصابين والحداد على القتلى. كان يعامل ذوي الجنود الضحايا معاملة أفراد عائلته.

ذات يوم قبض الحرس الدوري في الحدود على ((دينغ شي ليانغ)) أحد قادة الجيش المتمرد في ولاية هوى شي.

سبق لدينغ شي ليانغ أن يتحرش جيش تانغ مراراً وتكراراً، فأضمر كل جيش تانغ حقداً بالغاً عليه. ود العسكريون لو يقتله في وقت أسرع ممكن انتقاماً للجنود القتلى والمصابين. لكن أطلق سراحه لي سو عند رؤيته. ذهب العسكريون لاستفهامه لماذا أفرج عن دينغ شي ليانغ، فشرح لهم: كان دينغ واحداً منا في البداية، واضطر إلى عمل لجيش هوى شي بعد أن أصبح أسيراً لوو يوان جي. سوف يساعدنا على احتلال منطقة هوا شي. لم يصدقوا قوله حتى أسقطوا ((قلعة ون تشانغ)) و((قلعة شينغ تشياو)) القلعتين المهمتين في المنطقة بعون دينغ شي ليانغ. أخيراً اعترفوا ببصرته ودهائه بكل تقدير وإعجاب.

لما تم استعداد تي سو، قرعت طبول الحرب.

في خضم المعركة لإسقاط القلعتين ضم قائدين باسلين من جيش هوى شي إلى جانبه، وهما ((لي يو)) و((لي تشون غيي)). كانا قد عرفا كفاءة لي مي من قبل، فعندما أسرهما، استسلما له عن تلقاء ذاتهما وأخبراه بكل ما عرفا من أحوال الجيش المتمرد. منذ انخراطهما إلى جيش لي سو، فدائماً ما كانا يتناقشان مع لي سو حول طريقة الاستيلاء على مدينة ((تساى تشو)) إلى عتمة الليل.

استاء البعض من لي يو حاسداً عليه بحسن معاملة لي سو له. ادعى أن لي جاسوس أرسله الجيش المتمرد. سرعان ما انتشرت النميمة حول لي يو في الجيش حتى ذاع إلى العاصمة. بذل لي سو جهوداً كبيرة في سره لحماية لي يو من اتهامات باطلة ضده أمام الإمبراطور، إذ إنه مفتاح لإحراز النصر في المعركة. كلف جنوداً لنقل لي يو إلى العاصمة تشانغ آن وأوصاهم بحسن معاملته وهو كان قد رفع رسالة سرية إلى البلاط مقدماً فيها شرح سبب نقل لي يو إلى البلاط، وأعلم الإمبراطور بأنه قد عمل مع لي يو حيلة رائعة لاحتلال مدينة تساى تشو وهي لن ينجح دون لي يو.

لما قرأ الإمبراطور ((تانغ تشان تسونغ)) الرسالة أمر لي يو بالرجوع فوراً لمساعدة لي سو. بما أن الإمبراطور قد وقف إلى جانب لي يو، لم يعد القادة في مدينة تانغ تشو يجرؤون على التهمة ضده. أما لي يو نفسه فذرف دموعاً حارة تأثيراً بجهود لي سو المبذولة لحمايته وأقسم على تعويض فضل لي سو عليه بكل ما لديه من الوسع. قال له: إذا شنّينا الهجوم على مدينة تساى تشو فالنصر في متناول أيدينا، لأن وو يوان جي ركز جيشه في منطقة ((دونغ تشيو)) والمناطق الحدودية. لن يوجد الحراس في تساى تشو ما عدا المسنين والضعفاء.

فكيف قام لي سو بالهجوم بلا اكتراث وو يوان جي به؟

لجأ لي سو إلى حكمة سون وو مجدداً: «إذا يود القائد الهجوم على مكان قريب، يجب أن يتجاهر بالاتجاه نحو مكان بعيد، والعكس صحيح». لم يجهر نيته للهجوم على مدينة تساى تشو، إنما أخذ بتوزيع قواته خلسة. كلف لي يو ولي تشونغ يي ليقودا فريق الطليعة المتكونة من ثلاثة آلاف جندي مختارين نحو الشرق، وقام جيشه ليتبع بهما. لم يذكر لي سو خطته لإسقاط مدينة تساى تشو في أثناء مسيرة جيشه. عندما وصل قرية ((تشانغ تشاى)) باغت قوات هوى شي المتمركزة هناك وأسْرهم جميعاً.

أمر لي سو بتقوية السيطرة على مدخل القرية لقطع الطريق المفضي إلى مدينة هوي تشيو التي كان عشرة آلاف جندي لجيش وو يوان جي يرابطون فيها. ثم مضى جيش تانغ في السير. جنّ الليل المظلم عليه، وبدأت الثلوج تتساقط من السماء الداجية. التف الظلام المرعب على الجنود المتثاقلين في خطاهم، والذين لم يتسرب إلى مسامعهم إلا عواء الرياح وخشخشة طبقة الثلج تحت أقدامهم.

أخيراً أعلن لي سو أمام جنوده أنهم سيهاجمون مدينة تساى تشو ويقبضون على وو يوان جي، مما أرعب جميع القادة والجنود الذين كانوا قد انهزموا أمام وو يوان جي مرات. كان بودهم التراجع، لكن ركبهم الخوف من عقوبة لي سو عليهم. فاستمروا في المضي يائسين، ظناً منهم أن الهلاك محتوم عليهم.

زحف الجيش في الليل والسماء تثلج. حينما وصل مدينة تساى تشو كان حراسها يستغرقون في النوم. ربما لم يخطر ببالهم أن يفقدوا حياتهم قبل الاستيقاظ من أحلامه. تسلل جنود تانغ إلى

المدينة بقادة لي سو، ودخلوا الباحة خارج منزل وو يوان جيي دون معرفة أحد، في حين توقف الثلج مع صياح الديك الأول.

اكتشف أحد جنود هواى جيش تانغ، وأسرع إلى غرفة وو يوجي مرعوباً لإخباره بمباغتة جيش تانغ، بينما تمطى وو يوان جي، وقال له ضاحكاً: مستحيل! بالتأكيد أن هناك معتقلون يسرقون الأشياء. سأقتلهم جميعاً في الصباح. لكن بعد ذلك وصل إليه خبر سقوط المدينة.

لكن وو يوان جي لم يحمل الخبر على محمل الجد. استمر في الحديث بلهجة مازحة: فأراهن على أنهم أهل مدينة هوي تشيو يطلبون مني الملابس السميكة للوقاية من برد الشتاء.

بكى الجندي جذعاً لموقف وو يوان جي. مع بكائه ارتفعت الصياح والهتافات.

أفاق وو يوان جي مدهوشاً. قفز على الأرض، جرى إلى الفناء الداخلي وأمر العسكريون فيها بإغلاق البوابة. حاول المقاومة سدى، فرمى جنود تانغ السهام النارية إلى الفناء، وكثير من أهل المدينة يزودونهم بالقشوش. بعد أن استحملوا بما لا يطاق من طغيان وو يوان جي، اختاروا الوقوف إلى جانب لي سو.

دام الحصار والهجوم يوماً، وقبض لي سو على وو يوان جي عشية اليوم التالي.

لما عرف حكماء الولايات المراق في مقطعة خه بي بأن وو يوان جي قبض عليه وهو أقواهم، تبادروا إلى التودد للبلاط خوفاً. ورفعوا رسائل الاستسلام إليه واحداً تلو آخر. عاد الاستقرار المؤقت إلى الإمبراطورية بهدوء الانقسام. يبدو أن القوة أنفع من اللين في تسوية مشكلة الانقسام، غير أن كبح الفتنة بالقوة مكلف جداً ينهك قوة الإمبراطور. نشبت الانقلابات هنا وهناك استحال إخمادها في آن واحد. رويداً رويداً، خورت قوة الإمبراطورية في الحروب المتتالية بين البلاط والمتمردين.

# 127
# معارضة هان يو لتقديس عظم البوذا

في عام 1092 ميلادي بدأ ((سو شي)) الأديب المشهور مرثية. كان يكتب الأديب العبقري بسرعة سريعة عادة، لكن هذه المرة تأمل وتبصر ونقحها عشرات المرات حتى أتم الجملتين كالمقدمة «ولد إنساناً عادياً وتوفي قدوة مثالية للأجيال بعده، وأقواله حكمة تهدي الدنيا إلى الصواب». إن هاتين الجملتين رائعتان تعرضان للناس صورة رجل حكيم مرشد.

فمن هو الرجل؟

قبل تأليف سو شي للمرثية بسبعين سنة، كان طفل اسمه أو يانغ شيو. ذات يوم صادف ديواناً أدبياً على رفوف كتب جاره. رغم أن جزءاً من الديوان قد فُقد، خطف قلب الطفل، الذي لم يتركه يوماً طوال بقية حياته. على مر الأيام أصبح الطفل مرجعياً للأوساط الأدبي. امتلأت الكتب بمنزله، كما سمعته انتشرت في كل البلاد. ظل يحتفظ بالديوان مهما كانت كتبه غزيرة ومهما كانت سمعته مدوية.

فمن صاحب الديوان؟

هو ((هان يو))، البطل للقصتين.

ولد هان يو في مدينة ((خه يانغ)) بمقاطعة خه نان (الواقعة على غرب محافظة مينغ بمقاطعة خه نان) واسمه الرسمي ((توي تشي)). إنه أديب ومفكر بارز لعهد أسرة تانغ. سنروي قصة من قصصه منها نحس بهالته. لقد ذكرنا في الفصل السابق أن لس سو أخمد انقلاب منطقة هواى شي، ما يعد حدثاً كبيراً جديراً بالاحتفال به. قرر الإمبراطور تانغ شيان تسونغ إقامة نصب تذكاري إحياء للانتصار. فمن سوف يكتب مقالة المدح التي تنقش على النصب؟

تذكر ها يو. بدأ هان يو كتابته بكل جد وجهد بعد أن تلاقى أمر الإمبراطور. فسرعان ما أتم «المديح لإخماد انقلاب هواى شي»، التي تعتبر رائعة لامعة. لم يخطر ببال الكثير أنه لم يطل بإتمام رائعته حتى أغضب الإمبراطور ونفي إلى مدينة ((تشاو تشو)).

كان الإمبراطور يود حفظ عظم البوذا في العاصمة.

كان هناك باغودا بتسمية ((باغودا هوقوهتشانشان)) داخل معبد ((فا منيغ)) لمدينة ((فانغ شيانغ)). يحفظ في الباغودا قطعة من عظم الإصبع التي يحكى أنها من المخلفات المقدسة ((غوتاما بودا)) بعد النيرفانا[33]. كانت الباغودا تفتح مرة كل ثلاثين عاماً لأداء الناس تقديرهم وعبادتهم لعظم البوذا. اعتزم الإمبراطور نقل عظم البوذا إلى العاصمة تشانغ آن وإقامة مراسم كبيرة تبجيلاً له، وذلك لأجل الدعاء ببركة البوذا عليهم وطلب الحياة الأزلية.

بعد وصول العظم إلى القصر الملكي بثلاثة أيام، تنقل بين المعابد في العاصمة حيث يُعرض ويُعبد.

لما انتشر خبر إتيان العظم، غلت العاصمة سروراً.

تدفق أهل العاصمة من الأمير إلى الغفير لرؤيته، وبدا كأن العاصمة كلها وقعت في الهوس الجنوني بالبوذية. لم تقتصر أفعالهم على تقديم الزهور وإشعال البخور والمصابيح، وهي مقبولة، بل بلغ هوس البعض إلى درجة أنهم باعوا منازلهم للتبرع بالأموال للمعابد، حتى كوى البعض رؤوسهم وأذرعهم بالعصا البخور لإثبات تدينهم.

لم يتمالك هان يو نفسه عن التحرك لإيقاظ الناس من هوسهم الأعمى.

رفع رسالة بعنوان «تحليل عظم البوذا» إلى الإمبراطور فيها قال إن عبادة البوذا من عادات القوميات المتأخرة لم تدخل السهول الوسطى حتى حقبة إمبراطور ((هان مينغ)) لعهد أسرة هان. أظهر التاريخ أن الممالك التي كانت تعتنق البوذية لا أحد منها بقي طويلاً، مما أثبت أن عبادة البوذية لا يضمن بثبات الحكم، كما ضرب مثال ملك ليانغ وو دي الذي ذكرنا سابقاً. علق عليه هان يو: إنه يعبد البوذا لأجل الخير، بيد أنه جلب لنفسه الشر، فليس من الحكيم عبادة البوذا. اقترح ها يو الإمبراطور في خاتمة رسالته على نبذ عظم البوذا في الماء أو النار لكيلا يضر بنظام المجتمع.

ليس من الصعب أن نتصور كم كان الإمبراطور تانغ شيان تسونغ سخطاً عندما تلاقى رسالة ها يو هذه. صاح بقتل هان يو وهو متلظى في الغضب.

تسارع ((بي دو)) كبير الوزراء في الشفاعة له أمام الإمبراطور. قال الإمبراطور وغضبه انخفض قليلاً: يقول إنني أسرف في عبادة البوذية. ممكن ألا أبالي بقوله هذا. لكنه يزعم أن الإمبراطور المعتنق بالبوذية لن يحيا طويلاً، فكيف أسامحه؟

في النهاية نفى هان يو إلى مدينة تشاو تشو ليشغل وليها بدلاً من قتله.

تنأى تشاو تشو عن العاصمة تشانغ آن، لكن لا خيار آخر لهان يو، الذي كان قد تجاوز الخمسين سنة وقتئذ، سوى أن يجالد مشقة الرحلة الشديدة. لما مر بقلعة ((لان قوان))، هبطت معنوياته إلى القاع ظناً منه أنه لن يعود إلى العاصمة قطعياً. فنظم الشعر الشهير «إلى ابن أخي ((سون شيانغ))» الذي دليل على روحه المتدنية واعتناقه بأنه سوف يموت في المنفى. فهل انتهت حياته حقاً في مدينة تشاو تشو البعيدة كما قال في شعره؟

كلا. تغلب على كل الصعاب، وحقق إنجازاً باهر الأنظار في تشاو تشو. لما وصل مقصده للرحلة، تخلص من ضيقه وبدأ يعتكف على معاملة شؤون الأهل المحليين. سألوهم: ماذا يضايقكم؟

شكا رجل: في نهر ((أه شي)) شرقي المدينة تماسيح تؤذي المواش دائماً. نعاني منه كثيراً ونعيش في الفقر بسببه.

رد ها يو: فلننزعه. لكن بأي طريقة؟ قيل إنه كتب «مرثاة التمساح». وكل الأشخاص على رمي ضأن واحد وخنزير واحد إلى النهر طعاماً للتماسيح، ومجاهرة بقراءة المرثاة.

قال ها يو في مرثاته إلى التماسيح: يا حيوانات! البحر يقع جنوب مدينة تشاو تشو. أعطي لكم ثلاثة أيام لسرح المدينة إلى البحر مع عائلتكم. إذا كانت ثلاثة أيام لا تكفيكم أمددها إلى خمسة أيام، إذا كانت خمسة أيام لا تكفيكم أعطيكم مهلة إضافية ليوكين؛ إن لم تسرحون بعد سبع أيام، أقتلكم بالسهام السامة.

من محض المصادفة، قيل إن التماسيح اختفت من النهر بعد قراءة المرثاة بعدة أيام. ابتهج أهل المدينة كثيراً ونسوا الفضل إلى ها يو. بعد العمل في تشاو تشو لمدة عام، عاد إلى العاصمة

وبقي فيها حتى توفي عن عمر يناهز الخمسين والسابعة عام 824 ميلادي المتفق مع العام الرابع لحقبة ((تشانغ تشينغ)).

لنعيد النظر إلى حياة هان يو بالإيجاز: ظل أهل مدينة تشاو تشو يذكره عن ظهر قلبهم على الرغم من أنه لم يعمل فيها إلا لمدة قصيرة. شيدوا معبداً تذكارياً له بعد وفاته بأكثر من مائتي سنة ودعا الأديب العظيم سو شي لكتابة المرثية، التي فيها ثمنه سو شي بأنه «ولد إنساناً عادياً وتوفي قدوة مثالية للأجيال بعده، وأقواله حكمة تهدي الدنيا إلى الصواب».

# 128

# حادثة ((قان لو))

الآن ننتقل إلى المشكلة الثانية لإمبراطورية تانغ في أواخرها: الخصيان.

يقول البعض إن في الدنيا كثيراً من الناس يعيشون منحنيين، بينما يقل عدد من يمشون على طريق الحياة رافعين رؤوسهم. يصح هذا الكلام. كان النظام السياسي في أواخر عهد أسرة تانغ ممتلئاً بالنواقص، التي أدركها كثرة الكثيرة، بينما لم يقدم على نقدها إلا قلة القليلة. فكان معظم الناس لا يهتمون بمستقبل البلاد طالما يمكنهم أن يجدوا لقمة العيش. لكن في الوقت نفسه، ما زال هناك فريق صغير من الناس قرر مصارحة المشاكل أمام الجميع، في وقفتهم المعتدلة وأصواتهم الجهورية.

تصدت أصواتهم في قصر التاريخ.

كان ((ليو فن)) واحداً من الأجرياء وهو مثقف. في عام 828 ميلادي المصادف العام الثاني من حقبة ((دا خه)) حقبة حكم الإمبراطور ((تانغو ن تسونغ))، نجح في امتحانات التوظيف الحكومي. عندما كان يتقدم في الامتحان لمادة «النصائح والحكمة»، وجه سهم الانتقاد إلى الخصيان الذين كانوا يعبثون بالنظام السياسي. كما عزا تراجع سلطة الإمبراطور إليهم. رأى أن الحل الوحيد لتخليص إمبراطورية تانغ من شفا الهلاك هو إعادة السلطة الإدارية إلى كبار الوزراء، وإعادة السلطة العسكرية إلى المسؤولين العسكريين.

لا يغيب عن الأذهان أن الحل للاضطراب يتمثل في تحسين النظام بإعادة السلطات إلى من يستحقوها. في الحقيقة، فمن السهل إيجاد الحل، لكن من المستعصي تنفيذه بعرقلة الخصيان المنفردين بالسلطة. قال ليو قان بصراحة ما يحوم في أذهان الجميع، مما أثار تجاوباً حاراً آنذاك. بعد قراءة نصائحه، تأثر مشرفو الامتحان ((فانغ سو)) و((جيا سو)) و((بانغ يان)) كثيراً، ووصفوه

بأنه يضاهي ((تشاو تسوه)) و((دونغ تشونغ شو))[34] في الكفاءة. أجمعوا على التحاقه بالحكومة، لكن لم ينجح بسبب عرقلة الخصيان.

في الواقع أنه من الحتمي أن يفشل ليو فان وهو في عصر الظلم.

لما دخلت أسرة تانغ مرحلتها الأخيرة، لم تعد النصائح المستقيمة مرغوب فيها. فأين مكان الاستقامة في إمبراطورية منحرفة ومنتحلة؟ ظل البعض بتوهم أن يصمتوا الجماهير العامة بتسديد أفواه الناصحين المستقيمين. كانوا يغمغمون في بواطنهم: خلي الانتقادات والنصائح الحادة اللاذعة تختف! فاختفت الانتقالات والنصائح في آذانهم، لكن لم تختف الجروح على جسم الإمبراطورية الكبيرة بهذه السهولة، بل ظل يذرف دماء، حتى يوم انهياره بآلام الجروح الشديدة. فكيف ضر الخصيان بالإمبراطورية؟

سنجد الجواب في قصة «حادثة قان لو».

كما نعرف فإن قاو لي شي كان يمتلك سلطة كبيرة في حقبة الإمبراطور الأسبق تانغ شوان تشونغ. لم يلحق بالإمبراطورية ضرراً خطيراً إذ إنه لم يجرؤ على الإفراط في سلطته. فتح قاو لي شي باباً للاستيلاء على السلطة للخصيان بعده، بما فيهم ((لي فو قاو)) و((يو تشاو أن))... الخ. تعاظمت دائرة سلطة الخصيان في حقبة حكم الإمبراطور ((تانغ مو تسونغ)) إلى درجة أنها كادت تتجاوز سلطة الإمبراطورية، بحيث حاول الخصيان التدخل في عملية تحديد ولي العهد. لما اعتلى ((لي آنغ)) الإمبراطور ((تانغو ن تسونغ)) العرش، حزم عزمه على اقتلاع الخصيان من البلاط.

في العام الثاني من حقبة حكمه، اتهم لو فان بأن الخصيان يختلون بالنظام السياسي.

كان الخصيان وقتها يتمسكون بالسلطة العسكرية، كما يتواطؤون مع المسؤولين المدنيين في البلاط لجعلهم أحلافهم. تحكموا في البلاط حتى الإمبراطور نفسه. رداً على تصرفات الخصيان المغالية، بدأ الإمبراطور جمع الأكفاء إلى مسانديه في استرداد سلطته من أيدي الخصيان.

ذات مرة أصيب الإمبراطور بمرض شديد. أثناء مرضه تعرف إلى مسؤول بارع في الطب باسم ((تشانغ تشو))، الذي عالج مرضه سريعاً. وجده الإمبراطور قادراً على معاملة الأمور بشكل سليم وحاسم جديراً بالثقة، مما أعجب به كثيراً. لما تعافى، عينه المدير العام لديوان ‘‘يو شي

تاي"[35]. بعد ذلك، اختار ((لي شيون)) الذي كان موظفاً صغيراً ليكون كبير الوزراء بترشيح تشانغ تشو. كانا يضمران في نفسيهما امتناناً عميقاً تجاه الإمبراطور لاهتمامه البالغ بهما.

ظن الإمبراطور أن الفرصة لتنفيذ خطته قد أتت نظراً لولائهما له، فوشى لهما بنيته لاستئصال الخصيان. بعد النقاش المطول، اتفقوا على أن يثيروا النزاعات بين الخصيان باستغلال التناقضات داخلهم قبل اقتلاعهم دفعة واحدة. بما أن زعيم الخصيان وقتها هو ((وانغ تشو تشانغ))، أصدر الإمبراطور مرسوماً لتعيين ((تشيو تشي ليانغ)) ليكون نائب القائد الأعلى لجيش الحراسة الملكي، وهو خصي عدو لوانغ تشو تشانغ. كانت نية الإمبراطور أن يقلل من سلطة وانغ تشو تشانغ بتعيينه لعدوه. اتخذ سلسلة من الإجراءات الأخرى لاحقاً لمواصلة تقليل سلطة وانغ تشو تشانغ.

جاء نتاجاً لتلك الإجراءات أن أتباع وانغ تشون تشانغ غدروه واحداً واحداً بعد أن فقد سلطته الحقيقية. أخيراً أعطاه الإمبراطور كأساً من الخمر السام ليقتل نفسه به.

لقد نزع الإمبراطور وانغ تشو تشانغ. الآن حان وقت نزع تشيو شي ليانغ.

لم يمر الأمر على ما يرام هذه المرة.

بعد التخطيط الدقيق، عمل الإمبراطور وتشانغ تشو ولي شيوان ثلاثتهم حيلة ((قان لو))[36] أي خدع تشيو تشي ليانغ بنزول الغيث السماوي ودله على موقعه، حيث يقتلوه بمساعدة ((هان يويه)) قائد جيش الحراسة الملكي.

جاء يوم تنفيذ الحيلة. عندما كان الإمبراطور يناقش المسؤولين شؤون الدولة في اجتماع البلاط، اقتحم هان يوه إلى البلاط قائلاً إن السماء أمطرت غيثاً يرمز إلى الفؤول على شجرة الرمان في الساحة الخلفية لهيئة ((تسوه جين وو)). دعا الإمبراطور إلى رؤيته بصحبة جميع المسؤولين. أرسل الإمبراطور لي شيوان لمشاهدته. لما عاد الآخر، أخبر الإمبراطور بأنه لم يجد شيئاً أشبه بالغيث.

تظاهر الإمبراطور بالسخط، وأمر تشيو شي ليانغ بمصاحبته لرؤيته.

فقاد تشيو تشي ليانغ جماعة من الخصيان لرؤية المسمى بالغيث في الساحة، بحيث وجد هان يوه كان يتصبب بالعرق مضطرباً. فسأله: ما بك يا جنرال؟ لم يرد عليه، مما أثار شكوكه. هبت

الريح وقتها بستار الساحة، وانكشف فريق من الجنون الحاملين السيوف المرهفة.

أدرك تشيو تشي ليانغ ما يجري على الفور، وأطلق ساقيه للرياح هارباً من الموقع مرعوباً. كاد البواب يغلق البوابة، غير أنه نسي أن يقفل المزلاج مشوهاً بشتائم تشيو تشي ليانغ عليه. فنجح في الفرار.

لما وجد هان يوه أن تشيو تشي ليانغ قد هرب، أدرك أن خطتهم قد اتضحت، فقاد الجنود لمطاردته. لم يعقل أن تشيو شي ليانغ سبقه أن اختطف الإمبراطور تانغو تسونغ رهينة مع سائر الخصيان. كسر منخل الشباك في خلف القصر وهرب منه سريعاً. أسرع لي شيون في الهروب من القصر إذ أدرك أن خططهم قد فضحت. لكن ما كاد يخرج من القصر حتى أدركه القاتل الذي أرسله تشو تشي ليانغ لاغتياله. أما شريكه تشانغ تشو فكان يقود جنوداً لمدينة فانغ تشانغ إلى العاصمة لمساعدة لي شيون. لما عرف أن لي شيون قد لقي مصرعه وأن تشيو شي ليانغ كان يبحث عنه، قرر على رجوع القهقرى. اغتيل بالخصيان في منتصف التراجع.

فشلت الخطة تماماً.

عاد الأمر كما كان عليه في الماضي. اجتاحت حملة تشيو شي ليانغ الانتقامية العاصمة حيث قتل حوالى ألف مسؤول في البلاط إجمالاً، حتى بعض كبار الوزراء فقدوا حياته. شهدت العاصمة تشانغ آن مذبحة دموية قلباً وقالباً أودت بأرواح كثير من الأبرياء. نتيجة عنها، تراجع عدد المسؤولين في البلاط بشكل حاد.

تعرف الخطة الفاشلة لنزع الخصيان بـ «فتنة قان لو». لما علم الخصيان أن الإمبراطور اشترك في تنظيم الفتنة ضده، فرضوا رقابة صارمة عليه. قضى الإمبراطور آخر سنواته الخمس في اكتئاب، ثم توفى مرضاً. اعتلى شقيقه الصغير ((لي يان)) العرش بعده وهو معروف بالإمبراطور ((تانغو وتسونغ)).

قوى الخصيان اعتصامهم بالسلطة على إثر فتنة قان لو.

# 129
# تخاصم الأحزاب

الآن نلقي النظر إلى المشكلة الثالثة لإمبراطورية تانغ في أواخرها: التخاصم بين الأحزاب.

ما هي مزايا هذا التخاصم؟

إنه بمثابة انضمام المسؤولين في البلاط إلى فريقين لمعارضة بعضهم بعضاً. روى ((هان هان)) الكاتب الصيني المعاصر في روايته «بلبلة تشانغ آن» حكاية: كان هناك مجموعة من الناس في الخانة يناظرون حول سؤال: الأرنب والبطيخ، أيهما أغلى؟ رأى البعض أن الأرنب أغلى، ورأى البعض الآخر العكس، فبدأوا يتشاجرون. ثم تصاعد التشاجر إلى التضارب بالأسلحة. عندما كان التضارب يحتدم، نسي المتضاربون مواقفهم الأصلية، بل تشاجروا مع الآخرين لمواصلة التشاجر فقط. إن هذا التشاجر حول الأرنب والبطيخ شرح لنا جوهر التخاصم بين الأحزاب إلى حد ما. ممكن أن تجد الرواية لتتعرف إلى التفاصيل.

نفسر الآن عن كيف نشأ التخاصم بين الأحزاب.

نشأ التخاصم عن خلافات الآراء، التي لم تتصل بالأحزاب في بادئ الأمر. على سبيل المثال، فقد استمرأ اللون الأسود، بينما تفضل أنت اللون الأبيض على الأسود، وذلك يعني أن رأيك يناهض رأيي، مما أغضبني. فبدأت أعارضك وأسأت معاملتك. عليه فمن الطبيعي أن تتضامن مع غيرك للتصدي لي.

في الحال سأجد حلفائي لمقاومتك بالمقابل.

تشكل الفريقان المتعارضان في الجولات من المداهمات على رأسهما أنا وأنت. مع تصاعد التخاصم بيننا نتناسى لماذا نداهم بعضنا البعض، بل نواصل المداهمات بشكل عشوائي. أي شيء

تدع إليه أنكره، والعكس بالعكس.

إن نشأة التخاصم المذكور كما تناول هان هان في روايته. فعندما بلغ التشاجر إلى أوجه، لم يعد من أحد يبالي بخلافهم الأصلي حول الأرنب والبطيخ.

لماذا يأتي التخاصم بين الأحزاب بضرر هائل؟

مرده أنه في حال حدوث تخاصم الأحزاب، لا يستطيع أحد يتخلص منه. في ظل التنازع والتشاجر ترسخت بذور العدوانية في النفوس، مما يضلل الناس إلى الاعتقاد بأنه من الحتمي أن يعارضني منْ مؤيدك والعكس صحيح. مع تورط المزيد فالمزيد من الناس في التخاصم، فمن الصعب أن يحافظ الإنسان بموقفه المحايد دائماً. أخيراً انقسم جميع المسؤولين إلى الفريقين المتعارضين بلا استثناء.

شهد عهد أسرة تانغ في أواخره التخصم بين جماعة ((نيو)) وجماعة ((لي))، الذي نشأ واشتد بصورة تدريجية كما شرحنا سلفاً. سنرى التفاصيل فيما يلي.

يرجع التخاصم بين حزبي نيو ولي إلى عام 808 ميلادي حيث تقدم ((نيو سانغ رو)) و((لي تسونغ مين)) إلى الامتحان النهائي للتوظيف الحكومي. عندما كانا يجيبان على الأسئلة، أشارا إلى المشاكل للنظام الحالي بشكل حاد، كما انتقدا لي لين فو وهو كان كبير الوزراء حينئذ. كان لي لين فو يستاء منهما، فاحتجز أوراقهما للامتحان والتي وجب أن يقيمها المسؤولون المتخصصون. لذا، لم يتم تعيينهما لمدة طويلة رغم من حسن البيان والآراء الملهمة لمقالاتهما.

كل ما ذكر سابقاً أنذر بالتخاصم بين الحزبين في المستقبل.

لم يشغل نيو سانغ رو ولي تسونغ مين أي منصب في البلاط تحت اضطهاد لي لين فو عليهما حتى عام 814 ميلادي التي شهدت وفاة لي لين فو. بدآ يشتغلان في البلاط أخيراً. مع أن لي لين فو قد مات، ما زال كثير من التحديات تواجههما في البلاط، إذ إن وارث سلطة لي لين فو هو ((لي ده يو))، وهو ابن لي لين فو.

ظل لي ده يو يضمر حقداً عليهما بسبب انتقادهما لأبيه.

وجد فرصة للانتقام عليهما عام 821 ميلادي التي فيها نجح ((سو تشاو)) وزج ابنة لي تسونغ مين في امتحان التوظيف الحكومي. رفع مع أصحابه ((يوان تشان)) و((لي شان))، والخصي ((دوان ون تشان)) للإمبراطور تهمة بأن نتيجة الامتحان غير نزيهة. ادعوا في تهمتهم أن لي تسونغ مين أوصى الممتحن بتحييز سو تشاو. كان الإمبراطور ((تان غمو تسونغ)) وقتها يعتزم تحسين النظام السياسي بعيد اعتلائه العرش. بعد أن سمع تهمتهم ضد لي تسونغ مين، خفض منصب الممتحن ((تشيان تشانغ)) للتو. وأزاح لي تسونغ مين عن العاصمة إلى منطقة لغاية النأي.

كنَّ لي تسونغ مين حقداً على لي ده يو بكونه مسؤولاً عن عقاب الإمبراطور عليه. تراكمت حقود أحدهما على الآخر حتى تحولت إلى إحنة لا تكتم. تعرض نيو سانغ رو لظلم لي ده يو أيضاً إذ إنه كان يقف إلى جانب لي تسونغ مين. ظهر حزب نيو برئاسة نيو سانغ رو ولي تسونغ مين وحزب لي برئاسة لي ده يو.

اعتلى الإمبراطور ((تانغ ون تسونغ)) العرش فيما بعد. كان يعجب بالخصيان ويولي ثقة كبيرة لهم، فقام لي تسونغ مين برشوة الخصيان استغلالاً بحظوتهم لدى الإمبراطور فأصبح كبير الوزراء بفضلهم. ثم صار صديقه ني سانغ رو كبير الوزراء أيضاً بترشيحه له. فوحدا الجهود لتلفيق اتهامات ضد لي ده يو أمام الإمبراطور، الذي صدقهما وعزل لي ده يو عن منصب كبير الوزراء ليكون حاكم ولاية شي تشان وحاضرته بمثابة مدينة تشانغ دو في مقاطعة سي تشوان اليوم.

كان لي ده يو يعمل في منصبه بكد وجد للعودة إلى العاصمة مبكراً. قام بتدريب الجيش ليل نهار واسترد مدينة وي تشو[37] المحتلة بقومية تو بو. فحسب العرف يجب منح لي ده يو عطايا طائلة مكافأة له إذ أنجز مأثرة عسكرية، غير أن نيو سانغ رو قال للإمبراطور: لا داعي لمكافأة لي ده يو. بما أنه حاكم الولاية، فاسترداد الأراضي المحتلة من واجباته. إنما عليكم أن تعاقبوه لأنه أفسد علاقة الصداقة بين إمبراطورية تانغ وقومية تو بوه.

أخطأ الإمبراطور تانغو ن تسونغ حكمه لقول نيو سانغ رو. أمر لي دا يو بإرجاع مدينة وي تشو إلى قومية تو بو على الفور واعتذارها. احتقن قلب لي ده يو بالغضب لكن لم يسمح له أن يقاوم أمر الإمبراطور. مع مرور الأيام أدرك الإمبراطور أنه من السخف إرجاع مدينة وي تشو لقومية تو بو، وأن اقتراح نيو سانغ يو له مجرد وسيلة لتقليل قوة لي ده يو والمسؤولين بجانبه.

هم الإمبراطور بالابتعاد عن نو سانغ رو بعد تفهم نيته الدفينة. لكن لا يمكنه نزع جميع مسؤولين لحزب نيو الذين كانوا يمثلون نصف المسؤولين في البلاط، والنصف الآخر ينتمي إلى حزب لي. اضطر الإمبراطور إلى إناطة السلطة بنيو سانغ رو حيناً، وبلي ده يو حيناً آخر، مما أفسد الوضع السياسي.

قلق الإمبراطور تانغو ن تسونغ على التخاصم بين حزبي نيو ولي كثيراً. ذات مرة قال متنهداً: من السهل أن أقضي على العصابات في مقاطعة خه بي، لكن من المستعصي أن أحبط التخاصم بين الحزبين في البلاط.

إن المهاجمات المتبادلة الأحزاب المختلفة مثل غيوم تلبد السماء لإمبراطورية تانغ في أواخره. لما اعتلى الإمبراطور ((تانغو وتسونغ)) العرش نجح لي ده يو في كسب دعم ((يانغ تشين يي)) الخصي الذي كان يحظى عند الإمبراطور تانغو وتسونغ. بالمقابل، فغالباً ما كان الآخر بطري لي دا يو أمام الإمبراطور. ما لبث أن أصبح لي ده يو كبير الوزراء. ثم أتت الأيام على حزب نيو، الذي نفى جميع أفراده إلى منطقة ((لينغ نان)) البعيدة عن العاصمة.

لما انقضت الأيام على حزب نيو، جاءت الأيام له. في أول يوم بعد اعتلاء الإمبراطور ((تانغ شوان تسونغ)) العرش خلع لي ده يو من منصبه وطرده بعد عام إلى مدينة ((يا تشو)) بمقاطعة ((هاى نان)) في أقصى جنوب الصين. بدا كأن الحزبين في صعودهما وهبوطهما يركبان الأرجوحة. استمر التخاصم بينهما دون التوقف.

لكن لكل تخاصم ختامه، والتخاصم بين الحزبين والدائم لمدة حوالى أربعين عاماً غير مستثنى. توفي نيو سانغ رون بعد أخذ حزبه السلطة بعام، وتوفي غريمه لي ده يو بعد عامين آخرين، مما أرمز إلى نهاية التخاصم بين الحزبين. ألحق التخاصم الإمبراطور بخسارة جسيمة لا يعوض عنها.

واصلت الإمبراطور العملاقة خطاها الثقيلة نحو نهايتها.

نعرف أن إدارة البلاد تتطلب العقلانية، والتخاصم بين الأحزاب لا يتبع بمبدأ العقلانية على الإطلاق. في الحقيقة لم يكن تخاصم حزبي نيو ولي خلاف الآراء السياسية بقدر ما كان التناقض الشخصي. إن التخاصم بين الأحزاب مثل تضارب الفريقين بشكل عشوائي في الركلات واللكزات

المتبادلة. ركز الجميع انتباههم على التعبير عن مشاعرهم حتى نسي الوطن المشترك في الصخب واللغط.

# 130
# ثورة ((هوانغ تشاو))

ذات عام سافر مثقف إلى العاصمة تشانغ آن للتقدم لامتحان التوظيف الحكومي، لكن لم ينجح.

خاب أمله. هل كان البلاط مظلم إلى درجة أنه لم يجد مكاناً لاستخدام قدرته في العاصمة الواسعة؟ لكن سرعان ما عاد إلى روحه العالية. خفف عن نفسه في سره: فشلت هذه المرة، لكن سأنجم قابل أيامي بالتأكيد وأوظف كفاءتي في العاصمة. عند ذلك لم يعد يملك نفسه عن نظم شعر عنونه «نشيد زهر الذهب»، حيث قال: أقبل عيد ((تشونغ يانغ)) في موسم الخريف، حيث ذبلت جميع الأزهار سوى زهر الذهب الذي ما زال يتفتح باهراً. تفوح منه الرائحة الذكية، ويبهر الأنظار بلونه الذهبي المتلمع كالدروع الحديدية. كانت المدينة غارقة في أمواج زهر الذهب الجميلة.

ممكن أن نحس ببطولة الشاعر من شعره هذا، الذي فيه شبه نفسه بزهر الذهب على أمل أن تزهر حياته مثلما يتفتح زهر الذهب في الخريف البارد يوماً ما، وينشر سمعته في أنحاء العاصمة التشانغ آن. حقق أحلامه لاحقاً، بصورة أزهى من زهر الذهب المتفتح. عندما دخل العاصمة التي كانت تحزنه وتخيب أمله للمرة الثانية، كان قو صار قائداً لجيش ضخم. كان يجلس على هامته الذهبية ويلتف عليه جنود يحملون أسلحة مختلفة مرتديين العباءات الحريرية.

بطلنا ((هوانغ تشاو))، وقصته كما يلي.

عاصر هوانغ تشاو الوقت الأخير لإمبراطورية تانغ التعلي من ولي كان قد أنهك قوتها كل من حكماء الولايات المتمردين والخصيان المنفردين بالسلطة والأحزاب السياسية المتخاصمة. اشتدت كل المشاكل عندما كان ((لس تسوي)) الإمبراطور ((تانغ شي تسونغ)) و((لي شيوان)) الإمبراطور ((تانغ شي تسونغ)) على العرش. في حقبتي حكمهما كان المسؤولون لا يعرفون

أساليب الإدارة والعسكريون لا يستطيعون التغلب على الأعداء، بل يتواطؤون بعضهم مع البعض يعبثون بالقوانين، يسرفون في الرشوة ولا يذخرون الجهود في نهب ثروة الشعب بنهم، حيث تدمرت عائلات لا تعد ولا تحصى. لقد عانى الشعب مما فوق التحمل لكسب لقمة العيش، الآن قرر النهوض لمقاومة الطغيان.

في بادئ الأمر انفجرت سلسلة من الثورات الشعبية في شرق مقاطعة ((تشه جيانغ)) وأكناف مدينة ((قوي لين)) بمقاطعة ((قوانغ شي)) بمشاركة أكثر من عشرة آلاف شخص. قمعت شرارة تلك الثورات، لكن ظلت أقباس الثورة تشتعل في قلوب الشعب. في نهاية المطاف، انفجر ثورة هوانغ تشاو الكبرى، التي قوضت قاعدة الإمبراطورية.

نتجت الثورة عن غضب تجار المِلح على الحكومة.

ففي أواخر عهد أسرة تانغ كانت الحكومة تحتكر تجارة الملح وتفرض ضرائب هائلة على تجار الملح، الذين لم يكسبوا إلا ربحاً قليلاً بسبب الضرائب المفروضة واضطهاد الحكومات المحلية عليهم. كان ((وانغ شيان تشي)) رئيساً من رؤساء تجار الملح لا يرتضي بالحكومة منذ وقت طويل. في عام 874 ميلادي المصادف العام الأول بعد اعتلاء الإمبراطور تانغ شي تسونغ، قام بالثورة في منطقة ((تشانغ يوان)) الواقعة في مقاطعة خه نان.

ما لبث أن تجاربه هوانغ تشاو وهو وقتها تاجر في مدينة ((يوان جيو)) الواقعة شمال محافظة ((تساو شيان)) بمقاطعة ((شان دونغ)).

كان هوانغ تشاو طالباً مثقفاً كما ذكرنا من قبل. أصبح تاجراً للملح بعد فشله مرات عديدة في امتحان التوظيف الحكومي بسبب فساد الحكومة الذي خاب أمله. هذه مرة اشترك في الثورة تجاوباً لوان شيان تشي. ربما لم يعقل أحد أنه هو من يؤدي إلى هلاك إمبراطورية تانغ الكبرى.

قاد هوانغ تشاو جيشه للتجمع مع قوات وانغ شيان تشي. لما تقدمت قواتهما المشتركة إلى مقاطعتي شان دونغ وخه نان، تولى المسؤولين في البلاط الذهول والرعب. تسارع الإمبراطور في أمر حكماء الولايات لقمع القوات الثائرة، بيد أنهم لم يفعلوا بما أمره الإمبراطور، بل بقوا يراقبون تطور الوضع دون إرسال جيوشهم إذ كانوا يريدون الحفاظ على قوتهم. نظراً لردود أفعال هؤلاء الحكماء، تحول الإمبراطور تانغ شي تسونغ إلى إغراء قاو شيان تشي بالأموال والمناصب. أرسل

مبعوثاً إليه يتعهد بتعيينه «القائد الأعلى لجيش الحراس الملكي الأيمن والمدير العام لديوان يو شي تاي».

وافق وانغ شيان تشي بشكل قاطع وهو طالما يحلم بأن يكون مسؤولاً عالياً في البلاط.

جاء هوانغ تشاو إليه مع فريق من الجنود لاستجوابه قائلاً: لقد وعدنا أن نحكم البلاد لخدمة أبناء الشعب الفقراء، لماذا تخالف وعدنا؟ تفعل ذلك لأجل المال والمنصب، صح؟ لم ينته من قول حتى لطم وانغ شيان تشي لطمة قوية. انهمر الدم الأحمر الغزير على وجهه حالاً، في حين بدأ قادة جيشه هم الآخرون يعاتبونه على جانبيه. طرد وانغ شيان تشي مبعوث الإمبراطور كارهاً على العلم بأنه ليس على الحق. في الوقت اللاحق أسره جيش تانغ في منطقة ((هوانغ مي)) الواقعة في حدود مقاطعة ((هو بي))، وقتله.

استمر هوانغ تشاو في المناضلة مع جيشه بعد مقتل وانغ شيان تشي. لقبه قادة جيشه بـ «الجنرال السماوي».

قاد هوانغ تشاو الجيش الثائر من مقاطعة خه نان باتجاه الجنوب عبوراً لنهر يانغتسي حتى احتل مناطق ((تشه جيانغ)) و((قوانغ دونغ)). لم يقابل الجيش الثائر عقبة جديرة بالذكر أثناء تقدمه. في عام 880 ميلادي شن هوانغ تشاو الهجوم الفاصل على العاصمة تاشنغ آن. انطلق الجيش الضخم المتكون من ستمائة ألف عسكري من مدينة ((تونغ قوان))، ففر الإمبراطور من العاصمة في غاية الحرج.

على هذا النحو دخل هوانغ تشاو العاصمة للمرة الثانية في عمره. لم يعد في حال يثرى له كما كان عليه في الماضي. كان يجلس على المحفة الوثيرة المزخرفة بالذهب. تابعه عن كثب القادة والجنود وهم كانوا يربطون شعرهم المنسدل إلى ظهرهم، يرتدون الملابس الحريرية ويحملون الأسلحة. كان الفرسان يسيرون سيرة السحاب، والشوارع مزدحمة بالعربات الحافلة للغذاء والأسلحة. تدافع أهل تشانغ آن إلى الشوارع ترحيباً بامتداد الجيش الثائر.

ما إن دخل هوانغ تشاو العاصمة حتى فتح خزانة القصر الملكي وأهراء الأقوات لتوزيع الحبوب والأموال لأبناء الشعب.

فرح أهل العاصمة. ساد الجو المبتهج أنحاء العاصمة تشانغ آن. بعد عدة أيام نصب هوانغ تشاو نفسه الإمبراطور وحول تسمية الإمبراطورية إلى إمبراطورية ((ده تشي)).

اكتسح الجيش الثائر جل البلاد وأحرز النصر أينما أتى. لكنه عندما يخوض معركة اتخذ طريقة الكر والفر دائماً. كلما احتل مدينة، غادره بعد قليل باتجاه مدينة أخرى، ورجع قوة تانغ المنهزمة إلى مدينتها المحتلة بعد غياب الجيش الثائر. لذا لم ينشئ هوانغ تشاو قاعدة ثابتة له، مما غرس بذر فشله المستقبلي.

كان كثير من جنود جيش تانغ يتمركزون خارج العاصمة تشانغ آن عندما جرى تتويج هوانغ تشاو داخلها.

فلم يعترف الإمبراطور تانغ شي تسونغ بهزيمته بسهولة. حشد عشرات الآلاف من الجنود لحصار العاصمة تشانغ آن بقيادة ((لي كه رن)). ما زاد الطين بلة أن ((تشو ون)) القائد الذي أرسله هوانغ تشاو إلى مدينة ((تونغ تشو)) خان الجيش الثائر للاستسلام لإمبراطورية تانغ. فتعرض الجيش الثائر لهزيمة نكراء في العاصمة تشانغ آن واضطر إلى التراجع إلى مقاطعة خه نان، في حين قاد تشو ون قوات تانغ لمطاردتهم. في عام 884 ميلادي، وعي هوانغ ((لين يان)) ابن اخ هوانغ تشاو بأن الهزيمة مكتوب على الجيش الثائر، فقتل عمه الذي كان يهرب من جيش تنانغ عند وادي ((لانغ هو)) لجبل ((تاي شان))/ ثم استسلم لإمبراطورية تانغ.

على الرغم من فشل ثورة هوانغ تشاو في النهاية هزت أساس إمبراطورية تانغ الفاسدة، التي أبيدت على يد تشو ون القائد المستسلم.

بعد وفاة الإمبراطور تانغ شي تسونغ متأثراً بالمرض، اعتلى العرش أخوه الصغير ((لي يه)) وهو معروف بالإمبراطور ((تانغ تشاو تسونغ)) في التاريخ.

لقد أصبحت وقتها سلطة الخصيان أقوى من أن يسيطر عليها. نقلوا الإمبراطور إلى مدينة فانغ شيانغ حيث تواطؤوا مع ((لي ماو تشن)) حاكم ولاية فانغ شيانغ لخطف السلطة الأعلى. رأى تشو ون أن وقته قد حان، فأنقذ الإمبراطور من يد لي ماو تشن. لما رجع هو والإمبراطور إلى العاصمة تشانغ آن، سيطر على الإمبراطور والسلطة الأعلى الحقيقية.

ما كاد تشو ون يستولي على السلطة حتى ذبح جميع الخصيان في العاصمة، كما أغرم الإمبراطور على إصدار فرمان لتعيين مدينة لوه يانغ العاصمة الجديدة. عندما غادر تشان آن، أرسل جنوداً لحفز الأهل على السير بسرعة. أفظع من ذلك، أمر بتقويض كثير من القصور والمنازل الحكومية وبيوت الأهالي، ونقل الأخشاب المحصول عليها إلى العاصمة الجديدة. أبى بعض المسنون مفارقة أرض أجدادهم، فكانوا يسيرون بخطى وئيدة. لذا تعرضوا على الوابل من الضربات والشتائم. لا مفر لأهل المدينة من الهجرة إلى مدينة لوه يانغ بتعب جسومهم ودموع أعينهم.

في العاصمة الجديدة لوه يانغ، تدبر إمبراطور تانغ تشاو تشونغ على اللجوء إلى قوة حكماء الولايات في أنحاء البلاد لتخليصه من سيطرة تشو ون، فأصدر مرسوماً سرياً لهم. لم يضع في حسبانه أن المرسوم وقع في يد تشون، اغتاله تشو ون على الحال إذ أدرك خطة الإمبراطور. نصب ((لي تشو)) إمبراطوراً دمياً وهو في الثالثة عشر من عمره. يعرف في التاريخ إمبراطور ((تانغ تشو شوان دي)).

فكلما انعقد اجتماع البلاط الاعتيادي، لعب الإمبراطور الصغير مع صرار الليل، بينما أملى تشو ون الأوامر على المسؤولين. لقد أصبح حاكماً حقيقياً للإمبراطورية. كان المسؤولون القدامى يضمرون حقد عليه. استقال بعضهم من مناصبهم محتجين بالمرض، أما البعض الآخر فعامل تشو ون ببرودة عند اجتماع البلاط. سخط تشو ون عليه كثيراً. ذات يوم قال له أحد مستشاريه: إن هؤلاء المسؤولين العند أكبر عرقلة لممارسة سلطتك. فيجب أن نزيحهم. بأي طريقة؟ أقترح أن ترميهم إلى النهر الأصفر العكر وهم يدعون دائماً بأنهم طاهرون مثل «المياه النقية» في البلاط.

لم يتمالك تشو ون نفسه عن الضحك يثني على اقتراح مستشاره. في ليلة داكنة أمر أتباعه فإلقاء أكثر من ثلاثين مسؤول إلى النهر الأصفر. على مر الأيام أصبح لا يكتفي بالتحكم في الإمبراطور باسم إمبراطور تانغ تشاو شوان دي، فأبطله عام 907 ميلادي ونصّب نفسه إمبراطوراً جديداً يعرف بإمبراطور ((ليانغ تاي تسو)). أسس إمبراطورية ((ليانغ)) وعاصمتها مدينة ((بيان جين)). هكذا، هلكت إمبراطورية تانغ في يد تشو ون، بعد وجودها لمدة أكثر من مائتي سنة.

Notes

[1←]
وي: وحدة الطول في الصين القديم. يساوي وي واحد محيط دائرة تتكون من السبابتين والإبهامين.

[2←]
مسحوق ووشي: مسحوق متكون من خمسة أنواع من المعادن.

[3←]
لي: وحدة الطول في الصين القديم. لي واحد يساوي حوالى 500 متر.

[4←]
جينغ تشاو يين: بمثابة عمدة المدينة اليوم.

[5←]
سي ما: إنه منصب في الحكومة الصينية القديمة. هو مسؤول عن الشؤون العسكرية.

[6←]
تشي: وحدة الطول الصينية. يساوي تشي واجد ثلث نتر.

[7←]
لي: وحدة الطول الصينية. لي واحد يساوي نصف كيلومتر.

[8←]
أداة لقياس الحجم. حجمه عشرة لترات.

[9←]
منصب في الحكومة الصينية القديمة.

[10←]
وحدة الطول الصينية. يساوي تشانغ واحد 3.3 مترا تقريبا.

[11←]
الشانغشولينغ والتشانغو وهما منصبان في حكومة الصين القديمة.

[12←]
عملة في الصين القديمة.

[13←]
منصب في حكومة الصين القديمة.

[14←]
دا لي سي بمثابة المحكمة العليا اليوم.

[15←]
الجبال الخمسة: عبارة عن الجبل الفصل لنهر يانغتس ونهر تشو جيانغ وما حوله من الجبال.

[16←]
إن «حور» في الصينية «يانغ»، و»البرقوق» في الصينية «لي». ينوه الكاتب بهما ليشير إلى عائلة سوي الملكية ولي يوان مجازيا.

[17←]
وحدة الوزن في الصين القديمة. يساوي داو واحد ستة كيلوغرامات وربعا.

[18←]
المقصود بالإمبراطورية العربية آنذاك.

[19←]
المقصود بالهند آنذاك.

[20←]
المقصود بالتيبت.

[21←]
وحدة الطول في الصين القديمة. يساوي بي واحد 33.3 متر تقريبا.

[22←]
رتبة من رتب الحظايا.

[23←]
تشان قوان هو عنوان حكم لي شي مين الإمبراطور تانغ تاى تسونغ.

[24←]
دائرة هوانغ مان كانت إحدى دوائر البلاط في عهد أسرة تانغ. يشابه مديرها نائب وزير الوزراء اليوم في الرتبة والواجبات.

[25←]

كاى يوان عنوان حكم الإمبراطور تانغ شوان تسونغ.

[26←]
كان بلاط تانغ يتكون من دواوين عدة، وتحت سيطرتها دوائر. إن رئيس ديوان «تشونغ شو» رئيس رؤساء الدواوين التي رؤساء بعضها يطلق عليهم «كبير الوزراء».

[27←]
تيان باو العنوان الثاني لحكم إمبراطور تانغ شوان تسونغ.

[28←]
أي الزهرة.

[29←]
في الصين القديمة، كان للمثقف ثلاثة أسماء. الأول اسمه الحقيقي الذي ناله عند ولادته. الثاني اسمه الرسمي الذي ناله بعد بلوغه سن الرشد. يناديه الناس باسمه الرسمي في المناسبات الرسمية وفي جهات عمله. الثالث اسمه المستعار الذي يستخدمه عندما يكتب الشعر أو المقالة.

[30←]
تشانغ شانغ يعني الحياة الأبدية باللغة الصينية.

[31←]
طريقة في الطاوية لتصفية النفوس من خلال التمسك عن الطعام.

[32←]
هوان هوا بمعنى «غسل الزهور» في الصينية.

[33←]
مفهوم النيرفانا في البوذية الجاينية هي حالة الخلو من المعاناة. تعتبر الـ )نيرفانا( هي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق، أي أنه يصبح منفصلا تماما بذهنه وجسده عن العالم الخارجي، والهدف من ذلك هو شحن طاقات الروح من أجل تحقيق النشوة والسعادة القصوى والقناعة وقتل الشهوات، ليبتعد الإنسان بهذه الحالة عن كل المشاعر السلبية من الاكتئاب والحزن والقلق وغيرها.

[34←]
كانا حكيمين في عهد أسرة هان.

[35←]
إن ديوان «يو شي تاى» يعادل النيابة العامة في الدور.

[36←]
قان لو بمعنى العيث باللغة الصينية.

[37←]
تعرف اليوم بمحافظة لي شيان بمقاطعة سي تشوان.